

مالك بن نبي

بين التمثّل والإبداع

عنوان الكتاب: مالك بن نبي بين التمثّل والإبداع
اسم المؤلف: د. غازي الشمري - د. جعفر ياشوش
الموضوع: دراسات فكرية
عدد الصفحات: 270 ص
القياس: 17 × 24 سم
الطبعة الأولى: 1000 / 2017 م - 1438 هـ
ISBN: 978-9933-580-27-8

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa



سورية - دمشق - ص ب 4650

تلفاكس: +963 11 2314511



هاتف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org

ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

  Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

مالك بن نبي بين التمثّل والإبداع

تأليف: الدكتور غازي الشمري
الدكتور جعفر يايوش

الفهرست

٧	كلمة لا بد منها
	القسم الأول: "مالك بن نبي الإنسان، إنسان بن نبي"
٣٥	مراجعة وتقويم للسيرة الذاتية
٣٧	المبحث الأول: مالك بن نبي الإنسان
٥٥	المبحث الثاني: مالك بن نبي ومشروع الإنسان
٦٩	المبحث الثالث: مناهج بن نبي المعرفية
٩٣	المبحث الرابع: مرجعية مالك بن نبي
١١٣	القسم الثاني: النظريات البنائية وامتداداتها التطبيقية الرؤية والإسقاط
١١٥	مدخل تأسيسي: في فقه السنن الكونية والتاريخية
١٢١	المبحث الأول: الرؤية الكونية التوحيدية
١٣٥	المبحث الثاني: العالم الإنساني في إطار الصيرورة التاريخية
١٤٣	المبحث الثالث: دراسة ظاهرة الحركة الإنسانية وصيرورة التاريخ
١٥١	القسم الثالث: (الإسقاط)
١٥٣	المبحث الأول: المتغيرات السياسية في الساحة الدولية
١٦٥	المبحث الثاني: النظام الدولي: الأطروحة
١٧١	المبحث الثالث: الإعلام بين التركيب والتوجيه الأيديولوجي
٢٠٧	المبحث الرابع: فلسفة الاقتصاد الغربي، قراءة في الأصول
٢٥٧	ملحق بالدراسة
٢٦٥	قائمة المصادر والمراجع

كلمة لا بد منها:

أخي القارئ، قد تتفاجأ وأنت تتصفح هذا الكتاب والذي نضعه بين يديك، محاولين فيه تقديم صورة غير مألوفة، عن المفكر الجزائري "مالك بن نبي"، عبر مرحلتين: المرحلة الأولى، نقصد في هذا المقام تاريخ فكرة هذا الكتاب، والتي جاءت على إثر انعقاد الملتقى الوطني الأول حول الثورة وفلسفة التغيير عند مالك بن نبي بتاريخ ٣١ أكتوبر بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية عام ١٩٩٢، والذي قدمنا فيه آنذاك ورقة عمل بعنوان فلسفة الحركة التاريخية عند مالك بن نبي.

أما المرحلة الثانية تعود إلى "الملتقى الوطني الأول حول فكر العلامة مالك بن نبي، تحت شعار: مالك بن نبي ومحاولة الإجابة عن سؤال النهضة" أيام ١٨، ١٩، ٢٠ أبريل ٢٠٠٧ في المركز الجامعي الشيخ العربي التبسي بمدينة تبسة، ولكن من حسنات حضورنا إلى هذا الملتقى أننا استطعنا أن نلتقي ببعض أفراد عائلة مالك بن نبي وهما كلا من الأستاذ خالد مسقاجي أستاذ ومؤلف موسيقي والذي تأثر كثيرا في شبابه بالأستاذ مالك بن نبي وكان رفيقه في مصر، ويحتفظ للآن بالكثير من الأشياء الخاصة بابن نبي، والشخص الثاني كان الحاجة خالدي فاطمة مسقاجي، وقد أفادنا لقاءهما أن تمكنا من معرفة الحي القديم الذي كان يسكنه مالك بن نبي وعائلته والذي ذكره في كتابه (شاهد القرن)، ولكن ما أسفنا له هو حال ذلك المنزل الذي آل إلى خراب. أما المفاجأة الكبرى فهو لقاءنا بالأستاذة بوزيدة نورة والتي تعتبر صديقة مميزة للعائلة؛ فهي على صلة بزوجة المرحوم الأستاذ بن نبي وبابنته رحمة المقيمة حاليا في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد قدمت مداخلتها في الملتقى آنف الذكر تحت عنوان "بن نبيات"، ومن فوائد هذه المداخلة أنها جاءت بمعلومات بيلوغرافية وبيوغرافية جديدة عن المفكر بن نبي، ولكن القارئ باللغة العربية على جهل تام بها والبعض منها مذكور في بعض الكتب وفي بعض المقالات الصحفية من غير ذكر المصدر، ومن بين القضايا التي أثارت جدلا كبيرا أثناء عرض الأستاذة بوزيدة لمداخلتها، أن مالك بن نبي ذكر في دفاتره التي لم تنشر من

قبل أنه حاول الإنتحار مرتين، لأنه رأى نفسه سببا في البؤس وحالة الفقر التي عاشتها عائلته وخاصة والده الذي عانى الكثير بسبب مواقفه السياسية من الإدارة الإستعمارية.

وعليه تكوّنت لدينا فكرة واضحة عن الكتاب الذي كانت نخالجا فكرته منذ ١٩٩٢، ولذا قمنا بزيارة إلى مدينة درو DREUX الفرنسية وهي ذات طابع ريفي، وهي مسقط رأس زوجته الفرنسية والتي ذكرها في كتابه (شاهد القرن) وأيضا في (دفاتره)، وذلك في شهر ماي من السنة نفسها أي ٢٠٠٧، وفي هذه الزيارة اكتشفنا فعلا ذلك النمط الريفى المميز لهذه البلدة فعند دخولنا إليها قرأنا يافطة مكتوب عليها "مدينة مراقبة" (Ville surveillé)؛ ففي البداية استغربنا الأمر ولكن فيما بعد زال العجب لما عرف السبب؛ فهي بلدة تاريخية فيها يوجد بيت الأديب والمسرحي الفرنسي الشهير فيكتور هيغو، وهذا بيته الأول، كما وجدنا نصبا تذكاريًا يخلد ضحايا الإجتياح النازي لهذه المنطقة، وأيضا يخلد أسماء الجزائريين الذين تعاونوا مع فرنسا (الحركة).

وعليه، فإشكالية هذا الكتاب هي مقارنة نقدية للأستاذ مالك بن نبي باعتباره شخصية غير عادية في تاريخ الجزائر المعاصر بصفة خاصة وفي تاريخ الفكر العربي والإسلامي بصفة عامة، وذلك لما تميزت به هذه الشخصية من تفرد في الرؤية وفي الطرح لقضايا الأمة الإسلامية المعاصرة، بالإضافة للتجديد في وسائل الإجتراح والاقتراب من تحليل مختلف القضايا وذلك تحت عنوان شامل "مشكلات الحضارة"، وعليه ارتأينا أن يكون القسم الأول من الكتاب تحت عنوان: "مالك بن نبي الإنسان، إنسان بن نبي"، وهذا الإختيار فرضته زاويتان على مستوى الرؤية والمنهج؛ فالزاوية الأولى تتعلق بالذات الباحثة، وذلك أنه تربطنا بفكر مالك بن نبي سيرة ذاتية ترجع إلى بداية ثمانينيات القرن المنصرم، وذلك عندما اقتنينا في زيارة عائلية لقسنطينة أحد كتب مالك بن نبي وهو كتاب "تأملات"، وفور اطلاعنا على السيرة الذاتية للمرحوم مالك بن نبي والمثبتة في ظهر غلاف الكتاب، ربطتنا به علاقة روحية منذ ذلك التاريخ؛ وأيضا (النزعة العلمية) التي تسيطر على طريقة التفكير والرؤية للمواضيع المختلفة، وثالثا (المستقبل)؛ فكلنا يرنو إلى غد تتحقق فيه أحلام الحاضر...

لماذا إذن "هذه الصيغة المزدوجة" "مالك بن نبي الإنسان، إنسان بن نبي"، لأننا نرى أن مشروع مالك بن نبي رحمه الله تلخصه سيرته الذاتية، أو لنقل أن مشروعه الحضاري كان

يراوده منذ نعومة أظافره؛ فكبر معه المشروع كحلم طفولي بريء، ثم كفكرة ناضجة بحكم ظرف الاستعمار، ثم كمشروع رسالي استشرافي لواقع الأمة العربية والإسلامية بفعل عامل الاحتكاك بهذا الغرب الاستعماري، والتفاعل مع معطياته الفكرية والتكنولوجية بل وأيضا الاجتماعية والثقافية.

فما هي إذن تلك الفطريات الأولية، التي بنيت عليها أولى المفاهيم البنائية وهو بعد لم يتعد مرحلة الحلم؟

أما القسم الثاني من الكتاب فهو بعنوان "النظريات البنائية وامتداداتها التطبيقية (رؤية وإسقاط)"، وفيه نعرض على مناقشة المرجعيات المعرفية لديه من خلال مصادره، ومنهجه المبتكر وغير المسبوق في عرض قضايا حضارية تخص الأمة الإسلامية قديما وحاضرا ومستقبلا...

وعليه حاولنا أن نعتمد المنهج التحليلي التاريخي والاستقرائي تارة وتارة أخرى المنهج التكويني والحفري، من أجل الوقوف على العناصر النووية المكونة للمحمول الفكري لدى بن نبي، وكذلك المعايير النقدية والأدوات المنهجية التي طبقها رحمه الله في مجموع بحوثه الخاصة بدراسة مختلف الجوانب الحضارية للعالم الإسلامي آنذاك وفق محدد الظاهرة الاستعمارية التي كانت تهيمن عليه كما يحلو له أن يطلق عليه محور طنجة-جاكرتا.

ومن أجل إيفاء الدراسة حقها من حيث المتن المعرفي ومن حيث الجانب المرجعي كان لابد من الوقوف على المصادر الأصلية لمالك بن نبي، وهنا لابد أن نشير إلى المسائل الآتي ذكرها:

١/ مسألة مؤلفات بن نبي التي لم يسبق نشرها، وهنا وقفنا على مجموعة منها ما بين سنتي ٢٠٠٦-٢٠٠٨ وهذه المؤلفات هي: Mémoires d'un témoin du siècle "مذكرات شاهد القرن"، الصادر عن دار SAMAR "سمر" بالجزائر العاصمة وذلك سنة ٢٠٠٦، والذي يحتوي على أربعة أقسام وهي: L'Enfant "الطفل"، L'étudiant "الطالب"، L'écrivain "الكاتب"، وأخيرا Les Carnets "الدفاتر". الملاحظ على هذه الطبعة الفرنسية أننا لأول مرة نعرف أن مذكرات شاهد القرن ليست جزأين فقط بل يضاف إليها الجزء الثالث L'écrivain "الكاتب"، والذي هو عنوان بديل للعنوان

الأصلي المعروف بـ "تعفّنات" Pourritures، وكان بن نبي تحلّى عن هذا العنوان بصفة قطعية ونهائية بتاريخ ١٣ ماي ١٩٥١م، حيث يشير إلى أنه استأنف كتابة هذا القسم الثالث بعد سنة من انتهائه من كتابة القسمين الأول والثاني "الطفل" و "الطالب" من سيرته الذاتية، وأضاف أن هذا المخطوط هو بين يدي كل من الشيخ شيبان والشيخ إبراهيم والذين أقنعاه بضرورة الاحتفاظ به بعدما كان هو قد قرر أن يتخلّص منه في شهر أوت من السنة الماضية أي ١٩٥٠.

أما ما بين ٢٠٠٨-٢٠١٤، عثرنا على مؤلفات لمالك بن نبي تنشر لأول مرة، منها كتاب وجهة العالم الإسلامي الجزء الثاني (المسألة اليهودية) (Vocation de l'Islam II (Problème des Juifs)،

لقد تناول المفكر مالك بن نبي تأثير اليهود في تاريخ العلاقات اليهودية في العصور القديمة والحديثة، ودورهم في إشعال الحرب الباردة بين الكتلتين في أعقاب الحرب العالمية الثانية من خلال كتابه "المسألة اليهودية" والذي انتهى من كتابته سنة ١٩٥٢.

وقد أضاف فصلاً ثالثاً تناول فيه الحياد الإسلامي والدبلوماسية الغربية ونتائج هذا الحياد على الصعيد الدولي، ثم تطرق من جانب استشرافي إلى إمكانية قيام حرب عالمية ثالثة مدمرة، أو كما سماها هو (الهدم الكلي).

كتب مالك بن نبي دراسته حول "المسألة اليهودية"، وهو تحت تأثير صدمة كبيرة أصابت العالم الإسلامي بعد تحقيق المشروع الصهيوني الذي أقر في مؤتمر بازل بسويسرا من قبل الحركة الصهيونية عام ١٨٩٧م، والقاضي باحتلال فلسطين وقيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨، حيث ظهر للعيان أن الهدف البعيد لليهود الصهاينة الذين عملوا على التمهيد له طيلة قرون عدة (حسب المؤلف) قد وصلوا إليه.

لا شك في أن الكثير من الأفكار والطروحات صحيحة فيما يتعلق بالنفوذ الصهيوني في الدوائر المالية العالمية، ووسائل الإعلام المرئية والمكتوبة والمسموعة في الولايات المتحدة الأمريكية والقارة الأوروبية، وكذلك الأمر بالنسبة للعديد من القادة السياسيين المتنفذين في هذه الدول وفي الكونغرس الأمريكي وغيرها من الهيئات التشريعية والتنفيذية.

ولكن القول أن الحريين العالميتين الأولى والثانية من تدبير اليهود، وقبل ذلك الأحداث الدولية الكبرى كالثورة الفرنسية وتصريح حقوق الإنسان والمواطن، وثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧، وقضايا صغيرة كتنظيم سباق للسيارات من شاطئ البحر المتوسط إلى شانغهاي في الصين مسائل من الصعب على المؤرخ أن يسلم بصحتها، وتحتاج إلى الكثير من الوثائق لتأكيد صحة العلاقة بين اليهود وهذه الأحداث.

يربط مالك بن نبي بين أطروحات كارل ماركس اليهودي في كتابه (رأس المال) والخطة اليهودية العالمية القاضية بالسيطرة على العالم، من خلال ابتداء النظام الرأسمالي، كتب يقول:

"لقد رأى ماركس أن ثمة خطرا يدهام إمبراطورية عنصره اليهودي وهكذا قيد المسار، حينما طرح كتابه رأس المال كميّار عقدي كي يضيف إلى الرأسمالية نتائج في مصلحة مملكته اليهودية. فالماركسية في الأساس كنظام جاءت تبطئ بالثورة القادمة لأغراض تتصل بالمصالح في المملكة اليهودية" (مالك بن نبي: المسألة اليهودية-الجزائر، دار الوعي ٢٠١٣، ص ٧٦).

لا بد من التنويه أنه صدرت عدة دراسات تحمل عنوان (المسألة اليهودية)، لعل أقدمها كتبها ماركس في عام ١٨٤٤، صدر مترجما ببيروت من قبل الأستاذ محمد عيتاني عن مكتبة المعارف عام ١٩٥٢، صادق جلال العظم (المسألة اليهودية)، ناجي علوش (الماركسية والمسألة اليهودية) بيروت ١٩٦٠م.

إن ما ورد في كتاب ماركس حول المسألة اليهودية، ينفي تماما ما ذكره مالك بن نبي، ونحن هنا لسنا بصدد الدفاع عن ماركس أو تروتسكي، ولكن كباحثين موضوعين غايتنا الحقيقة العلمية متجردين من عواطفنا وانتماءاتنا. يبدأ ماركس معالجا القضية قائلا:

"لم يكن كافيا التساؤل من ينبغي له أن يحرر، ومن الذي يجب أن يحرر؟ فعلى النقد أن يطرح على نفسه سؤالا ثالثا: بأي نوع من أنواع التحرر يتعلق الأمر؟ وأية شروط تقوم في جوهر التحرر المقتضى" (ص ٤).

القضية في نظر ماركس إذن ليست مسألة مسيحي ويهودي، وليست من منهما يحرر الآخر، بل مسألة مضمون التحرر ذاته.

والمسألة اليهودية لا تطرح بشكل مطلق، بل تطرح بصورة تختلف تبعا للدولة التي يعيش اليهودي في ظلها. إن جوهر اليهودية في نظر ماركس هو (المتاجرة وشروطها)، ليس إلا، هذه المتاجرة المال إله (أمامه لا ينبغي لأي إله أن يعيش) و(المال هو إله المطاع)، السفتجة (الصكوك)، هذا هو الإله الحقيقي لليهودي، ولكن هذا الإله لم يبق إله يهوديا فقد أصبح إله اليهود إله دنويوا، وغدا إله الناس، وعليه كتب ماركس (فإن قوميته الوهمية هي قومية التاجر، قومية رجل المال) (ص ٦٠).

وبذلك فضح ماركس جوهر العقيدة والقومية اليهودية، وبين أن اليهود يعيشون في مسامات المجتمع الإنساني ككائنات طفيلية تمتص خيرات الشعوب.

وحل ماركس للمسألة اليهودية واضح، فحين ينجح المجتمع في إلغاء الجوهر العملي لليهودية، المتاجرة وشروطها والربا، عندئذ يصبح وجود اليهودي مستحيلا، ذلك لأن ضميره لم تبق ثمة من حاجة له، وذلك لأن الأساس الذاتي لليهودية، الحاجة العملية قد اتخذت شكلا إنسانيا، وذلك لأن المنازعة بين الوجود الفردي والمحسوس للإنسان ووجوده الاجتماعي قد ألغى. إن التحرر الاجتماعي لليهود إنما هو تحرير المجتمع من اليهودية.

إن ماركس هنا يؤكد بوضوح تام، أن التحرر اليهودي مرهون بالقضاء على المجتمع الرأسمالي، وأن هذا التحرر هو ليس تحريرا لليهودي، إنما هو تحرير للإنسان.

نعتقد بأن هذا الكلام ينفي ما سبق أن ذكره مالك بن نبي حول الرأسمالية ودور اليهود في استحداثها، وهي آراء نمطية كانت سائدة في تلك السنوات التي حرر بها كتابه.

لقد عاصر ماركس نشاطات يهودية مختلفة استهدفت بعث التراث اليهودي، كما استهدفت تجميع اليهود في فلسطين، وعلى الرغم من ذلك ورغم يهوديته، فإنه لم ير في النشاطات اليهودية حركة قومية، وفي الوقت الذي دعم الحركات القومية في إيرلندا وبولونيا ووقف إلى جانب الوحدة القومية الألمانية، وأيد الوحدة القومية الإيطالية، فإنه لم ير في (اليهودية) إلا قومية وهمية ودعا إلى ذوبان اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها.

وقد وردت الإشارة إلى تروتسكي في الكتاب في عدد من الصفحات ودوره المخرب والداعم للحركة الصهيونية، وإنه سعى إلى تغليب العنصر اليهودي.

كان تروتسكي يهوديا، ولكنه كان حتى صعود الموجة النازية ضد يهود ألمانيا وبولونيا، ضد الروح الانفصالية اليهودية.

وأكد تروتسكي، مثل مارتوف وأكسيلرود وغيرهما من الاشتراكيين ذوي الأصل اليهودي، بأنه ليس هناك من مستقبل لليهود كمجتمع منفصل، وحل المشكلة اليهودية في نظر تروتسكي ليس في تأسيس دولة، وليس في تأسيس دول يهودية ضمن دول أخرى غير يهودية، ولكن في إعادة تركيب المجتمع تركيبا أمميا متماسكا.

وهاجم الحركة الصهيونية بكل قساوة واتهمها بالإفلاس في مقال كتبه في العدد ٥٦ من صحيفة الإسكرافا الصادر في ١ جانفي ١٩٠٤.

إن اليهودي لا بد له من المحافظة على دينه حتى يظل يهوديا، لأنه في الوقت الذي يهجر فيه هذا الدين يتحول إلى إنسان آخر. وتحوله هذا يوصل ما بينه وبين الانسانية، ويفتح مجالا واسعا للانطلاق والتقدم ولكنه يقاوم هذا التحول، يا ترى ما هو السبب؟

يرى ماركس إننا يجب ألا نبحث عن سر اليهودي في دينه بل علينا، أن نبحث عن سر اليهودية في اليهودي الواقعي. وهذا صحيح ولكن ما اليهودية إن لم تكن أيديولوجية اليهودي الواقعي؟

(К.Маркс и Ф.Энгельс Полное собрание сочинения изд.прогресес Москва , Евреский вопрос стр.57)

إن السبب في مقاومة التحول عند اليهودي راجع إلى أن الدين الخاص يمنحه الخصوصية، وبالتالي يبرر له أن يكون ما هو عليه: منغلقا وتاجرا ومرابيا وحرفيا وجوالا وصهيونيا.

لا بد عند الكتابة عن نفسية اليهودي وسلوكه أن نعود إلى الكتاب المقدس لتفسير ذلك، إن إلهه أباح له أن يقتل ويغتصب ويحتال، وعندما جاء اليهودي الأول من مصر هاربا وقاتحا، قال له إلهه المحارب المستعش للدماء: "أعطيتكم أرضا لم تتعبوا عليها، ومدنا لم تبنيها وتسكنوا بها، ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون".

ولم ينس هذا الإله المحارب الجبار أن يذكرهم قائلا: "ولكن إذا رجعتم ولصقتكم ببقية هؤلاء الشعوب، أولئك الباقيين معكم، وصاهرتوهم ودخلتم إليهم وهم إليكم (بمعنى

الذوبان في المجتمع)؛ فاعلموا يقينا أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم؛ فيكون لكم فخا وشركا وسوطا على جوانبكم وشوكا في أعينكم، حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إياها الرب إلهكم" (الكتاب المقدس: يشوع، الإصحاح ٢٣، ١٢-١٣، ٢٤-١٣).

يبدو الرب هنا صارما وحاسما، فلقد منح وحذر، وأعطى وقرر أن "يبعد سكان الأرض أمام بني إسرائيل، شعبه المختار، أما الذين احتالوا على الله وشعبه المختار، وضلوا فقد قال لهم يسوع: فالآن ملعونون أنتم؛ فلا ينقطع منكم العبيد، ومحتطبوا الخطب ومستقوا الماء لبيت إلهي" (الكتاب المقدس: يشوع، الإصحاح ٩ (٢٢-٢٣-٢٧)).

هذا اليهودي الذي دخل فلسطين هاربا من اضطهاد الفراعنة قبل أكثر من ألفي سنة، فقتل من قتل، واستعبد من استعبد، يعود حفيده بالدين اليوم، ليقتل من أهل الأرض من يقتل، ويستعبد من بقي.

ألفي سنة تمر، فتحدث تطورات كبيرة وتتقدم البشرية خطوات عظمية إلى الأمام، بينما يظل اليهودي كما هو، ويظل إلهه كما هو.

وخلال الشتات اليهودي، تهود أناس كثر من غير اليهود، وكانت الديانة الجديدة لا تحول المؤمنين الجدد إلى التوحيد كما يدعى، بل كانت تجعلهم مؤمنين برب خاص، وهو ربهم من دون جميع البشر، وتجعلهم قبيلة منغلقة على نفسها، متنافرة مع من حولها.... إنها كانت تقودهم إلى "الغيتو".

وعندما أخذت أسوار الغيتو تتهدم وتتلأشى في كل أنحاء العالم لا سيما في أوروبا بفعل التطورات الكبيرة، التي حصلت داخل المجتمعات، أخذ اليهودي (الحريص) على يهوديته المرتبط بها بأسباب يبحث عن غيتو (أكبر)؛ فكان الكيان الصهيوني (إسرائيل).

وما برحت الحركة الصهيونية تدعي بأنها تستهدف من قيام (دولة إسرائيل) توفير حياة طبيعية آمنة لليهود، وجاءت الأحداث الأخيرة في باريس ومقتل أربعة يهود فرنسيين في متجر للأطعمة اليهودية على يد حميدي كوباني الإفريقي المسلم فرنسي الجنسية، في الدعوة إلى هجرة يهود فرنسا إلى الكيان الصهيوني.

ولكن كيف يمكن أن توفر (إسرائيل) الأمان لهم، وهي تسلحهم وتضعهم أمام محيط عربي زاخر معاد لهم، وتجعل القتل والعدوان والتوسع شريعة لهم.

إن وضع اليهودي في فلسطين أصعب بكثير من وضعه في الشتات. فاليهودي في "الشتات" خير بين أن يظل يهوديا أو يصبح مواطنا، وهو في الحالتين يستطيع أن يعيش ويعمل.....، ولكنه في "إسرائيل" يقف أما خيار عسير، إن عليه أن يقتل أو يقتل، وبما أنه محدود ومحصور وطارئ على هذه الأرض، ويستفز قوى أكبر منه كثيرا؛ فإنه بحمله السلاح يقود نفسه إلى المذبحة.

ومن يدرك هذه الحقيقة من الصهاينة يولون الأدبار، لذلك تتصاعد الهجرة العكسية إلى خارج الكيان الصهيوني الآن.

ووضعه هذا الذي خلقه بنفسه، يدفعه أكثر فأكثر إلى الاعتماد على قوى خارجية كبرى، وتحديدًا الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهما من الدول الأوروبية.

إن هذه القوى هي التي سهلت له مهمة الوصول إلى فلسطين واغتصابها والاحتفاظ بها حتى الآن.

واعتماده على هذه القوى العدوانية يجعله يقف نهائيا في صفها، ويقوده إلى معاداة حركة التحرر العربية والإسلامية.

لذلك يعلن قادة الكيان الصهيوني جهارا نهارا، بأنهم ضد كل تغيير تقدمي في الوطن العربي، ويصطفون إلى جانب الأنظمة والحركات المعادية لتطلعات شعوبها نحو التقدم والحرية.

إن قوة هذه الدولة الطارئة الغازية مرهونة بتفكك وطننا العربي وانقسامه وضعفه، أي ما يسميه مالك بن نبي (قابليتنا للاستعمار).

كما نجد أيضا عالم الفيزياء في القرن العشرين ألبرت أينشتاين، كان له موقف ضد الحركة الصهيونية وقد ذكر ذلك محمد حسنين هيكل في كتابه "زيارة جديدة للتاريخ" في فصل بعنوان (ألبرت أينشتاين، النسبية، القنبلة وإسرائيل)، وهو فصل يلخص فيه مجريات اللقاء

الذي جمعه بعالم الطبيعيات والفيزياء آينشتين بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٥٢ بالولايات المتحدة الأمريكية بمدينة "برنستون"، ولنبدأ بما أثبتته من قبل كارل ماركس ألا وهو "أن نبحت عن سر اليهودية في اليهودي الواقعي"، إذ يذكر حسنين هيكل في مقابلته التي كانت أن آنشتاين بادره بالسؤال التالي: "هذا ما أريد أن أسألك فيه. هل تعرف ما ينوون عمله بأهلي؟"، يقول حسنين هيكل: "ومرة أخرى كانت دهشتي حقيقية، ولاحظ، وأضاف مفسرا -أي آنشتاين-: "أهلي من اليهود... هؤلاء الذين يعيشون في إسرائيل".

يضيف هيكل قائلاً: "وتذكرت لحظتها فقط - حقيقة أنه يهودي، كان وعيي وفهمي وتقديري باستمرار أنه (العالم)، ولم أصنّفه في خواطري على أساس ديني أو عرقي - وها هو الآن يسألني عن (أهله في إسرائيل)، وأول سؤال! ". (حسين هيكل: زيارة جديدة للتاريخ، نشر شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة ٧، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م، ص ٢٠١).

ولما لاحظ آنشتين تملل وارتباك هيكل وهو يحاول ترتيب أفكاره ليجيبه عن سؤاله، بادره مرة أخرى ليرفع عنه الحرج قائلاً له:

"يظهر أنني أفلقتك بما قلت، وتعجلت اللحظة المناسبة له. ويستحسن الآن أن أعود إليه موضّحا، إنني كنت على وشك أن أطلب إليك أن تنسى سؤالتي مؤقتا وتدّخل في أسئلتك على أن أحتفظ أنا بسؤالتي إلى النهاية، لكنني أتصور الآن أن سؤالتي سوف يظل معلقا فوق حديثنا ما لم نواجهه صراحة ثم نضعه في مكانه الصحيح. سوف أقول لك....

اهتمامي باليهود إنساني، وكذلك اهتمامي بإسرائيل إنساني. إنني عشت معهم ما تعرضوا له في ألمانيا قبل الحرب، عشت معهم بدايته لكنني تركتهم مبكرا (...). جئت إلى أمريكا أول مرة في صحبة (حايم) "وايزمان" (...). سنة ١٩٢١ (...). لقد أراد أن اشارك في حملة لجمع تبرعات لصالح الجامعة العبرية في القدس ووافقت، هم أهلي (...). وكنت أشاركهم حلم الوطن، أن يكون لهم وطن لا يضطهدهم فيه أحد (...). بنفس الوضوح فأنا أقول لك أنني لا أريد لهم بدورهم أن يضطهدوا أحدا؛ فعرب فلسطين لهم حق في الوطن الوحيد الذي عرفوه، لا يستطيع أحد أن ينكره عليهم" (هيكل: زيارة جديدة، صص ٢٠١-٢٠٢).

إذن أنشتين يقول بكل وضوح أنه مع طموحات أهله اليهود وهو في ذات الوقت وبكل وضوح أيضا يصرح بعبارات لا تحتل التأويل أنه مع أحقية عرب فلسطين في بلدهم الأم والذي لم يعرفوا غيره، بل أكثر من ذلك هو ضد ما تقترفه (إسرائيل) ضد العرب، ويصرح لهيكل أن ما يحدث في فلسطين سبب له أزمة ضمير، وأنه كان يظن أن القوى الدولية ستعمل على معالجة القضية و"لكن هذه القوى لم تستطع، ولعلها أرادت -لمصالحها- تعميق المشكلة بدلا من محاولة حلها". (هيكل: زيارة جديدة، ص ٢٠٢).

ثم يقول أنشتين لهيكل متسائلا: "هل قرأت الخطاب الذي شاركت في توقيعه إلى محرر الـ(النيويورك تيمس) احتجاجا على زيارة (مناحيم بيجين) لهذه البلاد في نهاية سنة ١٩٤٨؟ لقد وصفناه بأنه (سقاح وإرهابي) ولا يصح أن يسمح له بزيارة أمريكا."

ويزيد على ذلك انه قاطع كل المناسبات التي اقيمت أثناء زيارته وأنه اعتذر عن استقباله في بيته عندما اراد المجيء إليه، مع أنه أي -مناحيم- بعث إليه خطابا يقول له فيه: "أنه يريد أن يسمع مني ويتعلم كتلميذ؛ فإنني كنت أدرك أنه لا درس يجدي مع هؤلاء الذين يؤمنون بالعنف، لا أحد يستطيع أن يشفيهم." "باختصار... موقفي إزاء اليهود إنساني، موقفي من إسرائيل إنساني، نفس موقفي إزاء العرب وإزاء فلسطين". (هيكل: زيارة جديدة، صص ٢٠٢-٢٠٣).

بل إن آراء أنشتين تتوافق وتتطابق مع آراء ماركس وتروتسكي، ومارتوف وأكسيلرود وغيرهم من الاشتراكيين ذوي الأصل اليهودي، بأنه ليس هناك من مستقبل لليهود كمجتمع منفصل، وحل المشكلة اليهودية في نظر تروتسكي ليس في تأسيس دولة، وليس في تأسيس دول يهودية ضمن دول أخرى غير يهودية، ولكن في إعادة تركيب المجتمع تركيبا أميا متماسكا. فها هو أنشتين يعيد الفكرة نفسها بعباراته التالية:

"الحقيقة أنني لا أريد (لليهود) أن يقعوا في أسر الوطنية الضيقة، أخشى عليهم من ذلك، طوال تاريخهم كانت حياتهم وأفكارهم عالمية. تعرضوا للاضطهاد بسبب الجهل والتعصب وربما لظروف اقتصادية وثقافية، وأحيانا حصروا أنفسهم في أحياء خاصة بهم (الجيتو)، لكن ذلك كان ضرورة حماية وليس ضرورة حياة. إنهم أحسّوا بحاجتهم إلى وطن يحميهم (...)

هناك منطق معين في هذا الكلام لكن وراء المنطق مشكلة. (الوطن اليهودي) محصور والعرب لا يريدونه بينهم، لاحظ أيضا أن هناك يهودا كثيرين لا يريدونه أيضا لا في فلسطين ولا في غيرها. مشكلة منطق (الوطن) - كما أراها، وفي حالة الحصار والرفض - أنها تستدعي حالة من (الوطنية الضيقة)، كما قلت لك. (الوطنية الضيقة) عادة تصاب بما يمكن أن نسميه (اختناق المكان)، وهذا يخلق نزعات عدوانية تعيش على العنف وبه، وهذا يفسد روح أي شعب ويفسد بالتالي سياسته - منهجا وأسلوبا. (...) يهودي... نعم أنا يهودي بالطبع، وبالمعنى الإنساني. صهيوني... لا أعرف؟ (...) إسرائيلي... لا أظن. إنني أتعاطف مع الفكرة إنسانيا وأخشى من عواقب تنفيذها عمليا، لأن (الوطنية الضيقة) - كما قلت لك - قد تحولها إلى بؤرة عنف تتناقض مع الفكرة." (هيكلم: زيارة جديدة، ص ص ٢٠٣-٢٠٤).

وفي سياق الحديث الذي جرى بينهما - أي بين هيكلم وأنشتين -، يذكر هيكلم أنه قاطع أنشتين بسؤاله:

"هل أسألك بصراحة، إنك تلح كثيرا على مخاطر الوطنية الضيقة، كأنك تتحدث عن عالم بغير حدود وطنية؛ فهل ترى ذلك متاحا أو ممكنا في يوم من الأيام؟ إن هذه النظرة العالمية الشاملة تجعلني أتساءل عن جذورها في تفكيرك؟ هل مرجعها إلى يهوديتك التي لم تعرف وطنا؟ هل مرجعيتها إلى طبيعة عملك كعالم مهتم بالكون وقوانينه التي لا تعرف الحدود الوطنية؟ أليست الحدود الوطنية واقع مجتمعات (إنسانية) - إذا جاز لي استعمال تعبيرك - وأليست هذه المجتمعات الوطنية أطرافا في صراعات متعددة المظاهر: إقتصادية - إجتماعية - حضارية.... إلى آخره؟" (هيكلم: زيارة جديدة، ص ص ٢٠٧-٢٠٨).

يجيب أنشتين هيكلم عن هذه التساؤلات المشروعة بقوله:

"أنك سألتني عما إذا كانت نظرتي العالمية راجعة إلى يهوديتي أو إلى اشتغالي بالطبيعة. لا أعرف، ومع ذلك فإني أأمل أن تفهمني إذا قلت لك إنني لست متدينا، اليهودية بالنسبة لي هوية ثقافية.... موارد حضارية إنسانية بالتالي، العلم كذلك.... شاغلي حضاري إنساني (...). ما كنت أكرهه لم يكن الدم الذي يسيل والأجساد التي تسقط والانفجارات التي تدوي، لم يكن ذلك، ولكن الفكرة نفسها. فكرة أن تأخذ أحسن عناصر الشعب، شبابه، ثم تعلمه

شيئين: إطاعة الأوامر - أية أوامر - دون مراجعة، ثم أن يمارس القتل المنظم حين يصدر إليه الأمر بذلك. فكرة الحرب معناها بعد ذلك قيام مؤسسة للحرب تعطي نفسها حقاً فوق أي فكرة وفوق أي تعبير وفوق أي عمل، هكذا فإن فكرة الحرب تقتل أولاً فكرة الحرية (...) في ظل فكرة الحرب - الفكرة ذاتها - تفقد المجتمعات الإنسانية إنسانيتها، تفقد أجمل ما فيها حتى العلم والأدب والفكر. العلم يبيع نفسه لصالح الحرب، والأدب يبيع نفسه لحساب السياسة، والفكر يبيع نفسه لقيود الوطنية الضيقة". (هيكل: زيارة جديدة، ص ص ٢٠٩-٢١١). "... أما نحن فقد فقدنا الاتجاه لأن الفرد أسلم نفسه لفكرة الدولة، كأن الدولة هي التي صنعت الإنسان، وليس الإنسان هو الذي صنع فكرة الدولة" (هيكل: زيارة جديدة، ص ٢١٢).

وعندما قارب اللقاء التاريخي بين الشخصين المميزين (هيكل، آنشتين)، أعاد آنشتين الكرة مرة أخرى للحديث عن القضية الجوهرية بين العرب واليهود؛ ففتح هيكل بقوله: "أريد أن أعود بك إلى موضوع اليهود وإسرائيل. لكنني أريدك أن تعرف أن اهتمامي "إنساني". إنني قلت ل(وايزمان) - يقصد حايم وايزمان - حتى من قبل سنة ١٩٤٨، إنني أريد بيتاً ووطناً لليهود ولكنني لا أتمنى ذلك على حساب شقاء العرب الفلسطينيين. وحين أجابني (وايزمان) بأن (الله وعد اليهود بهذه الأرض)، كان ردي عليه: أننا يجب أن نترك (الله) خارج هذه المناقشة؛ فالكل يرى أن (الله) معه. إذا كان (الله) قد أعطى اليهود وعداً في فلسطين؛ فإن (الله) هو الذي أسكن الفلسطينيين فيها." (هيكل: زيارة جديدة، ص ص ٢٢٨-٢٢٩). وعندما تناقشا حول ما فعلته (إسرائيل) من أجل أهدافها التوسعية الغاصبة وخاصة مذبحه دير ياسين، أجاب آنشتين: "مع (ناس) مثل مناحم بيجين وما فعله في دير ياسين معك حق. لكن هؤلاء (الناس) ليسوا اليهود وليسوا فكرة (إسرائيل). هؤلاء (الناس) نازيون في فكرهم وتصرفاتهم، أنا أتحدث عن غيرهم". (هيكل: زيارة جديدة، ص ٢٣٠).

ما يمكن ملاحظته إجمالاً أيضاً على مجريات هذا اللقاء ومضمونه، أنه يؤكد لنا خاصية تميز بها اليهودي عن غيره عبر التاريخ، حتى صارت ملمحاً وميسماً لصيقاً به لصوق الظل

للجسم، ألا وهي خاصية فكرة ماركس القائلة: "أن التحرر اليهودي مرهون بالقضاء على المجتمع الرأسمالي، وأن هذا التحرر هو ليس تحريرا لليهودي، إنما هو تحرير للإنسان". هذه الفكرة هي التي دفعت بآنشتين إلى التحدث عن الحكومة العالمية، وذلك عند دفاعه عن فكرة نبذ الحرب وهذا ما كان سبب قدومه إلى أمريكا، وليس كما ظن البعض أن سبب قدومه إلى الولايات المتحدة هو الهروب من النازية التي كانت بدورها قائمة على فكرة الحرب المختلطة بفكرة الوطنية الضيقة. بل رأى آنشتين أن القارة القديمة (أوروبا) لم تعد قادرة على فهم واستيعاب الحقائق الجديدة، ولكن القارة الجديدة (أمريكا) تعد بالكثير وتفوق قوة وشبابا وانفتاحا. لذا عند قدومه بصفة نهائية إلى أمريكا سنة ١٩٣٣، شعر أن المناخ مختلف ووجد الباب أمامه مشرعا للتحدث بكل حرية ومن دون تضيق عن فكرة الحكومة العالمية، بل تعدى الأمر إلى أنه وجه نداء إلى شباب العالم بأن يرفض الخدمة العسكرية وأن لا يستجيب إلى هكذا نوع من الالتزامات الحكومية، مما يؤدي إلى إحراج الساسة والعسكريين، ولعله بذلك يساهم في وأد فكرة الوطنية الضيقة القائمة على فكرة الحرب. (هيكل: زيارة جديدة، ص ص ٢١١-٢١٢).

وهذا ما أدى به أثناء الحرب العالمية الثانية إلى أن يوجه نداء إلى الرئيس الأمريكي آنذاك (روزفلت) ينبهه إلى مخاطر تعاظم قوة ألمانيا النازية، خاصة بعدما توصل عالمان ألمان من تحطيم ذرة اليورانيوم ألا وهما (أوتو هاهن) و(فريتز ستراسمان)؛ فكتب آنشتين إلى (فراكلين روزفلت) مقترحا عليه أن تهتم الولايات المتحدة بأبحاث مجموعة من العلماء المختصين في هذا المجال، وكان المغزى من هذه الرسالة أن تسبق أمريكا وحلفاؤها هتلر في صنع سلاح نووي ردعي، وكانت الرسالة قد وجهت قبل اندلاع الحرب بشهر، إلا أنه تلقى الرد بعد ثلاثة شهور أي بشهرين بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية. وقد تابع آنشتين بعد ذلك مدى تقدم مشروع صناعة القنبلة النووية، الذي كان يعرف نتائج إيجابية، واستسلمت النازية ولم تكن هناك حاجة سياسية لاستعمال (القنبلة)؛ فأشار بعض زملائه عليه وتحديدا العالم (ليو زيلارد) -أستاذ الطبيعة في جامعة كولومبيا- أن يكتب مرة أخرى إلى الرئيس الأمريكي الجديد (ترومان)، بطلب الامتناع عن استعمال القنبلة الذرية لأنه لم يعد هناك من داع.

إلا أنه لم يتحمس كثيرا للكتابة ل(ترومان)، على تقدير أن غيرهم -أي الآخرون من دون علماء الذرة، من رجال السياسة والجيش- أيضا يدركون انتفاء دواعي استخدام (القنبلة)، خاصة أولئك من بأيديهم سلطة القرار، لكن الرياح تجري غير ما تشته السفن، وإذا بآنشتين وأصدقائه يفاجئوا بإلقاء القنبلة الذرية الأولى على (هيروشيما)، ثم القنبلة الذرية الثانية على (نكازاكي)، فتجرع آنشتين كأس المرارة وتلبسته حالة من الغضب والقرف، مما اقترفته يد الإنسان من فضاغة وهول عندما أزاح الستار عن الرعب النووي، وألقى باللائمة على نفسه وأنه لو كان يعلم أن هتلر سيتعثر في مشروعه لصنع قنبلة ذرية وأن الاستسلام سيفرض عليه بالأسلحة التقليدية، لما كتب تلك الرسالة إلى روزفلت، ولكان بذلك برأ ضميره على الأقل وإن كان ذلك لا يعفيه من المسؤولية وإثم الحرب. وذلك ليس معناه أنه كان باستطاعته تغيير وجهة التاريخ؛ ف(القنبلة) كانت قادمة على أية حال، وأن الناس في زمانه -عندما تم تفجير القنبلتين فوق المدينتين اليابانيتين، وفي زهو وفخر بتعاضد القوة والشعور بالسيطرة- لم يدركوا أن مجرى التاريخ صار مختلفا كلياً ولم تعد له صلة بالماضي، وأن كل ما يقال عن فكرة الحرب، وفكرة الدولة وحتى فكرة السيادة أصبحت بحاجة إلى مراجعة عميقة. ومن باب إخلاء مسؤوليته الأخلاقية هو وزملاؤه العلماء كتبوا تقريراً عن أنواع المخاطر الجديدة الناتجة عن استعمال السلاح النووي على مستقبل البشرية، وقاموا بنشر ذلك التقرير بعنوان (عالم واحد أو لا شيء)، وملخص هذا المقال، أن الدولة الوطنية في ظل التهديد بالحرب النووية سوف تجد نفسها سلطة دكتاتورية، وعليه فالأوضاع الجديدة تقتضي نظاماً عالمياً جديداً. وفي ظل هذه الأجواء المشحونة بالخوف من الرعب النووي، وبعد لقائه بوزير الخارجية (آتشيسون) على عشاء في نيويورك، هذا اللقاء الذي هدف من ورائه آنشتين أن يتوسّط لصديقه (روبرت أوبنهايمر) الذي طلب منه إعفائه من انتدابه للإشراف على مشروع السلاح الذري بعد صدور قرار بوضع الطاقة النووية تحت إدارة الخدمة العاملة في إطار الجيش الأمريكي. وإذا بآنشتين يفاجأ بطلب من (آتشيسون) بأن يقلل نشاطه المحذر من خطر (القنبلة) ومن استحالة احتكار سر صناعته، وإيضاً أن يقلل من دعوته إلى ضرورة قيام حكومة عالمية،

وذلك بحجة أن آخرين يروجون لفكرة تسريب سر صناعة (القبلة) إلى الطرف الآخر أي الاتحاد السوفياتي آنذاك، من أجل كسر احتكارها مما يؤدي إلى استحالة استخدامها بسبب معادلة توازن الرعب النووي. غير أن حمى الرعب النووي وتسريب السر النووي للعدو تعاضم بعد قضية كلا من العالمين (كلاوس فوخس) البريطاني وأيضا العالم الشهير (جوليوس روزنبرغ) وزوجته (رشيل)، (فوخس) الذي برر أثناء محاكمته أن ما قام به أنه بدافع الضمير الإنساني الذي حرّك ثورة العلماء الذين صنعوا (القبلة)، ووضعهم أمام (جريمة) ما ابتلوا الإنسانية به، وقد حكم عليه بالسجن عشرين سنة. أما (روزنبرغ) وزوجته (رشيل) فقد حوكما وحكم عليهما بالإعدام على الكرسي الكهربائي، على أساس أن ما قاما به هما وغيرهم من العلماء من تسريب سر صناعة القبلة، أنه ساعد الروس في تصنيع (القبلة) في وقت قياسي، هو خيانة عظمى، وكانت بعض التيارات في أوروبا وأمريكا تدافع عنهما كقديسين في العصر النووي، وليس كجاسوسين لأنها كانا مدفوعين في ما قاما به بضرورات العصر وليس بأي دافع آخر، مادي أو أيديولوجي.

حتى آنشتين لم يسلم من شرر هذه الحرب الشرسة والتي كان يرى فيها أنها نوع من الهستيريا الأمريكية المخيفة، وأن المتابعات القضائية ضد العلماء هي نوع من محاكم التفتيش الفكرية بعثت في العالم من جديد، وانطلقت كلاب الصيد تبحث عن فرائس من العلماء والمفكرين تتهمهم بـ(النشاط المعادي لأمريكا)، ويتساءل آنشتين محتارا عن سبب هذا الجنون الذي سيق إليه الناس في أمريكا، والتي قامت أساسا على فكرة حرية الاختيار وفكرة حرية الفرد، كما أبلغ -أي آنشتين- أن أحد أعضاء الكونغرس الأمريكي قام وهاجم أفكاره الداعية إلى الحكومة العالمية وبدعوى أنه طري في نظراته إلى حقيقة خطر المد الشيوعي، وبأنه قاصر سياسيا وبأنه يتناول على أمن وسلامة الولايات المتحدة وهو أجنبي وغريب عنها، بل يتعجب آنشتين من هذا الموقف المحمل بالدلالات العنصرية، كيف يشيرون إلى أصله الألماني، مع أن كل من في أمريكا هم من أصول أوروبية إذ لم يكن فيها من السكان الأصليين سوى الهنود الحمر؛ فهو قد اختار أمريكا بوعي وحرية منه وهو خائف عليها من هستيريا (القوة)."
(هيكل: زيارة جديدة، ص ص ٢١٨-٢٢٨).

وختاما لآراء ألبرت آنشتين الصريحة جدًا بخصوص المسألة اليهودية والارهاب الصهيوني والقوة الأمريكية المتعاطمة، نذكر أن قصة العالم (مردخاي فنونو) الذي قام بنشر أولى المعلومات النووية عن مشروع (إسرائيل) مفاعل (ديمونة) النووي ليست ببعيدة، مما كان سببا بأن حكم عليه من طرف القضاء الصهيوني بالسجن لمدة ثمانية عشر سنة (١٨)، وبعد خروجه من السجن لم يسمح له لحد الساعة بالتحرك وحرية التنقل والادلاء بتصريحات للصحافة، مع ادعاء (إسرائيل) أنها دولة ديمقراطية نموذجية في الشرق الأوسط.

كما لا ننس عالم الألسنية والحوسبة اللغوية الشهير (نعوم تشومسكي) من جامعة ماساشوستس صاحب الكتاب الشهير (ماذا يريد العم سام)، والذي كان أشد وأقسى من غيره على الصهيونية العالمية وعلى الإمبريالية الأمريكية وضد سياستها القومية المتطرفة، بل يراها شبيهة إلى حد كبير بالدولة الإمبريالية الرومانية، كما أنه منع من دخول غزة مع مجموعة من المفكرين والمثقفين الغربيين، للاحتجاج ضد الحصار الصهيوني للشعب الفلسطيني وضد سياسة الإبادة الجماعية والمحركة التي تمارسها السياسة (الإسرائيلية).

ومن بين الكتب الجديدة التي اطلعنا عليها مؤخرا ونحن نعدّ النسخة النهائية من مؤلفنا هذا كتاب "الكتاب والوسط الإنساني" (Le livre et le milieu Humain)، والذي كتبه بعد صدور كتابه (أفرو آسيوي) عام ١٩٥٦، بحسب مقدمة ابنته رحمة الصادرة في طبعة الكتاب سنة ٢٠٠٧ عن دار سمر بالجزائر العاصمة.

وعند اطلعنا على النسخة الفرنسية، وجدنا مادة الكتاب موزعة على الشكل الآتي: مقدمة ابنته رحمة الموقعة بتاريخ شهر أوت ٢٠٠٧، لوس أنجلس، وقد قامت نورة بوزيدة بترجمة هذه المقدمة من العربية إلى الفرنسية، وهذا يضعنا أمام إشكالية النسخة (الأصل) والنسخة (الترجمة) ومدى المحافظة على محتواها الأصلي. ثم نجد بداية كتاب بن نبي القسم الأول منه موقع بتاريخ ٢٩ أفريل ١٩٥٩ القاهرة. أما القسم الثاني فهو في مبتدئه مؤرخ في ٢٨ ماي ١٩٥٩، القاهرة، وفي نهايته مؤرخ في ٢٥ ماي ١٩٥٩، القاهرة. وهنا لا ندري إذا كان هذا خطأ طباعيا، أم أن التاريخ الأول يشير إلى تاريخ نشر هذا القسم في الصحافة المصرية، والتاريخ الثاني يشير إلى زمن الكتابة الفعلي للمقال أو هذا القسم من الكتاب. ثم نجد خاتمة

الكتاب من طرف نور الدين بوكروح والمؤرخة في شهر أوت ٢٠١٣ ومن دون الإشارة إلى مكان الكتابة. وما نسجله أيضا على هذا الكتاب، أنه في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون في حجم كتاب الجيب الصغير، ومجموع صفحاته لا تتجاوز ٤٣ صفحة وصفحات مقدمة ابنته رحمة ١٣ صفحة وخاتمة بوكروح ١٠ صفحات. وموضوع الكتاب يدور حول كتب مالك بن نبي التي نشرها بالقاهرة منها فكرة الأفرو آسيوي، وكيف تم تداول هذه الفكرة في ظل التجاذبات الدولية في إطار نظريته (الصراع الأيديولوجي في البلدان المستعمرة)، وكيف أن بن غوريون استفاد من الفكرة حيث أوعز في نهاية ديسمبر من سنة ١٩٥٨ بتأسيس مركز الدراسات الأفريقية - الآسيوية في تل أبيب، وهو بهذا يضع هذا الكتيب في خط نظريته الخاصة بالمسألة اليهودية المشار إليها آنفا.

أما الكتاب الآخر الذي ينشر لأول مرة في نسخته الفرنسية الأصلية، هو كتاب (الصراع الأيديولوجي في البلدان المستعمرة) (La lutte Idéologique dans les pays colonisés)، والصادر عن دار سمر أيضا عام ٢٠٠٨ بمساعدة من طرف وزارة الثقافة، وما نسجله على هذا الكتاب من حيث مضمونه أن النسخة الفرنسية لا تشتمل على ستة فصول كما هو الشأن في النسخة العربية بل على مقدمة، ثم مادة الكتاب إلى نهايته، حتى أن الخاتمة لم تكن مميزة بوضعها في مبتدأ صفحة جديدة ولا معنونا لها، بخلاف النسخة العربية التي نجدها تحتوي على تنبيه مؤرخ في ٢ ماي ١٩٦٠ بالمعادي من طرف بن نبي، ثم مدخل، وبعد ذلك الفصل الأول (عموميات عن الصراع الفكري) والفصل الثاني (في حلبة الصراع)، والفصل الثالث (تركيب آخر لمرآة الكف)، والفصل الرابع (مظاهر أخرى للصراع الفكري)، والفصل الخامس (على هامش كتاب)، والفصل السادس والأخير (حياة الأفكار وقيمتها الرياضية)، ثم ملخص، وبهذا ينتهي الكتاب.

وعليه لا ندري هل هذه الخطة في توزيع مادة الكتاب في نسخته العربية هي من وحي بن نبي وتوجيهه أم هي من اختيار عمر مسقاوي، والذي يصرح بن نبي أنه هو الذي قام بمراجعة الأصول من أجل تقويم الأسلوب اللغوي؟ (بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر دمشق، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ص ٧).

لأنه فيما بعد نجد عدة اختلافات في مادة الكتاب بين (النسخة الأصل) و(النسخة العربية)، ومن أبرزها وكما سبقت الإشارة إليه توزيع مادة الكتاب هذا من جهة، ومن جهة ثانية أن هناك أجزاء كاملة من الكتاب اجتزأت في النسخة العربية مع أنها تشتمل على معلومات تاريخية قيمة، منها قيمة تقنية بافلوف وتطبيقها بطرق شتى والفرق بينها وبين الاستعمار ومدى استفادة هذا الأخير من أفكار بافلوف في مجال الصراع الأيديولوجي. وهذا في الفصل الخامس، حيث نجده اي المترجم يطبق نظرية (المحامي المورّط) «L'avocat Compromettant» على مثال شاب نبيل كيف تصنع منه الإدارة الاستعمارية محاميا مورّطاً، وهذا المثال لا وجود له في النسخة الأصل (بن نبي: الصراع الفكري، ص ص ١١٤-١١٥).

والمثال الثاني في الفصل السادس من الكتاب (حياة الأفكار وقيمتها الرياضية)، وأولا تجدر الإشارة إلى أن هذا العنوان غير وارد في كتاب بن نبي الأصل (النسخة الفرنسية)، وكما سبقت الإشارة إليه، بل هي من وضع المترجم، وثاني أمر هو أن بن نبي طبق نظريته الخاصة بـ(الشعار) Slogan و(الفكرة) Idée، و(التركيبة) Combinaison، على حادثة تاريخية وهي خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٣٥-٤٠ هـ) وما أعقبها من انحرافات تاريخية خاصة بعد واقعة صفين، (Malek Bennabi: La lutte Idéologique dans les pays, colonisés, pp. 77-80) في حين نجد في النسخة العربية تطبيق على مثال آخر في باب فقه الوضوء، (بن نبي: الصراع الفكري، صص ١٢٠-١٢١)، وكذلك التقديم والتأخير، فمثلا بن نبي يذكر تطبيقاً آخر على فكرة مؤتمر باندونغ بعد التطبيق على موضوع خلافة علي، وكما قلنا وبعد ذلك يذكر المترجم المثال الفقهي، وهذا بدوره يفقد القيمة الأصلية للفكرة المراد شرحها ومناقشتها في الكتاب، بل ويقع التشويش والتحويل للفكرة المترجمة من (النص الأصل) إلى (النص المترجم) تفقد (قيمتها التاريخية).

٢/ مسألة **العنونة** الخاصة بكتب بن نبي، ونبدأ بكتاب La lutte Idéologique dans les pays colonisés، والذي ترجم إلى (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة)، أولاً نلاحظ أن صيغة الجمع الواردة في العنوان الأصلي للكتاب غير واردة في الترجمة، إضافة إلى عبارة La

lutte Idéologique هل نترجمها إلى المقاومة الأيديولوجية أم الصراع الأيديولوجي؟ هذا أولاً، وثانياً هل نحافظ على لفظة Idéologique، إذ الفرق واضح بين مفردة (فكرة) ومفردة (أيديولوجيا) هذه الأخيرة التي تحوي حمولة معرفية وتاريخية من حيث الدلالة والاستعمال في مجال السياسة.

والأمر ذاته نجده مع كتاب (وجهة العالم الإسلامي) Vocation du l'Islam I، هل تترجم العبارة إلى وجهة الإسلام التي تحمل معنى (مستقبل الإسلام) أم نقبل الترجمة العربية التي اختارها أيضاً عمر مسقاوي وهي (وجهة العالم الإسلامي) زيادة على أن عمر مسقاوي وهو الوصي على مؤلفات بن نبي لم يشر في الطبقات السابقة لهذا الكتاب إلى أنه هو الجزء الأول.

ثم يطالعنا عمر مسقاوي سنة ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م بنشر الجزء الثاني من كتاب «Vocation du l'Islam II «le problème juif» (وجهة العالم الإسلامي ج ٢) والذي يحمل عنواناً فرعياً (المشكلة اليهودية) وليس (المسألة اليهودية) كما هو وارد في ترجمة عمر مسقاوي المشار إليها أعلاه. مع أن المترجم ذاته عندما ترجم كتب بن نبي الأخرى حافظ على المفردة الأصل مثل (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) و(مشكلة الثقافة).

وفي كتاب (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي)، نجد هذه الترجمة العربية والتي أنجزها كل من بسام بركة وأحمد شعبو بطلب من عمر مسقاوي، لم تحافظ على العنوان الأصلي ألا وهو "مشكل الأفكار في المجتمع المسلم" إذ ورد العنوان في نسخته الفرنسية «Le problème des idées dans la société musulmane»، إذ الفرق واضح بين المفردتين (العالم) و(المجتمع) وبين (الإسلامي) و(المسلم). بل ونجد ترجمة أخرى أنجزها محمد عبد العظيم علي بعنوان "تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، وهذه الترجمة صادرة عن دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع بالإسكندرية عام ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م على أساس أنها الطبعة الأولى، وجاء في خاتمة مقدمة المختصر - (هكذا كما هو وارد في المقدمة) - : "لما دعانا إلى تلخيص هذا الكتاب وإعادة صياغته بأسلوب مبسط لتقريبه إلى القارئ الكريم الذي ندعوه إلى إعادة النظر في ظروف عالمه الحالية." (ص ٨).

لذا نرى ضرورة الرجوع إلى مؤلفات بن نبي في نسختها الأصل ومراجعة الترجمات السابقة، لأن فيها الكثير مما تجب مراجعته وتصويبه وفق ما ورد في النص الفرنسي؛ فتغيير عبارة ما أو مصطلحا ما أو مثالا تطبيقيا ما بما لا يوافق الأصل ويوجد في معجمنا اللغوي العربي المفردة البديلة المكافئة للمفردة الفرنسية الأصل والتي تؤدي معناها، ويتم اختيار العبارة التي لا تؤدي المعنى ذاته أو المثال الذي لا يستقيم وسياقات النصوص الواردة في الكتاب، كل هذا يؤدي بدوره إلى تحريف المضمون المعرفي للكتاب سواء على مستوى النظرية أم على مستوى التطبيق.

وهذا ليس معناه إغماط الأستاذ عمر مسقاوي أو عبد الصبور شاهين أو بسام بركة أو أحمد شعبو حقهم وفضلهم في ترجمة مؤلفات بن نبي رحمه الله، ولكن من موقف أكاديمي بحت ومن وجهة نظر علمية موضوعية محضة، قدمنا هذه الملاحظات حتى يتسنى للباحث والمثقف العربي عموما والجزائري خصوصا من الوقوف على أفكار بن نبي وهي واضحة وصافية مثل ماء معين.

ومن بين الدراسات السابقة التي تناولت حياة وسيرة مالك بن نبي الشخصية والفكرية ومحاولة وضعها في إطار ظروفها التاريخية التي أنتجتها وفق سياقاتها المتعددة، نجد من بين هذه الدراسات كتاب محمد العبدية المعنون بـ "مالك بن نبي، مفكر اجتماعي ورائد إصلاح" (١٣٢٣-١٣٩٣هـ = ١٩٠٥-١٩٧٣م)، صادر عن دار القلم بدمشق، سنة ٢٠٠٦م، والذي تمحورت مادة بحثه حول محورين أساسيين هما: الأول والذي شمل المباحث التالية، وضع الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي، ومبحث مراحل حياة مالك بن نبي عبر أربعة مراحل وهي الطفولة الجزائرية (البلد المستعمر)، ثم مرحلة الهجرة إلى باريس (البلد المستعمر)، ثم اللجوء إلى مصر، وأخيرا المرحلة الرابعة وهي الجزائر ما بعد الاستقلال. أما المبحث الثالث، فقد خصصه للحديث عن مكونات شخصية مالك بن نبي والمؤثرات الفكرية التي بلورت رؤيته الإصلاحية بل ونظريته في الاجتماع والتاريخ والحضارة. وختم الفصل الأول بمبحث تقييم ومناقشة أهم الأفكار التي شغلت مالك بن نبي، ابتداء بفكرة الحضارة ومشكلاتها، وموقفه من الحركة الإصلاحية في الجزائر، ثم مبدأ اللاعنف ومفهومه عند مالك بن نبي، وأيضا فكرة

القابلية للاستعمار التي كانت محط انتقاد شديد من طرف معارضيه، وأخيرا فكرة إنسان ما بعد الموحدين أو ما يطلق عليها بن نبي مرحلة ما بعد الحضارة. ثم يعرض المؤلف أهم آراء وأفكار بن نبي الخاصة بسبل النهوض والتغيير الحضاري. وبهذا تنتهي مباحث الفصل الأول لينتقل في الفصل الثاني الذي جعله خاصا بالتعريف بمؤلفات بن نبي وعرض أهم ما جاء فيها من مواضيع وتاريخ وفكرة كل كتاب، وكان مجموعها ثمانية كتب.

في سنة ٢٠٠٧ يصدر مؤلف بعنوان مالك بن نبي والوضع الراهن، من طرف محمد شاويش عن دار الفكر بدمشق، حيث وطأ لموضوع كتابه بمقدمة تحدث فيها عن راهنية مالك بن نبي وعن جدوى تبسيط أفكاره للمهتمين بموضوع مشكلات الحضارة وقيمة أفكاره بالنسبة للمرحلة الراهنة التي يعيشها العالم العربي والاسلامي، بمعنى البحث في الجانب العملي أو التطبيقي لأفكار بن نبي، ولهذا جعل المبحث الأول من كتابه نقدا لفكرة القابلية للاستعمار تحت عنوان "في النقد المنطقي لمفهوم القابلية للاستعمار"، حيث يخلص إلى القول بأن مفهوم "القابلية للاستعمار" شديد الجاذبية (...) إن بن نبي خلافا للمعتقد السائد عند الكثيرين كان يعتبر القابلية للاستعمار نتاجا لهذا الاستعمار وليست مقدمة مسببة له، ولكن استعمل المفهوم من طرف كثيرين ولأغراض شتى متناقضة الأغراض والمقاصد؛ فمنهم من وظف المفهوم بمعنى أن القابلية هي حالة مهينة وممهدة لحالة الاستعمار، كما استعملها البعض الآخر بهدف تسويق الاستسلام والتطبيع السياسي والاقتصادي والثقافي مع الدول الكبرى، مما يفضي في النهاية إلى التطبيع مع الكيان الصهيوني المحتل وتصفية قضية فلسطين القضية المركزية للأمة العربية في صراعها الوجودي مع هذا الكيان المحتل. (صص ١٠-١١). ثم يعرج على موضوع شروط النهضة عند مالك بن نبي من حيث المفهوم والتمثل التاريخي من خلال أدوارها الثلاث وكيفية تشكل شبكة العلاقات الاجتماعية ودور الدين في ذلك، والمعادلة البيولوجية والمعادلة الاجتماعية ودورهما في توجيه نشاط الفرد، وفكرة المنطق العملي وفكرة التوجيه الأخلاقي ودور الثقافة، ثم توظيف كل هذه المفاهيم من وجهة نظر بن نبي في فهم الظاهرة الاستعمارية الحديثة التي يعيشها مجتمع ما بعد الموحدين كما يقول مالك بن نبي رحمه الله. بعدها ينتقل الباحث ليناقد مبحث عالم الأفكار عند بن نبي وعلاقتها بعالم الأشياء

وعالم الأشخاص. هذه هي المواضيع التي رأى صاحب الكتاب أنها تحتاج للبحث والنقد والتحليل.

ثم نجد ما كتبه الباحثة فوزية بربون بعنوان "مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة"، والصادرة عن دار الفكر بدمشق في ٢٠١٠، وقدم له الأستاذ المرحوم أبو القاسم سعد الله، والذي ركزت فيه على إبراز ثلاث محطات رئيسة في دراستها وهي: المحطة الأولى وهي وضعية الجزائر تحت حكم الاستعمار الفرنسي في الفصلين الأول والثاني، والمحطة الثانية تناولت فيها السيرة الذاتية لمالك بن نبي من الطفولة إلى الشباب؛ فاهجرة إلى فرنسا؛ فبداية انتاجه الفكري بفرنسا، ثم هجرته إلى مصر، ثم رجوعه إلى الجزائر بعد الاستقلال وهذا كله في الفصل الثالث من كتابها. أما المحطة الثالثة فقد أفردتها للحديث عن نظرية الاجتماع والتاريخ في فكر بن نبي، وكذلك التطرق إلى سبل النهوض بالأمة العربية والمسلمة ونقده للحركات النهضوية والاصلاحية في زمانه، ثم ختمت دراستها بالحديث عن نظرية مالك بن نبي في الحضارة، وهذه المباحث شملت الفصل الرابع والخامس والسادس. ثم ذيلت دراستها بالأثر الذي تركه فكر مالك بن نبي في النخبة المثقفة السورية ومدى عناية مؤسسة دار الفكر بنشر آثار مالك بن نبي.

وما مسجله على المؤلفين أنهما متقاربان من حيث خطة البحث وكيفية تناول السيرة الذاتية والفكرية لمالك بن نبي، وبعدها تطالعنا دراسة من إنجاز عمر بن عيسى بعنوان "مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي"، الصادر عن دار الفكر - دمشق، الطبعة الثانية سنة ٢٠١٠، وهو مترجم عن الفرنسية وأشرف عليه وقدم له الأستاذ عمر كامل مسقاوي، وهو يقع في ثلاثة مباحث، الأول بعنوان مالك بن نبي في تاريخ الفكر الاسلامي، يتناول فيه موضوع الفكرة ودورها، ثم يليه مبحث مالك بن نبي ومستقبل المجتمع الاسلامي، الذي تعرض فيه لفكرة المفهوم الغيبي عند بن نبي، وموضوع الاسلام المكافح، وموضوع فقه العالمية ودور الاسلام في نزعة العالمية، يختم الكتاب بمبحث آخر وهو بعنوان من تراث مالك بن نبي. وفكرة هذا الكتاب جاءت لاستخلاص الدروس والعبر من أفكار بن نبي خاصة تلك التي تمثل نبراسا ونورا هاديا تقتضي الأمة أثره لتخرج من نفق تخلفها

وهوانها، كما نجد أن هذا الكتاب مثل سابقه ينتهي بمبحث متعلق بأثر بن نبي، وهذا يشير تساؤلا وهاجسا لدى الباحثين في تراث الرجل، ودائما يتملكهم سؤال ما هي الآثار التي لم تظهر للعلن بعد مما خلفه رحمه الله، وإلى متى ترى النور؟

وفي ذات السنة -أي ٢٠١٠- تطالعنا دراسة ثالثة صادرة عن دار المعرفة-الجزائر، بعنوان البناء الحضاري عند مالك بن نبي للباحث جيلالي بوبكر، وفيها ركز بحثه وتحليله على نظرية الحضارة عند مالك بن نبي من حيث المفهوم وعلاقتها أي الحضارة بالثقافة والدين والتاريخ، وعناصرها المكونة له وأطوارها ومشكلات الحضارة التي تواجه سير تقدم الانسان عبر تاريخه وما مضمون الرسالة الحضارية، وكيفية القيام بفعل التجديد الحضاري وما هي شروطه ووسائله وأبعاده، وكل ذلك ليس بمعزل عن إسقاط هذه المفاهيم النظرية والمقاربات المنهجية البنائية على واقع التاريخ الحديث والمعاصر للعالم العربي والإسلامي.

وفي سنة ٢٠١٢م تصدر دراسة بعنوان مالك بن نبي، دراسة استقرائية، معالم المنهج في تأصيل العلوم الانسانية لمشروع "مشكلات الحضارة" من إنجاز مولاي خليفة لمشيبي، عن دار النايا ودار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع بدمشق، وهذا الكتاب يبدو من خلال عنوانه أن هدف صاحبه يقصد به وضع الخلفية النظرية لمشروع ما أطلق عليه حينها "مشروع أسلمة العلوم الاجتماعية والانسانية"، والتي عمل المركز العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن حينها على تحقيقه برئاسة طه جابر العلواني، وكان الهدف في صورته النهائية هو كيفية الاستفادة من نظريات بن نبي رحمه الله واستثمارها في مجال الحراك السياسي الصاعد آنذاك في العالم العربي، ولذا كانت مباحث الكتاب تتوزع على مبحث مقدمات في مشروع مشكلات الحضارة، ومبحث سيرة مالك بن نبي الشخصية ومساره الفكري ومصنفاته، ثم الخوض في السياق التاريخي لمشروع بن نبي، وما علاقته بالحركة الإصلاحية الجزائرية حينها، ومدى استفادة العروي من أفكار بن نبي وهذا كله في الفصل الأول. أما الفصل الثاني فقد خصصه للحديث عن موضوع المنهج والعلم والأخلاق والعلاقة بين هذه العناصر الثلاث وتأثيراتها في حياة الفرد على المستوى الفكري والاجتماعي والاقتصادي ثم على المستوى الحضاري، ويختم الفصل بما كان مبتدؤه ألا وهو "المنهج" من خلال مرجعيته المعرفية الإسلامية. أما

الفصل الثالث من الكتاب فقد أفرد له لمنهج التحليل النفسي الذي وظفه بن نبي في دراسة شخصية الفرد الواقع تحت حالة الاستعمار الأوروبي من خلال "المنعكس الشرطي" في دائرة الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، وكيفية فهم المكونات النفسية للمجتمعات من خلال علم نفس الطفل كما وظفها بن رحمه الله. ثم ينتقل في الفصل الرابع إلى موضوع المنهج في علم الاجتماع وصنع الأمر نفسه الذي كان في الفصل السابق، ألا وهو استثمار نظريات بن نبي في دراسة مشكلات الحضارة في المجتمعات الإسلامية والعربية من منظور أسلمة علم الاجتماع، بمعنى إيجاد مقاربات منهجية جديدة خاصة بهذه المجتمعات لأنها تختلف من حيث الظروف عن تلك التي عرفتها أوربا في مسارها التاريخي وعلى غرارها علومها ومعارفها التي كانت نتاجا لذلك التطور الحاصل عندها. وعليه ينتقل إلى الفصل السادس الخاص بموضوع التربية والمنهج التربوي وعلاقته بالتغيير الاجتماعي إن على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع، وكيفية فقه سنن النفس والمجتمع وعلاقتها بسنن التاريخ، وما هي سبل تحقيق المنهج التربوي الأنموذج. ويختم أخيرا بالفصل السادس الذي يعدّ فصلا عمليا تطبيقيا لكافة ما تقدم ألا وهو موضوع المنهج في عالم السياسة تنظيرا وتطبيقا.

وفي سنة ٢٠١٣، يصدر الأستاذ عمر كامل مسقاوي صديق مالك بن نبي مؤلفا ضخما من جزأين بعنوان "في صحبة مالك بن نبي، مسار نحو البناء الجديد"، عن دار الفكر-دمشق / دار الفكر المعاصر-بيروت. وقد أفرد الباب الأول من خلال أربعة فصول كاملة للحديث عن بدايات التواصل بينه وبين مالك بن نبي رحمه الله، وظهور أول كتاب بالعربية بإشراف بن نبي نفسه وبداية تعرف القارئ العربي على فكر مالك بن نبي هذا في الفصل الأول، أما الفصل الثاني فكان موضوعه البحث في مذكرات بن نبي "الطفل" والمقارنة بين كتابه (العفن) ١٩٥١ وكتابه الطالب ١٩٦٩، ومرحلة تواجد بن نبي في الجزائر كما وردت في كتابه "مذكرات شاهد القرن". أما الفصل الثالث والذي خصصه للحديث عن مرحلة بن نبي "الشاهد على القرن- الطالب" ١٩٦٩، ففيه تطرق إلى مرحلة تواجده رحمه الله بباريس وبداية التأسيس لفكرة النهضة، ومدى تأثير الحياة الباريسية في حياته ومدى تفاعله مع معطياتها الثقافية ومنجزاتها الحضارية، وكيف استثمرها في بناء تصورات النهضوية بل وفي

بناء نظرياته التحليلية للمجتمع الأوروبي في حدّ ذاته. ويختم الباب الأول بفصل رابع تحت عنوان "مالك بن نبي الكاتب"، وفيه يتناول مرحلة الحرب العالمية الثانية وسقوط باريس تحت الاحتلال الألماني، ثم مرحلة تحريرها من طرف قوات التحالف، والظروف المصاحبة لتأليفه كتابه "الظاهرة القرآنية"، ثم كتابه "شروط النهضة"، وبعده كتابه «VOCATIO DE L' Islam» بالفرنسية. أما الباب الثاني فقد عنوانه بـ "المراجع الأساسية لأصول فكر بن نبي"، مهّد له بمقدمة عنوانها بـ "مقدمة بين يدي المرتكزات الأساسية لمصادر مشروع بن نبي (مشكلات الحضارة)" وفيها -أي هذه المقدمة- يعرض المؤلف لموقف بن نبي من حركة جمعية العلماء المسلمين الإصلاحية، وكيف قيم إنتاجها الفكري ومشروعها التربوي الإصلاحي ومسارها السياسي، ثم ينتقل للحديث عن إنسان ما بعد الموحدين الذي يمثل مرحلة ما بعد الحضارة في الدورة الحضارية، ومن هنا كان منطلق تفكيره في مشروع النهضة وسبل التغيير وإعادة البعث الحضاري لمجتمعات تعيش حالة الاستعمار الأوروبي الحديث. (صص ٣٠٥-٣٢٠). وبعدها يخوض في تجربة بن نبي في التأليف ودواعي التفكير في كل كتاب، بدءاً من (الظاهرة القرآنية)؛ فقصّة (ليبك ١٩٤٧)، فكتاب (شروط النهضة)، ف(وجهة العالم الإسلامي) الجزء الأول، ثم (الفكرة الإفريقية الآسيوية) ويختم الباب الثاني بـ(الكتاب والوسط الإنساني) والذي يقول عنه "هذا العمل يشكل جزءاً من مخطوطات مالك بن نبي غير المنشورة، تركها ليقوم ورثته بوضعها في خدمة قارئ بن نبي لكتاب (فكرة الإفريقية الآسيوية). ولقد صدر الكتاب بكامله مع مقدمة لإبنته السيدة رحمة بن نبي بالفرنسية، وستتولى العمل على ترجمته مع مقدمته في سلسلة إنتاج بن نبي" (ص ٣٨٥). أما القسم الثاني من الكتاب يبدأ بالباب الثالث المعنون بـ "المهاجر إلى القاهرة"، وهو متكون من المباحث التالية: هجرة من الاستعمار إلى القابلية للاستعمار قراءة أولية في أوراق بن نبي، الخروج إلى القاهرة، الفكرة الإفريقية الآسيوية وشبكة العنكبوت، مالك بن نبي والوسط الثقافي في القاهرة مفكر قبل زمانه، كتاب الظاهرة القرآنية في مجلس محمود شاكر، مالك بن نبي يشرح مشروع أفكاره تحت عنوان (مشكلة الثقافة)، ثم ينتقل للحديث عن سفر بن نبي إلى لبنان وسورية إلى كل من بيروت وطرابلس ودمشق، وفكرة كتابه (حديث في البناء

(الجديد)، والإضافات التي أدخلها على كتابه شروط النهضة، وكذا التطرق إلى كتابه (فكرة كومولث إسلامي) و(الصراع الفكري في البلاد المستعمرة)، و(مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي والصراع الفكري)، والإشارة إلى مطبوعة خارج سلسلته (مشكلات الحضارة) أصدرها بعنوان (الإستعمار يلجأ إلى الاغتيال بوسائل العلم) وهو في هذا يتحدث عن طرائق المستعمر في قتل المفكر في البلاد المستعمرة على المستوى النفسي والاجتماعي والمادي والأخلاقي، حتى يجهض أية أفكار تقود المجتمع إلى الخلاص من نير المستعمر المستبد، وذلك باستخدام وسائل الحرب النفسية يختلف تمثلاتها الفكرية والعاطفية والاجتماعية والدينية والمعيشية. وبعدها يتطرق للحديث عن الحياة الشخصية لمالك بن نبي (صص ٨٦٥-٨٨٠)، وعن مغادرته لمصر سنة ١٩٦١، وفحوى الرسالة التي تركها قبل مغادرته إلى الجزائر، وما هي الأفكار التي دونها في أوراقه قبل عودته إلى الجزائر. ولذا كان منطقياً أن يكون الباب الرابع والذي مجموعه ثمانية فصول كاملة بعنوان "العائد إلى الجزائر من ١٩٦٣ إلى ١٩٧٣م" أي إلى تاريخ وفاته رحمه الله، وهو باب خصصه لمشروع بن نبي الذي سطره لجزائر ما بعد الاستقلال، وكيفية بناء ثقافة الاستقلال وإعادة صياغة الفرد الجزائري وتحليصه من الظواهر السلبية والأمراض الحضارية التي كبلته طيلة الحقبة الاستعمارية، والسبل الكفيلة بنقله من حالة السلبية إلى الفاعلية في الحضارة الإنسانية. فلا عجب إن تحدث بن نبي عن الثقافة والأيدولوجيا والأفكار، وما هي المشكلات العملية المترتبة في المجتمعات العربية والمسلمة والمفاهيم الخاطئة عن البناء والتكديس والشيئية ووثنية الشخصية وصنمية الفكرة، وبعدها يتحدث الكاتب عن سفر بن نبي إلى كل من الإتحاد السوفياتي آنذاك وإلى بريطانيا-ليدز وإلى الصين والولايات المتحدة الأمريكية وإلى السعودية، وما صحب ذلك من وفاة زوجته الفرنسية خديجة، وكتابه المسلم في عالم الاقتصاد، ووصيته قبل وفاته بخصوص مخطوطاته وأفكاره. وختم الكتاب بالفصل الثامن الذي كان عبارة عن خلاصات عامة عن مسار بن نبي المفكر ومشروعه مشكلات الحضارة.

في ختام هذه الإشارات السريعة لبعض المؤلفات التي تناولت السيرة الذاتية والتجربة التاريخية لمالك بن نبي ولنظرياته وأفكاره بخصوص الظاهرة الحضارية، نقول هذه ليس كل

ما كتب عن المؤلف بل هناك عديد الدراسات الأكاديمية الجامعية من رسائل ماجستير ومن أطاريح الدكتوراه، التي حاول من خلالها الباحثون أن يقفوا على مسار حياته الشخصية أو على نظره الإصلاحية أو رؤيته الاستشرافية، ولذا جعلنا لها ملحقاً في آخر الكتاب وقد استفدنا من قائمة قام بترتيبها الباحث مسعود فلوسي وهو جهد ييسر الأمر للباحثين على مختلف مشاربهم الفكرية.

هذه مجمل الملاحظات الضرورية التي رأيناها ذات أهمية كبيرة وضرورية للوقوف عندها والإشارة إليها، ونرجو من الله سبحانه التوفيق والسداد، وهو من وراء القصد وإليه الإنابة ومنتهى الرجاء.

وهران ١٨ يناير ٢٠١٥م

غازي الشمري

جعفر يايوش

القسم الأول

"مالك بن نبي الإنسان، إنسان بن نبي"
مراجعة وتقويم للسيرة الذاتية

المبحث الأول

مالك بن نبي الإنسان:

أ / الفطريات والتاريخيات^١: هناك سؤال منهجي يطرح ذاته دوماً، وهو ما مصدر هذه الأوليات المعرفية، التي نستشعر وجودها فينا؟ هل كل معرفة تعتمد على معطيات معرفية سابقة، تكون بمثابة (الفطريات) المؤسسة لفكر مالك بن نبي فيما بعد؟ وهنا فالباحث في سيرة ذاتية من هذا النوع وبهذا الثقل الفكري والتاريخي عليه أن يستدعي كافة معطيات المحيط الإجتماعية والثقافية والسياسية والدينية وحتى الجغرافية، وعليه فما يتكون من مفاهيم هو (كوني) و(شخصي) في آن واحد.

وعلى هذا المعطى فنحن أمام أولية الأسس العقلية في الذات الإنسانية على مستوى الكينونة لارتباطها بحركة الزمن وصيرورة التاريخ، ومن ثم نجد أنفسنا أمام ضرورة الأخذ بـ(التجربة) كرافد معرفي آخر مضاف للأسس العقلية، وبما أن الذات الإنسانية منذ الوهلة الأولى تتأثر بمعطيات المحيط الخارجي وبمعطيات العقل، كل هذا ينتج تراكما خبراتيا

1 - نقصد بمصطلح الفطريات، والتي مفردها (الفطرة) معنى الجبلة والطبيعة الأصلية التي يولد الإنسان محملاً بها، غير أن (الفطرة) إن كانت واحدة من حيث الطبيعة والأصل، والمصدر فإنها تختلف من حيث درجاتها؛ فهناك من لا يتعد حدود الفطرة التي خلق عليها؛ فيكون ذكاًؤه غريزيا وهناك من له الفطرة + الذكاء + الخبرة، ومن أولى الفطر التي خلق الله سبحانه الناس كلهم عليها (فطرة التدين)، غير أن الفكر الحديث والمعاصر بالنسبة للعالم العربي غفل ولوقت ليس باليسير عن هذا المكون الأصلي في فهم طبيعة السلوك البشري، حتى جاء منظرو المعرفة التكوينية وعلى رأسهم المفكر الفرنسي جان بياجيه، وإن كانت أهداف النظرية المعرفية التكوينية يراد منها الوصول إلى معرفة الكيفيات والآليات المنظمة لحصول الخبرة والمعرفة لدى الإنسان منذ ولادته إلى غاية أن يصير إنساناً مفكراً ومنتجاً للأفكار، ومن ثم كيف يمكن تعديل طريقة تفكيره وتوجيهها وفق المؤثر أو الموجه بحسب إستراتيجيته المستقبلية؛ فالنظرية التكوينية ليست بريئة على مستوى التطبيق، إذ يراد في غاياتها القصوى التحكم في تفكير الإنسان من خلال آليات التفكير ومن ثمة يسهل التحكم في أنماط التفكير وفي الأخير يمكن نمذجة التفكير الإنساني؛ فيتحول من الإبداع والإبتكار إلى الآلية والنمطية والنمذجة...

ينعكس على (النفس)، مما أسهم في بلورة الرؤية والمنهج والأداة؟ فكيف كان ذلك مع أستاذنا مالك؟

المصدر الأساس في تتبع السيرة الذاتية هو ما دونه الأستاذ بن نبي بيده متحدثاً عن نفسه وعن تجربته، وذلك من خلال مدونته "مذكرات شاهد القرن، الجزء ١ الطفل، والجزء ٢ الطالب"^(١)، ومن هنا نجد أن من يود تكوين رؤية واضحة عن فلسفة مالك بن نبي التاريخية والحضارية عليه بالرجوع إلى هذا المصدر.

١/ أ / الطفل؛

الأسرة: يركز مالك بن نبي في تدوين سيرته على ذكر الأسرة ودورها الرئيس في تكوين شخصيته، والخلال التي اكتسبها من والدته ووالده، وشعوره الدائم بمسؤوليته عما آلت إليه حال أسرته بعد مدة من الزمن بسبب مواقفه الفكرية التي كان يعلنها بين الفينة والأخرى.

ولكن حديثه عن الأسرة ليس سرداً روائياً خالياً من الفائدة التاريخية بل والمعرفية أيضاً، بل يجعل الأسرة هي الركيزة الأولى والأساس الذي تكونت من خلاله ذاته الحاملة في مرحلة الطفولة، وخاصة جدّته الحاجة زليخة ابنة الجدة الكبرى والتي عمرت مائة عام، وهو يسرد لنا كيف كان هو وبقيّة أطفال العائلة يتحلّقون حولها في ليال السّمر الشّتوية وهي تأسرهم

1 - من يود الرجوع إلى مصادر بن نبي عليه أن يطالع فيما يتعلق بسيرته الذاتية: مذكرات شاهد القرن (الطفل) ترجمة مروان القنواقي، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٩، ٣٥٠ صفحة. ومذكرات شاهد القرن (الطالب) ترجمة بقلم المؤلف (مالك بن نبي)، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٠، ٣١٤ صفحة. وأيضاً باللغة الفرنسية:

Mémoires D'un Témoin du Siècle, première partie (l'enfant) Alger, 1ere édition 1969, 239 pages. et aussi le livre intitulé: Mémoires D'un Témoin D'un Siècle (l'enfant, l'étudiant, l'écrivain et les carnets) , présentation et notes de Nour-Eddine BOUKROUH, édition SAMAR , Alger, 2006, 543 pages. et le second livre de Nour-Eddine BOUKROUH, intitulé: L'ISLAM Sans L'Islamisme, Vie et pensée de Malek Bennabi, édition SAMAR, Alger, 2006, 526 pages.

وانظر أيضاً: فوزية بربون: مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة، دار الفكر - دمشق، ط ١، ٢٠١٠، صص ١٠٤-١٠٥.

بطريقتها الأخاذة في الرواية وسرد القصص^(١)، وإذا به يكتشف بعد ذلك وبزمن غير يسير الدور التربوي الروحي الذي كانت تؤديه، وأثار تلك التربية الروحية التي استمرت معه في مشواره الطويل. كما أنه يركز على دور (الأم)^(٢) من خلال سيرة والدته ودورها كربة بيت

1 - يقول مالك بن نبي عن جدته هذه: "انني وجدت فعلا، من بين أفراد أسرتي، جدة، الحاجة باية، قد عمرت مئة سنة وستموت عندما أكون في الثالثة أو الرابعة من عمري." مذكرات شاهد القرن، الطفل، ص ٩، أما جدته التي أثرت فيه كثيرا على المستوى التربوي والروحي فهي جدته لأمه، يقول عنها: "إن جدتي من أمي، الحاجة زليخة، ستقصها لي، وتقص لي على وجه الخصوص كيف أن أمها، الحاجة باية، غادرت قسنطينة، مع أسرتها يوم دخول الفرنسيين (...). وماتت بعد أن عمرت عمرها الطويل ولكن ذكرى المأساة التي عاشتها في شبابها كما لخصتها هنا لم تمت معها.. وقد يدرك المرء مفعولها على خيلة أبناء أحفادها، مثلي، عندما تقصها لهم، في ليالي السمر الشتوية، ابتنتها الحاجة زليخة التي عاشت هي الأخرى مئة سنة.. إنما يجب أن نضيف أن جدتي قد كان لها في فن القصص موهبة تجعلنا مندهشين حوالها في تلك الليالي المباركة. إن ضميري تكون في تلك المدرسة على وجه الخصوص كما كشفت لي عملية استقصاء عن الباطن، وأنا ابن الثلاثين من العمر، عندما كان علي مع بعض الإخوان، طلبة مثلي بباريس أن أجيب عن هذا السؤال: ما هو أجل عمل تعززون به في حياتكم؟.. وإلى من؟ أو إلى أي مصدر تدينون به؟

إن هذا السؤال بعث في ذاكرتي صورة بعيدة طوتها الأيام في نفسي: (...) تعلمت من جدتي أن الصدقة من أولى الموضوعات في عناية الإسلام وسبله الأخلاقية، وكانت إحدى قصص جدتي في موضوع الصدقة هي التي حركتني، وأنا في السادسة أو السابعة من العمر، في العمل الذي أراه فعلا أجدي عمل أعتر به في حياتي". انظر: مذكرات شاهد القرن (الطفل) صص ٩ - ١٦. وأيضاً بالفرنسية:

Malek Benabi: Memoires d'un temoin du siecle, 2 eme édition Alger 1990, pp 10 - 15, et voir aussi Memoires d'un temoin du siecle, édition Samar, pp 39 - 41. Concernant la prise de constantine par les français, un historien français, E. Vaysettes, a témoigné en 1857 de la résistance populaire de constantine contre les français, voir: Nur- eddine Boukrouh: L'islam sans L'islamisme, édition SAMAR, p 34, opcite nr 2.

2 - أما عن أمه والتي كان لها الأثر العميق في تكوينه الذوقي والنفسي يقول عنها: "وقد كانت والدتي هي التي تشتغل في الخياطة من أجل توفير ما يسد الرمق، وكانت هي المتصرفة في خزانة البيت، ولكن الخزانة كانت فارغة، حتى اضطرت ذات يوم - وانني لا أزال أتذكر ذلك بمزيد من التأثير -، عندما وجب تسديد ما يستحقه شهريا صاحب المكتب القرآني الذي انتظمت في حلقاته، أن تسلم له، في مقابل أجرته، سريره، ذلك السرير الجزائري المسمى "السدة" المصنوع من ألواح توضع فوق قدمين من الخشب"، شاهد القرن (الطفل) ص ١٧، وأيضاً بالفرنسية:

Mémoires d'un Témoin du siècle, édition Alger, p 15, et aussi: Mémoires d'un témoin du siècle, édition SAMAR, p 41.

مسئولة عن العائلة في الأيام العصيبة عندما كانت الأسرة تمر بضائقة مالية حادة، بل ويتذكر تضحياتها في سبيل ألا يتأخر في سيره التعليمي.

البيئة التبسية: يتخذ مالك بن نبي من تبسة مادة للحديث عن حالة المجتمع الجزائري وكيف كان يخبط في عماء التخلف والفكر الخرافي الممثل في الزرد وسلطة الأولياء والأضرحة، ولكن في ذات الوقت يركز الضوء على الجوانب الإنسانية التي بقيت على الفطرة لم تتلوث بشائبة التمدن من خلال ذكره مثلا للألعاب التي كانت بمتناول أطفال تبسة وهو يقارن بينها وبين ما كان لأطفال المدن مثلما هو الحال آنذاك في مدينة قسنطينة. وكأنه بحسه الفطري أدرك للوهلة الأولى تلك الفروق الجوهرية بين أهل البادية وأبناء المدينة؛ فالبادية تمثل له المجال الفطري الذي يحفظ المقومات الفطرية السليمة للإنسان، في حين المدينة تنزع الكثير من هذه الروح العفوية والبساطة في العيش وروح الدعة والسلم؛ فالمدينة نقيض البادية. إذ كلا منهما يمثل مجالا ثقافيا يختلف عن الآخر^(١). المدينة هي صورة الآخر الوافد الدخيل المستعمر، في حين البادية تمثل الأنا الأصيل.

1 - يقدم لنا مالك بن نبي في مذكراته (الطفل) وصفا إثنوغرافيا لمدينة تبسة، حيث ألمّ بالجانب المناخي والجغرافي للمنطقة وبالتوزيع الديمغرافي لسكانها، بل وتصنيفا بحسب الإلتواء القبلي أو العشائري، وما هي التغيرات المدنية التي مست النسيج العمراني للمدينة، وذكر أيضا الطرق الدينية والأعراق غير الجزائرية التي شكلت النسيج البشري لمجتمع مدينة تبسة؛ فمذكراته بحق تمثل مصدرا تاريخيا أساسيا للمهتم بالتحقيب للفترة الإستعمارية الفرنسية بالجزائر، وما تبعها من تأثيرات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية وثقافية كان لها الأثر العميق في توجهات المجتمع الجزائري فيما بعد. يذكر مالك بن نبي التغيرات العمرانية المتعاقبة على المدينة بحسب الفترات التاريخية المختلفة فيقول: "لا زالت، إذ ذاك المدينة داخل سورها البرقي العتيق، ذلك السور الذي بناه السكان على غير نسق وبكل سرعة لمواجهة زحف الفندال. وأتت الحقبة العربية فأضافت، خارج السور حي الزاوية، وربما سمي هكذا بسبب الولي الصالح سيدي عبد الرحمن، يقطنه سكان شبه رحل من العشائر المجاورة، مثل قبيلة اللماشة وأولاد سيدي يحيى، فضلوا الإقامة هنا عن المدينة بسبب مواشيهم. هذا على وجه التقريب، هو الإطار الذي سأقضي فيه جل سنوات طفولتي. (...) لقد أضاف العهد الإستعماري في هذا المنظر التقليدي حيا إداريا يسكنه موظفوا الإدارة من المدرسين، وعمال البريد، وأصحاب الجمارك والدرك وطبيب أو طبيين. بحيث كان هذا الإطار الصورة المصغرة لتاريخ الوطن منذ ألفي سنة..."

شاهد القرن صص ١٩ - ٢٠.

التعليم: يذكر بن نبي في سيرته الذاتية، أنه تلقى أولى المعارف من خلال الجمع بين طريقتين مختلفتين من حيث المرجعية المعرفية والتربوية، إذ كانت أمه توقظه مبكرا للذهاب للمكتب القرآني في وقت مبكر جدا ثم إلى المدرسة الفرنسية في حدود الثامنة صباحا، مما ولد عنده ضغطا متزايدا وكان ينفر من التعليم القرآني بسبب تلك الطريقة التقليدية، وفي الأخير اقتنع والداه بأن يتابع دروسه في المدرسة الفرنسية بصفة منتظمة^(١).

ثم يتطرق لعوامل المناعة الذاتية للمنطقة والتي حفظت لها خصوصيتها الاجتماعية على الصعيد التربوي والروحي؛ فيقول: "بينما يختلف الوسط التبسي عن الوسط القسنطيني الذي عشت فيه إلى تلك الحقبة، في نقاط متعددة، أولا لم يكن المرء يشعر فيه للواقع الإستعماري بتلك الوطأة التي يشعر بها في غيره حيث يصطدم بما يسمى فيما بعد "الحضور الفرنسي"، وقد حصلت هذه الحصانة بسبب التراب نفسه الذي لا يستجلب المستعمر بسبب قحله، حتى أنك ترى رجل الدرك الفرنسي ورجل الدرك الجزائري ولكن تطوقهما من كل جانب أزياء أهل البلد، خصوصا أيام السوق الأسبوعية. وقد بقي الوسط التبسي مصونا أيضا من وطأة الإستعمار بسبب جوار العشائر البدوية التي جعلته ينطبع إلى حد ما بالطابع البدوي القبلي في جو تعبق فيه رائحة الحليب والحمير الألفة عبر الشوارع. ولم تكن البناءات التقليدية معرضة هنا مثلما هي معرضة في الوسط المدني، إلى نفس النتائج الأخلاقية والاجتماعية تجاه الواقع الإستعماري، كما أن السكان كانوا أنفسهم محصنين بعوائدهم البسيطة من التصعلك، كانوا يأكلون الكسكسي والرغيف الأهلي ويشربون الماء. وهكذا احتفظت تبسة، بسبب بساطة حياتها وفقير تراثها، بروحها وكرامتها". انظر: شاهد القرن (الطفل)، صص ٢٠ - ٢١، وأيضاً بالفرنسية:

Mémoires d'un Témoin du siècle, édition Alger, pp 17 – 19, et édition SAMAR p 42.

١ - يقول بن نبي في مذكراته (الطفل):

«J'avais été mis à l'école française. Mais je continuais à aller à l'école coranique. Il fallait m'y rendre le matin de très bonne heure pour être ensuite à 8 heures à l'école française. Le régime était dur pour moi. Et la différence que je constatais dans l'aspect des deux écoles et dans le traitement des deux maîtres, me rendit insupportable le régime. Je me savais régulièrement du taleb et de la natte d'alfa. Et je recevais régulièrement des corrections de mon père et du taleb, ce qui accroissait mon aversion de l'école coranique. Je devenais un mauvais écolier des deux cotés. Enfin mes parents cédèrent et me firent quitter l'école coranique ou je n'apprenais rien, ou, en quatre ans peut-être, je n'ai pas dépassé la sourate de SABIH.» page 22.

وهي الصورة نفسها يذكرها أحد رواد النهضة الأدبية في الجزائر ألا وهو الناقد والشاعر الشاب رمضان حمود وهو يتحدث عن تجربته التعليمية في إحدى المدارس القرآنية يقول: "أربعة أعوام كاملة قضاه في حفظ القرآن، فلم ينل في النهاية غير سور مرسومة في دماغه، لا يفقه منها شيئا، على أنه لم يكن يحفظها كلها لما تقدم من اضطهاد المعلمين لتلاميذهم عند تلقين كلام الله لهم. فكان يحضر بجسمه، ولكن قلبه غائب"، انظر

الحركة الوطنية: يروي الأستاذ بن نبي أن تبسة تلك المدينة الريفية كان يشطرها اتجاهان سياسيان، صفّ الأحرار وعلى رأسه رجل مغمور غير معروف اليوم وهو عباس حمّانه، والثاني هو صفّ إداري يمثله بن علاوه. حيث يقول مالك بن نبي أن عباس بن حمّانه كان من رواد الفكرة الوطنية في شرق القطر مع رائد آخر في غربه هو سي بن رحال. وكنا أول من سافر في ذلك العهد إلى باريس للمطالبة بحقوق الشعب الجزائري لدى الحكومة الفرنسية. ويذكر مالك بن نبي أن عباس بن حمّانه هو أول من سعى لإحياء اللغة العربية؛ فأسس من أجل ذلك بتبسة أول مدرسة عرفتها الجزائر.، ويذكر ما كان يسود جو الانتخابات من تشنج يصل إلى حد العراك بالعصي^(١).

التراث الشعبي: حيث ذكر حلقة القصاص التي كان موقعها بميدان السوق وكيف كان القاص يسرد ملحمة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكانت هناك أيضا حلقة الحاوي الذي يسحر أعين الصبية بثعابينه، بالإضافة إلى حلقة أولاد عيسى وألعابهم الرياضية،

رمضان حمود، الفتى، المطبعة الأهلية، تونس، ١٩٢٩، ص ٢٠ نقلا عن محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية ١٩٢٥ - ١٩٧٥، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥، ٧٦٥ صفحة، ص ٤١.

1 - مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، (الطفل) صص ٣٠ - ٣٢، وانظر أيضا بالفرنسية: Mémoires d'un témoin du siècle, édition d'Alger, pp 25 - 27, et aussi l'édition SAMAR, pp 45 - 46

مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، (الطفل) صص ٣٢ - ٣٣، ويذكر الأستاذ نور الدين بوكروح في كتابه "الإسلام من غير إسلامية" باللغة الفرنسية في الصفحة ٣٦، الهامش رقم ٧: أن سي برحال هو محمد بن رحال (١٨٥٨ - ١٩٢٨)، بعد أن كان ضابطا في الجيش، انطلق في الحياة السياسية الوهرانية، حيث أنتخب كممثل مالي، وفي عام ١٨٩٩ قدم مداخلة عن "مستقبل الإسلام" أمام المؤتمر الدولي للمستشرقين بباريس، وقد ذكر الأستاذ أحمد رضا في كتابه (أزمة المشرق) مستخلصا من هذه المداخلة حيث يقول بن رحال "في كل مرة في العالم الإسلامي عندما تحبط كل حركة قوة أمام عارض، يكشف الرأي العام بعد مدة سبب الضرر، إنه التعصب....."، ويضيف بوكروح في الهامش نفسه أن بن رحال قاوم أطروحة الإدماج وقانون الأهالي، ويقال أنه تعرف على كل من كارل ماركس والشيخ جمال الدين الأفغاني.

Nour-Eddine BOUKROUH: L'ISLAM sans L'ISLAMISME, Vie et pensée de Malek Bennabi, éditions SAMAR-Alger, 2006, p36. Note nr 07.

أما في الليل كانت تنقسم تبسة إلى فريقين، فريق المقهى وحكايات القصص حول ألف ليلة وليلة وسيرة بني هلال، وفريق المسجد لصلاة العشاء وحضور درس الإمام^(١).

من خلال هذا السرد الموجز نستطيع أن نتلمس أولى المكونات الفطرية التي ساهمت في بلورة بن نبي الإنسان وهو يفتح عينيه على هذا العالم في بدايات القرن العشرين، وهذه المكونات (الأسرة، البيئة التبسية، التعليم، الحركة الوطنية والتراث الشعبي)، هي التي صاغت روح وعقل مالك بن نبي على مستوى الوعي الاجتماعي وعلى مستوى التكوين الثقافي، وأيضاً على مستوى الوعي السياسي، مما أفرز في الأخير خطين متلازمين في الحضور متلازمين في الغياب على مستوى السيرة الذاتية البنّائية وهما خط الماضي بكل تراكماته التاريخية وخط المستقبل وبكافة أحلامه الإستشراقية؛ فهو منذ البداية كان يعي مشكلة (التراث) و(الحداثة)، وإن كانا في صور أولية غير ناضجة، ازدادت نصوعاً في المرحلة الموالية الثانية في خط الطفولة عند انتقاله إلى قسنطينة لمزاولة الدراسة. حيث تتوقف المرحلة الطفولية الأولى سنة ١٩١٤ من ١٤ من شهر يوليو ذلك العام، وكما أطلق عليه بن نبي (الحقبة السعيدة) والتي انتهت بمقتل عباس بن حمّانة^(٢).

الوضع العالمي: يحدثنا مالك بن نبي عن أثر الحرب العالمية الأولى في نفسه، وكيف كان يتتبع الأخبار من خلال الجرائد والصحف منها "الملازم"، حيث تعرف على معركة الدردنيل وجبهة سالونيك ودور لورانس في قيادة الجيوش العربية ضد القوات العثمانية في منطقة الحجاز، وأيضاً وقائع الحرب في شارل لوروا والمارن والآردن وقردان، بل ويتطرق لموضوع الأهالي ومشاركتهم قسراً وجبراً في هذه الحرب وتذمر الجزائريين من هذه السياسة الإستعمارية^(٣).

1- Mémoires d'un témoin du siècle, édition d'Alger, p 27, et aussi l'édition SAMAR, p 46.

2 - مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، (الطفل) ص ٣٣، وانظر أيضاً بالفرنسية:

Mémoires d'un témoin du siècle, édition d'Alger, pp 27-28, et aussi l'édition SAMAR, p 46.

3 - أنظر مالك بن نبي: شاهد القرن (الطفل)، حيث يقول: "والحرب التي غيرت وجه العالم من بعد لم يكن لها صدى كبير في شعوري حين اندلعت. فالأول من آب من سنة ١٩١٤ كان في نظر ذلك الطفل يوماً كسائر الأيام. وأنا إذ سمعت جدتي تفتق ذكرياتها عن "عينة البروس" - حرب ١٨٧٠ - ما ظننت إلا أن الحادث الذي وقع ذلك اليوم كان ناتجاً عن اغتيال ابن حمّانة. ولا يفوتني أن أذكر أي اعتقاد أن الشعوب كلها كانت ما تزال على شيء من (الطفولة) في هذا الصدد فلم تعط الحادث بعده التاريخي الحق. وهي لم تكن لتستطيع ذلك.

فماذا نستفيد من حياة الطفولة المبكرة لمالك بن نبي وما أثرها في تكوين رؤيته الفلسفية للظاهرة الحضارية؟

إن هدف مالك بن نبي من سرد هذه الوقائع وكما ذكرنا في البداية ليس من قبيل السرد الأدبي للمتعة وحسب، بل من أجل وضع يدي القارئ على المؤثرات البيئية التي كانت تمثل سياقات تاريخية وثقافية واجتماعية وسياسية ودينية في تكوين ذات بن نبي داخل نسيج اجتماعي كامل هو مجتمع أبناء المستعمرات، وهدفه من ذلك على المستوى البعيد أنه يقدم لنا موقف الجيل الجديد الذي ينتمي إليه مالك بن نبي من الجيل السابق وهو الجيل الذي تنتمي إليه جدته الحاجة زوليخة ووالده (جيل المثوية الأولى) للمستعمر الفرنسي؛ فهو منذ ذلك التاريخ بدأت تتكون في ضميره إشكالية جوهرية وهي رفض الإنسان القائم الراهن، وكل رفض يؤسس لمفهوم جديد عن الإنسان المطلوب من معكوس ما هو عليه؛ فهو هنا أمام جدلية الماضي الساكن الثابت والحاضر المتحرك المتحفز نحو المستقبل.

وبذا وضع مالك بن نبي أولى التصورات عن إشكالية كيفية إعادة صياغة الإنسان ثقافيا، وهو يلاحظ تلك التحولات التي بدأت تطفو على السطح معلنة انتهاء زمن جيل وبدء زمن

ولا ريب أن اليوم لم يعدم التظاهرات والتجليات الوطنية في العالم؛ فأنا لست أدري ما صنع البرلينيون واللندنيون عند إعلان الحرب، ولكن الباريسيين حطموا بعض الواجهات التي يفترض أنها ألمانية وخبروا فيما خربوا مستودعات (ماجبي) وصحبوا حشود العساكر التي تسافر إلى الجبهة حتى محطة الشرق وهم ينشدون المارسيي في الشوارع. ولكن اليوم في تبسة كان شبيها بالأيام الأخرى؛ فالأطفال لعبوا على الأسوار والأمهات أعددن طعامهن المغربي أو غزلن صوفهن. وقد استمر الراوي - (الحكاوي) - في قص المآثر الحربية لسيدنا علي أو لذياب الهلالي في حومة السوق. وكان القوم الأوربيون يذهبون إلى "السينما" المتنقلة التي كانت تعرض مرة كل أسبوع شريط - ماكس ليندر - على رصيف قهوة، وكان العرب يذهبون إلى القهوة العربية لسماع فصل من ألف ليلة وليلة. ولم يع البلد واقع الحرب إلا قليلا مع أسفار المتطوعين الأولى، والمدعويين للخدمة العسكرية من (أهالي البلد) الذين كانت أمهاتهم يصحبهم إلى المحطة تبلغ منهن القلوب الحناجر فيلظمن الحدود ويفتن نحيهن الأكباد ويمزق عويلهن شغاف القلوب. ولكنني أظن أن البلد شعر بجو الحرب على وجه الخصوص مع التضحيقات على السكر والنفط... الخ ومع ظهور العملة الورقية الصغيرة." (الطفل) صص ٣٤ - ٣٦. وانظر أيضا بالفرنسية:

Mémoires d'un témoin du siècle, édition d'Alger, pp 28-29, et aussi l'édition SAMAR, p 46 - 47.

جيل جديد، والمظاهر المادية والاقتصادية التي كانت ملازمة لها بل وأيضا تأثير الدور الأمريكي في العالم من خلال مبادئ الرئيس الأمريكي ولسون الأربعة عشر، وتداول العملة الأمريكية وأيضا الصناعة السينمائية؛ فالقوة المالية والسياسية والعسكرية والإعلامية، هي مؤشرات هذا القرن الجديد قرن الزمن الأمريكي، وبالمقابل ظهرت قوة جديدة في شرق أوروبا إنها روسيا الاشتراكية بقيادة لينين، فالعالم أمام تنامي نظامين عالميين وهذا كله في غياب وعي وطني وعربي بعمق التحولات الجديدة والخطيرة في آن^(١).

وفي سنة ١٩٢٠ غادر مالك بن نبي إلى مدينة قسنطينة ليتابع دراسته بعد أن أنهى المرحلة الابتدائية والمتوسطة ليوصل مرحلة التعليم الثانوي^(٢)، وهنا بدأت مداركه العقلية تتسع وأيضا معها شبكة علاقاته الاجتماعية التي تميزت بالتنوع والتشعب، حيث اكتشف فيها الذوق الفني من خلال أفراد عائلته في قسنطينة إذ تعلم العزف على آلة البيانو التي كانت موجودة في المنزل بقسنطينة وأيضا اكتشف روح الإصلاح التي كان يمثلها بعض رجال الحركة الإصلاحية من أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس، والاطلاع على صحيفة النجاح والتي أسسها شخص يدعى سامي

١ - لقد ذكر مالك بن نبي مظاهر وتمثلات العهد الجديد عهد الزمن الأمريكي من خلال سيطرة السينما الأمريكية، إذ يذكر تأثير الشريط الأمريكي (أسرار نيويورك) عليه، لما لم يجد ذات مرة ثمن الدخول إلى قاعة سينما نونز باع نعلين جديدين اللذين اشترتهما له أمه بهيجة بقسنطينة. وثاني تمثل لزمان الهيمنة الأمريكية يذكره مالك بن نبي، هو: أن أمريكا غدت حديث القوم في السياسة والعادات، حيث بدأت النساء الأوروبيات في قص شعورهن، وصارت التنانير أو الخراطات أقصر ونعال "ريشيليو الناعمة حلت محل النعال الخشنة. أما ثالث مظهر يبرز الحضور الأمريكي هو أن العالم أصبح يتداول الدولار، وشارع ول خلع المدينة عن العرش". انظر: مذكرات شاهد القرن (الطفل)، صص ٤٧ - ٥٦. وبالفرنسية: Mémoires d'un témoin

du siècle, édition d'Alger, pp 38-44, et aussi l'édition SAMAR, p 50 - 52
2- MALEK Benabi: Mémoires d'un témoin du siècle, édition d'Alger, pp 46-47, et aussi l'édition SAMAR, p 53, ou il cite: «Et au certificat d'études, je n'eus que la mention (bien), alors que mon petit camarade français obtenait la mention (très bien). Mais je réussis à l'examen des bourses, ce qui était plus significatif pour un petit (indigène) que ses parents ne pouvaient pas envoyer au lycée. Avec ma bourse, j'allais pouvoir continuer mes études au cours complémentaire de Constantine, à l'école de Sidi El-Djellis, ou se préparaient pendant un an ou deux les candidats à la méderssa, à l'Ecole normale d'instituteurs et les futurs auxiliaires médicaux. (...).»

وانظر: فوزية بريون، مرجع سابق، صص ١٠٥ - ١٠٧.

اسماعيل، بل واكتشف أيضا (الآخر) ممثلا في الفتيان الأوروبيين الذين كانوا يبدون متميزين عن ابن المستعمرات أو (الأهالي).

بل والأخطر من ذلك اكتشافه وفي ذلك الوقت المبكر ذلك الانشقاق في نخبة الجزائريين إلى ثلاثة طوائف وهي: (المعلمين) و(رجال القضاء) و(المساعدين الطيبين)، هنا بدأت الملامح الأساسية للحركة الوطنية بمختلف توجهاتها في التكوين والبروز^(١).

1 - تعتبر حركة الإصلاح التي قادتها جمعية العلماء المسلمين في مطلع القرن العشرين بالجزائر، أحد أهم العوامل في توجيه الحياة الثقافية والسياسية للفرد الجزائري بصفة عامة والمتقف بصفة خاصة، كما أن النشاط الإعلامي والمتمثل في الصحف والجرائد العربية والجزائرية من أهم العوامل النووية في تكوين المناخ الفكري والإصلاحي بالجزائر وبشقيه (العربي - الإسلامي) و(الفرنسي - الغربي)، وبما أن الإدارة الفرنسية كانت على وعي تام بخطورة الإعلام في تكوين الرأي العام بل وتوجيهه، أصدرت سنة ١٩٠٠ في ٢٠ من شهر جويلية، قرارا وزاريا، يمنع تداول جريدة (المؤيد) و(اللواء)، وقد كانت أصدرت قبل هذا المنع قرارا يقضي بمنع دخول الصحافة العربية إلى الجزائر. وعشية الحرب العالمية الأولى أصدرت الإدارة الفرنسية سنة ١٩١٤ قرارا يمنع كلا من جريدة (ذو الفقار) لعمر راسم و(الفاروق) لعمر بن قدور من الصدور، وهذا الوضع بقي على حاله إلى غاية صدور قانون ٠٤ فيفري ١٩١٩ والذي يسمح بموجبه للجزائريين بإنشاء صحفهم، وفي ظل هذا القانون صدرت (النجاح) لعبد الحفيظ الهاشمي (١٩١٩)، و(الصادق) لمحمد بن بكير التاجر (١٩٢٠)، وأيضا (الإقدام) للأمير خالد (١٩٢٠). أما فيما يخص القانون الفرنسي المتعلق بمنع دخول الصحف العربية للجزائر فقد تسرب منها رغم المراقبة والمعاقبة الفرنسية ؛ فقد دخلت الجزائر ١٧٧ جريدة عربية كانت تصدر بمصر آنذاك، وعشية الحرب الكبرى اتخذت السلطات الفرنسية قرار المنع ضد ٠٥ جرائد عربية وهي (القبس) من دمشق، (الشعب) من القاهرة، (الرأي العام) من بيروت، (الحق يعلو) من الأستانة، (المشكاة) من دمشق أيضا. وقد ذكر بن نبي في مذكراته (الطفل) من هذه الجرائد التي اطلع عليها أثناء مرحلة التلمذة ما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٥: صحيفة (المنتقد) وصحيفة (قسنطينة) وصحيفة (أم القرى) للشيخ العقبي، وصحيفة (النجاح) وصحيفة (الزهرة) التونسية، وصحيفة (صوت الوضعاء) لمؤسسها طهرات، وصحيفة (صدى الصحراء) وصحيفة (الراية) وصحيفة (العصر الجديد) التونسية، وصحيفة (الشهاب)، وصحيفة (الإقدام). هذه مجمل الصحف والمجلات الجزائرية والعربية المنشورة آنذاك بالعربية والتي تمكن الأستاذ بن نبي من الاطلاع عليها، والاستفادة من مادتها الإعلامية والفكرية في بلورة فكره ونظريته لواقع العالم الإسلامي آنذاك. انظر مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن (الطفل)، الصفحات بحسب ترتيبها: ٤٦، ٥٢، ٥٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ١٤٠، ١٨٤، ١٤٥، ٢٢٧. وانظر أيضا: عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الأولى ١٩٩٠، ١٥٨ صفحة، صص ٢٠ - ٢٢.

في سنة ١٩٢٥ أنهى مالك بن نبي دراسته^(١)، هنا تبدأ المرحلة الأصعب في حياته، ماذا يصنع ما العمل ما مصيره؟ وهو بن العشرين ربيعاً؛ فخطرت بباله فكرة السفر إلى فرنسا وهنا كانت أولى خطوط الالتقاء والاحتكاك بالآخر المختلف ديناً وثقافة ولغة وعرقاً وتاريخاً ومجتمعاً وحاضراً.

هنا اكتنفتها أحلام الشباب الطامح المغامر؛ لم يقم بأشياء ذات بال إلى غاية سفره إلى آفلو عام ١٩٢٧ كي يعمل ترجماناً للمحكمة هناك، وفي هذه المنطقة من الجزائر اكتشف الفروق اللّهجية والعادات الحاتمية التي يتميز بها أهل هذه المناطق الصحراوية من الكرم والطيبة والبساطة، ولكنه لم يلبث سوى سنة ثم حط الرحال عام ١٩٢٨ بقسنطينة حيث التقى لأول مرة بالشيخ عبد الحميد بن باديس، وبعدها رجع إلى بلده تبسة، وبقي على هذه الحال ماذا يصنع إلى غاية ١٩٢٩ حيث قرر هذه المرة ألا يعود كما وقع معه قبل خمس سنوات تقريباً، وهو يحمل في أعماقه مشروعا كان يكتمه عن أقرب الناس لديه عن والديه.

في نهاية هذا القسم من الكتاب، نستطيع أن نجمل أهم المراحل الحاسمة في حياة مالك بن نبي، والتي عرضها الأستاذ نور الدين بوكروش في كتابه الموسوم:

L'islam Sans L'islamisme، vie et pensée de Malek Bennabi

في خمسة مراحل أساسية، وهي: (الميلاد) L'éveil ما بين (١٩٠٥ - ١٩٣٠)، ثم مرحلة (النضج) La maturation ما بين (١٩٣٠ - ١٩٤٦)، وتليها مرحلة (الحصاد) La moisson ما بين (١٩٤٦ - ١٩٥٦)، وتعقبها مرحلة (المنفى والثورة) L'exil et la Révolution ما بين (١٩٥٦ - ١٩٦٣)، وتنتهي سيرته بمرحلة (العودة) Le retour ما بين (١٩٦٣ - ١٩٧٣)^(٢).

وعليه يمكن تقديم صورة واضحة المعالم عن العوامل المؤثرة في تكوين الأستاذ بن نبي النفسية والروحية، في جانبيها العلمي والأخلاقي، وأيضاً على المستوى التربوي الاجتماعي،

١ - مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن (الطفل)، ص ٢٤١.

2- Nour- Eddine BOUKROUH: L'islam Sans L'islamisme، vie et pensée de Malek Bennabi, pp 33 - 61 - 117 - 195 - 231.

وهذا في النقاط الآتي ذكرها والتي يمكن أن نطلق عليها العوامل التكوينية (النوعية) وأيضا
العوامل الإرتقائية (القيمية)^(١):

1 - يرى ليفيتون leviton، أن سبب تأخر اهتمام علماء النفس بدراسة موضوع الأحكام القيمية، مرده
لاعتقادهم السائد آنذاك، أنه - أي موضوع القيم - يقع خارج دائرة الفحوص الأمبريقية، كما أن القيم لا
تخضع لمعيار (المقياس)، على أساس أنها ذات طبيعة عميقة غير عقلانية، ومن ثمة لا تخضع للمعالجة التجريبية
العملية. غير أنه منذ ثلاثينيات القرن الماضي، بدأ الاهتمام بدراسة (القيم) في تزايد، مع إصباغها الصبغة
العلمية من حيث الرؤية الموضوعية والأدوات الإجرائية والإشرافية التي صارت تسقط على حقل (القيم)
كموضوع ومادة للبحث والتحليل، ويرجع الفضل في ذلك إلى كل من ثرستون Thurstone، من خلال ما
قدمه معتمدا في ذلك على مبادئ السيكونيكا المعاصرة، وأيضا يرجع الفضل إلى الباحث الألماني شبرانجر
Spranger، الذي نشر في هذه الأثناء نظريته الخاصة بتحديد أنماط الشخصية، والتي خلص فيها إلى أن الناس
في مجملهم يتوزعون على ستة أنماط أساسية استنادا إلى غلبة أحد الأنماط القيمية عليهم، وهي: (القيمة
النظرية)، (القيمة السياسية)، و(القيمة الاجتماعية)، و(القيمة الاقتصادية)، و(القيمة الجمالية)، و(القيمة
الدينية). وهي القيم ذاتها التي صاغها (ألبرت وفرنون) فيما بعدا إجرائيا في مقياس عرف بإسمها. وذلك
أن موضوع القيم يسمح للدارس بمعرفة القيم الموجهة للفرد، وما طبيعة مصدرها ومن ثمة اتجاهها
ومقصدها، إذ القيم ما هي إلا انعكاس للأسلوب الذي يفكر به الناس وسط محيط إجتماعي وثقافي ما،
وبحسب تعبير روكيش هي إحدى المؤشرات الهامة على نوعية الحياة ومستوى الرقي أو التحضر لدى جماعة
حضرية ما. وقد تركز اهتمام الباحثين بدراسة الاتجاهات أكثر من القيم، لاعتبارهم أن الاتجاهات أكثر
طوعية للتعديل من القيم، ويؤيد ذا الطرح ما قام به ميلتون روكيش M. Rokeach، من مسح أجراه لصالح
مجلة (الملخصات السيكولوجية) Psychological Abstracts في الفترة ما بين ١٩٦١ و١٩٦٥، وانتهى منه
إلى أنه من بين ٥ أو ٦ دراسات تعنى بموضوع (الاتجاه) Attitud، توجد واحدة فقط تتناول موضوع (القيم)
Values. والدراسات التي جاءت فيما بعد ركزت في مجموعها على ثلاثة أركان أساسية وهي:

١ / الاهتمام بالفروق الفردية في القيم، وذلك في ضوء علاقتها بعدد من المتغيرات مثل الجنس، والسمات
الشخصية، والديانة، والاهتمام الأكاديمي، والمهني والتوافق النفسي... الخ".

٢ / دراسة القيم في علاقتها بالقدرات المعرفية للفرد، وذلك باعتبار أن القيم عملية تتأثر بإدراك الفرد؛ فهي في
أساسها عملية (إنتقاء) Selection، فاختيار الفرد لموضوع معين عن غيره يعد عملية انتقاء إدراكية واعية.

٣ / مجال اكتساب القيم عبر مسار العمر لدى الفرد ولدى المجتمع، والعوامل المؤثرة أو المرتبطة بذلك
باعتباره من المجالات المهمة، والتي تقدم لنا خريطة أو خطاطة لمعالم هذه القيم، مع تحديد مكوناتها وأنساقها
وأشكالها، وكيفية تغيرها عبر الزمن. انظر بخصوص هذا الموضوع دراسة هامة قام بها الأستاذ عبد
اللطيف محمد خليفة تحمل عنوان: إرتقاء القيم، دراسة نفسية، نشرها ضمن سلسلة عالم المعرفة، رقم ١٦٠،
أبريل، الكويت ١٩٩٢، ٢٥٧ صفحة.

(الأسرة)، (البيئة التبسية)، (التعليم)، (الحركة الوطنية)، (التراث)، و(الوضع العالمي).

بالنسبة للعامل الأول (الأسرة)، قدّم لنا مالك بن نبي صورة واضحة عن النسيج الثقافي الذي كانت وفقه تتحدّد ماهية الأسرة الجزائرية، إذ كانت أسرة هرمية التسلسل القيادي لأفرادها لأنها كانت أسرة من نوع الأسرة الكبيرة، والتي يدرك فيها الفرد الواحد تعاقب ثلاثة أجيال كاملة، جيل الأجداد وجيل الآباء وجيل الأحفاد، وهذا بدوره يفتح عيني الطفل على قيم التآزر والتكافل الأسري، وعلى قيم التراحم والتعاقد في يوم المسغبة؛ فهي أسرة ممتدة (غير نووية)، وهي ذات نمط ذكوري (رجالي) في ظاهرها، ولكنها أسرة أنثوية في الغالب (أموسية) في جوهرها، إذ تربية النشأ وتسيير الجانب المالي من مسؤوليات المرأة كزوجة وكأم وكجدة، إضافة إلى ذلك تمثل الأسرة تراكما خبراتيا ومعرفيا تاريخيا، إذ يلاقي بين (الأجيال)، ويورث (الجيل السابق) ثقافته ونمط معيشتة، ورؤيته بل ومزاجه أيضا للجيل اللاحق؛ فهناك تلاقح ثقافي وتواصل معرفي وديمومة تاريخية، غير أن الواقع الاستعماري الفرنسي الجديد، بدأ يفتّ في عضد هذه الأسرة النمطية القديمة، بسبب مصادرة الأراضي وتهجير الأهالي من أراضيهم محدثا بذلك خلاا ديمغرافيا وعمرانيا يتماشى وأهداف الاستيطان الفرنسي بالجزائر.

أما (البيئة التبسية)، ومن خلال السرد التاريخي الذي قدمه لنا مالك بن نبي، والذي يعدّ وثيقة أنثروبولوجية ذات قيمة لا يستهان بها، إذ ركّز على تحديد الطابع الجغرافي للمنطقة، ودوره في تشكيل النمط الديمغرافي لسكان المنطقة بل وأيضاً النسيج العمراني الذي عرفته تبسة خلال أحقابها التاريخية المتعاقبة عبر القرون، بل ورصد لنا جانب التقاليد الاجتماعية ومراكز القوى المؤثرة في المجتمع التبسي، أو ما يعرف في علم الاجتماع السياسي بالمجموعات الضاغطة، مثل الطرق الصوفية التي كانت تهيمن على الذهنية العامة لسواد العامة من الناس، بل ويقارن بين (المدينة) و(الريف) كمجالين ثقافيين مختلفين، وغير متجانسين؛ فالريف يمثل حالة الإستقرار والثبات بل والمحافظة على القديم، بينما المدينة ترمز للتغير والتجدد والقطيعة مع الماضي، الريف يحافظ على القيم القديمة لأنها تمثل المرجعية والهوية والتاريخ والوجود، بينما المدينة تمثل الآخر والاغتراب...

أما عامل (التعليم)، يعتبر رافدا أساسيا ونحن نحاول أن نضع صورة ذهنية للحياة الفكرية والروحية للأستاذ مالك بن نبي؛ فمن خلال رصدنا لما طالعته مالك بن نبي أثناء المرحلة الأولى من حياته مرحلة الميلاد (١٩٠٥ - ١٩٣٠) ومن خلال ما دونه في مذكراته شاهد القرن (الطفل) فقط، استطعنا أن نخرج بالإحصاء الآتي: ١١ صحيفة باللغة العربية ومجلة قرأها مالك بن نبي وهو في المرحلة التعليمية بقسنطينة، و٦٠ صحف بالفرنسية، ١٥ كتابا بالعربية والفرنسية، وأكثر من ١٢ كتابا بين القصص والرواية والشعر. وهذا ثبت بما ذكره في هذا الجدول التوضيحي:

الصحف والجرائد	الكتب العربية والأجنبية	الروايات
١ صحيفة المتقدم	١ كتاب قوم الأسفار (بالفرنسية) Les gens de voyage	١ الرجل الذي اغتال L'homme qui assassina
٢ صحيفة قسنطينة	٢ كتاب الفشل الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق لأحمد رضا	٢ روايات جول فيرن
٣ صحيفة أم القرى	٣ رسالة التوحيد لمحمد عبده	٣ روايات الفروسية المسماة
٤ صحيفة النجاح	٤ كتاب في ظلال الإسلام الدافئة بالفرنسية l'ombre chaude de l'Islam	٤ روايات المعطف بلا أكمام والسيف
٥ صحيفة الزهرة التونسية	٥ كتاب الإسلام بين الحوت والدب بالفرنسية L'Islam entre la Baleine et l'Ours	٥ قصص دوستويفسكي
٦ مجلة صوت الوضعاء	٦ كتاب أم القرى للكواكبي	٦ قصص بيير لوتي Pierreloti
٧ صحيفة الإقدام	٧ كتاب روح الإسلام بالفرنسية	٧ فاقدات السعادة لكلود فرير Les désenchantées
٨ صحيفة الراية	٨ كتاب قطر الندى وبل الصدى في النحو	٨ التلميذ لبير بورجيه La disciple de pierre Bourjet
٩ صحيفة العصر الجديد التونسية	٩ مقدمة وتاريخ بن خلدون مترجما للفرنسية	٩ رواية دوما
١٠ مجلة الشهاب	١٠ كتاب مروج الذهب للمسعودي	١٠ البحيرة للامرتين
١١ صحيفة صدى الصحراء	١١ كتاب جامع لكوندياك	١١ النظرات والعبرات للمنفلوطي
١٢ صحيفة الشؤون العامة لقسنطينة (بالفرنسية) La dépêche de Constantine	١٢ كتاب كيف نفكر لجون ديوي	١٢ الأسرة لبارديان ميشيل Zivaccon
١٣ الصحيفة الشيوعية، الإنسانية (بالفرنسية) L'humanité		١٣ كتاب أنتينيا Antinea
١٤ صحيفة النضال الاجتماعي (بالفرنسية) La lutte sociale		

١٤ Lazyadé	١٣ كتاب الهند الفتاة لرومان رولان ١٤ كتاب تاريخ الإنسانية لكور تلمون L'Histoire sociale de l'humanité ١٥ الكتاب المحظور proscrit ١٦ المآثر الحربية لسيدنا علي أو لذياب الهلالي	١٥ صحيفة الأخبار الأدبية (بالفرنسية) Nouvelles littéraires ١٦ مجلة المحاضرة (بالفرنسية) Conférence ١٧ صحيفة الجمهوري (بالفرنسية) Le republicain
------------	--	---

إضافة إلى هذا الرافد المعرفي فقد استطاع أن يدرك في هذه المرحلة طبيعة النخب الفكرية والسياسية التي بدأت تتكون في الجزائر، ممثلة في نخبة الطلبة الفرنسيين، ونخبة الطلبة الأطباء والصيدلة، ونخبة القضاة ونخبة المدرسين، بل وأن يفهم طبيعة الصراع بين أصحاب التكوين التعليمي أحادي الجانب، إذ كان هناك اختلاف وانقسام بين المتعلمين بالعربية وبين المتعلمين بالفرنسية، في حين استطاع مالك بن نبي أن يفلت من هذا الشرك، من خلال جمعه بين هذا وذاك في شخصية سوية أخذت أحسن ما يوجد في الثقافتين العربية والفرنسية. بل اكتسب شيئاً أساسياً في التكوين العلمي ألا وهو طريقة التفكير المنهجي المعتمد على الملاحظة للظاهرة، ومحاولة فهم (الأسباب) ومن ثم معرفة (النتائج) المتوقعة بعد ذلك.

أما فيما يخص عامل (الوضع العالمي) وآثاره العميقة التي مست المجتمع الجزائري، مثله في ذلك مثل باقي المجتمعات الإنسانية، وإن كانت آثاره على البلاد المستعمرة أكثر، ومن بين مظاهر التحول الجديد في الخارطة الجيو سياسية آنذاك، ظهور قوى صاعدة على الساحة الدولية مثل الولايات المتحدة الأمريكية، حتى أنه وصف مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى بأنها زمن القرن الأمريكي، وأيضاً قوة مقابلة لها وهي الإتحاد السوفياتي آنذاك ومشروعه الأممي (الشيوعية) في مقابل (الرأسمالية الغربية)، بل وظهور قوة أخرى ثالثة وهي حركة السلم العالمي التي دشنت تاريخها رسمياً المهاتما غاندي^(١) بالقارة الهندية آنذاك، في حين باتت دعائم القوى الإستعمارية العتيقة في مرحلة تقويض وانكماش لمجالها الحيوي مثل فرنسا وبريطانيا، خصوصاً بعد ظهور الاهتمام الأمريكي بالمنطقة العربية بعد اكتشاف النفط في

١ - غاندي: الزعيم الروحي للهند والسياسي الأبرز (١٨٦٩-١٩٤٨)، قاوم الاستعمار البريطاني من خلال حركة العصيان المدني الشامل واللاعنف التي أدت إلى استقلال الهند.

الجزيرة العربية، ولم ينس بن نبي رحمه الله أن يشير إلى خطورة المسألة اليهودية التي بدأت تطفو على السطح آنذاك، بعد القضاء على التواجد العثماني كقوة إسلامية في خط المواجهة مع الغرب الإستعماري الزاحف على ما تبقى من تركة الرجل المريض، وهو ما عرف بالمسألة الشرقية الأولى (اتفاقية سايكس وبيكو)^(١) لما بعد الحرب، وهذا كله في غياب كلي للحضور العربي، الذي يتقرر مصيره من طرف غيره من دون أن يحرك دالته ولو من باب التأكيد على وجوده. هذه الأمور مجتمعة هي التي أفرزت من بعد في وعي مالك بن نبي مفاهيمه الأساسية والتي كانت محور اهتمامه لما بعد الحرب العالمية الثانية، وأهمها: (القابلية للإستعمار)، و(خارج دورة الحضارة) لإنسان ما بعد الموحدين، و(شبكة العلاقات الإجتماعية)، و(مشكلة الثقافة)، و(مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) و(الصراع الفكري) و(التكديس) و(الشيئية) و(الفاعلية)، وغيرها من المفاهيم الجديدة التي تفتقت عن الرؤية البنابية المحددة على مستوى الفكرة وعلى مستوى الرؤية، وعلى مستوى المنهج والأداة.

وهناك عامل آخر يعد من العوامل الأساسية في صقل تجربته التاريخية ورؤيته لمسألة الاستعمار والحضارة، ألا وهو عامل الرحلة والهجرة، إلى فرنسا أولا من سنة ١٩٣٠ إلى غاية ١٩٥٦، هذه المرحلة التي تابع فيها تكوينه الأكاديمي بفرنسا حيث تخرج من معهد الهندسة كمهندس كهربائي، والتقاؤه بزوجته الفرنسية خديجة (إسمها بعد أن أسلمت)^(٢)، سمح له

١ - سايكس بيكو هي اتفاقية سرية بين كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية، لاقتسام البلدان العربية وتحديد مناطق النفوذ بعد زوال الدولة العثمانية. وقد انسحبت روسيا منها بعد وصول الشيوعيين إلى السلطة في ١٩١٧. وهم الذين كشفوا وثائقها للرأي العام العالمي.

٢ - إن جل ما يتعلق بمالك بن نبي في حياته الشخصية، كطفل وطالب وكهل وزوج، لا نجد في المقالات أو الدراسات العربية ما يضيف جديدا، حتى وقع بين أيدينا: الطبعة الجديدة لمؤلفات مالك بن نبي بالفرنسية، منشورات سمر بالجزائر العاصمة سنة ٢٠٠٦، تقديم الأستاذ نور الدين بوكروح، وفيه وجدنا الجزء الثالث لمذكرات بن نبي بعنوان (الكاتب) وأيضا الدفاتر، فالجزء الثالث (الكاتب) يغطي الفترة الممتدة من حياته ما بين ١٩٣٩ إلى ١٩٥٧. أما الدفاتر والتي مجموعها ١٩ دفترا وفيها ٢٢١١ مذكرة، تغطي الفترة المتبقية من حياته ما بين ١٩٥٨ إلى غاية سنة وفاته ١٩٧٣. بخصوص زوجته الفرنسية مجدثنا الأستاذ بوكروح عنها من خلال المذكرات غير المنشورة لمالك بن نبي، وهي بتاريخ ١٩٣١، بأنه من خلال زوجته والتي كانت تمثل له مصدرا غنيا من المعلومات، استطاع أن يتعرف على حقيقة الحضارة الغربية:

هذا اللقاء أن يتعرف على وجه آخر من فرنسا، ليست فرنسا الآخر المستعمر، بل الآخر

«En fait, j'étais à bonne école: ma femme devenait pour moi une précieuse source d'information et de formation de mon caractère en me mettant intellectuellement et moralement en confrontation directe avec les vertus et les défauts de sa race, de sa civilisation. que de chose n'ai-je pas apprises à cette école!».

Paulette – بل يواصل الأستاذ بوكروخ تقديم معلومات هامة عن طبيعة العلاقة التي كانت تربطه بزوجته

khadidja philippon، إذ يقدم وصفا دقيقا لملاحظتها، إذ يقول معتمدا في ذلك على مخطوط لمالك بن نبي من

٠٨ صفحات مؤرخ في ١٩٣٦، بعنوان: مشاكل بن نبي في تدبير المنزل، « Les problèmes du ménage

Bennabi»، وبأسلوب بالزكاكي شيق جاء فيه:

«Visage reflétant un mélange de sensibilité et de sérénité qui lui donnait parfois l'image de la consolation penchée sur la douleur. Ses cheveux, de la même couleur que ses yeux châains, lui retombaient sur le cou et les épaules. le teint mat répandait sur la figure qui était ronde, pleine et soulignée légèrement par la ligne d'un double menton, une expression de sérieux cadrant fort bien avec quelques fils d'argent qui couraient parmi ses nattes drues et longues, indice d'une femme qui ne devait pas sacrifier à la mode. Ses traits réguliers respiration la douceur et la bonté».

ولكن هذا الزوج المحاط بكافة مشاعر الحب الصافي الرقيق العفيف، ينقطع حبل الصلة بينها لمدة ١٥ عاما

كاملا، فكيف كانت تنظر إليه؟ من خلال أرشيف العائلة هناك عشرات الرسائل التي بعثت بها إليه ما بين

١٩٥٨ و١٩٦٢، وهي تصف معاناتها المتواصلة مع المرض العضال الذي أصيبت به، ومشكلاتها المادية التي

لا تتوقف والوحدة القاتلة التي كانت تفت في عضدها لمدة ١٥ خمسة عشر عاما، حتى الحديد يبلى ويصدأ،

وحدة قاتلة لزوجة تركت لتجابه قدرها بمفردها ولا أنيس يشاركها آلامها وآمالها، وكانت آخر رسالة تبعث

بها إليه بتاريخ ٠٤ أوت ١٩٦٢، عقب الإستقلال بشهر واحد. غير أن الأستاذ بوكروخ يحصل على رسالة

أخرى لخديجة عقب زيارته لها سنة ١٩٧١ عند رجوعه من أمريكا، في هذه الرسالة عتاب واضح لمن افتقدت

زوجها لمدة ١٥ سنة وأزيد ولم تحض منه سوى ٠٤ أيام، ولكن بن نبي وكأنه شعور بالذنب اتجاهها وبتقصيره

الكبير في حقها، يرسل لها بر رسالة مؤرخة في ١ ديسمبر ١٩٧١، بل بعث لها بطرد من التمور، أما بقية الرسائل

فهي مؤرخة في ٢٤ ديسمبر ١٩٧١، ١٣ جانفي ١٩٧٢، ٠٣ أفريل ١٩٧٢، من دمشق، وبتاريخ ٠٦ ديسمبر

١٩٧٢، و١٣ ديسمبر ١٩٧٢، و٢٠ جانفي ١٩٧٣، ورسالة أخيرة التاريخ فيها غير واضح، وكافة الرسائل

تبدأ بقوله "عزيزتي بولات Ma chère Paulette"، وتنتهي بقوله: «Je t'embrasse tendrement». وبقي

مالك بن نبي على حبه الدائم لزوجته خديجة الفرنسية؛ فهو يؤكد لها هذا في رسالة بعث بها إليها مؤرخة في ١٨

نوفمبر ١٩٧٠. وفي يوم ٢٦ ماي ١٩٧٣ بينما هو في ملتقى فكري بمنزله، يفاجأ بخبر وفاة زوجته بمستشفى

بلدتها درو Dreux، بعد معاناة مريرة مع الوحدة والمرضى. ولحق بها هو من السنة نفسها بتاريخ ٣١ أكتوبر

١٩٧٣. انظر مالك بن نبي في: الدفاتر، les carnets, éditions SAMAR, pp 510 – 511 et 522, et voir

.aussi Nour- Eddine Boukrouh: l'islam sans l'islamisme, pp 189 – 194

المتمدن والمتحضر، مما ساعده على أن يقف وعن قرب على حقيقة الفكر الحضاري الغربي. ثم رحلته إلى مصر والاستقرار بها حيث عرفت معظم مؤلفاته الظهور والانتشار فيها، كما أنه تمكن بعد الاستقلال من زيارة كل من دمشق وبירות والحجاز وليبيا والولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها من الدول، كالصين والهند، كل هذا أغنى تجربته الفكرية التي لم تتوقف عن الكتابة وإلقاء المحاضرات المتواصلة سواء في بيته أو في الجامعة إلى أن توفاه الله بتاريخ ٣١ أكتوبر ١٩٧٣.

المبحث الثاني

مالك بن نبي ومشروع الإنسان

من خلال ما تقدم تبدت لنا جلليا ملامح مشروع بن نبي ؛ إذ كان يبحث عن بديل للوضع المزري الذي كان يتخبط فيه كفرد جزائري مسلم مستعمر، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، لذا عزم على الالتحاق بمعهد الدراسات للغات الشرقية، ولكن خاب أمله إذ لم يقبل، وعلى ذلك التحق بمعهد اللاسلكي كي يتخرج منه بشهادة مساعد مهندس كهربائي، وبذا اكتملت عوامل تكوين شخصية بن نبي الإنسان، وعليه نستطيع أن نجمل سيرته الذاتية هذه في النقاط الآتية:

الثقافة الإسلامية والتكوين المزدوج الفرنسي، سمح له منذ البداية أن ينظر لأصل المشكلة من زاويتين زاوية الروح الإسلامية المتشعبة بأصولها والتي تكون صمام أمان لمناطق التوارد الذاتي فتحمي الذات من عمليات الاستلاب المختلفة من حيث الوسيلة والغاية، والزاوية الثانية هي تلك الرؤية العلمية الرصينة التي اكتسبها من التكوين الرياضي والفيزيائي مما سمح له بأن يكون ملما بالثقافة الغربية وبمعطيات الحضارة الأوروبية، وبذلك حقق انسجاما على مستوى التكوين النفسي - الثقافي، بعكس ما يقع في الغالب لكثير من المتعلمين في المدارس الغربية بأوروبا من حالات الذوبان في النسيج الثقافي الأوروبي وإما حالة اللا تكييف ومن ثم حالة من الصراع النفسي المفضي إلى نوع من انفصام الذات بين الواقع - (حالة اغتراب) - الذي تعيشه والماضي الذي تنتمي إليه تاريخا وفكرا وثقافة.

ومن هنا نفهم سبب إصدار مالك بن نبي أولى بواكير عمله الفكري كان حول (القرآن) تلك الرسالة الخالدة وهي آخر تواصل بين السماء والأرض، إنها آخر نداء من السماء إلى البشرية كي تخرج من ديجور المتاهة والضياغ؛ فهو بذلك يحقق الخطوة الأولى للجيل الجديد في نطاق رؤية مستقبلية لتحقيق مشروع جديد هو مشروع النهضة ولكن ليس بحسب أدبيات الفكر النهضوي السائد آنذاك، ذلك الفكر الذي انقسم على نفسه منذ البداية بين أنصار الحل القومي العروبي الحالم إلى الزمن الرومانسي الذي ولى زمانه إلى غير رجعة، وأنصار الإقصاء،

والتخلص من ثقل الموروث الحضاري العربي والإسلامي على أساس أن التثبيت بمعطيات هذا الماضي هو من الأسباب القوية في بقاء الأمة ترزح في ظلمة التخلف وسدفة الجهل.

الجديد الذي يقدمه بن نبي يتمحور أساسا حول (الإنسان)، إذ هو أساس المشكلة وهو مفتاح الحل في الوقت ذاته، ولذا فتوجه بن نبي إلى القرآن، بالدراسة والتحليل كان يهدف من خلاله توجيه خطاب بمنطق جديد في اتجاهين أساسيين هما:

الأول: خطاب موجه إلى العقل الديكارتي والعلماني في أوروبا القائم في تفسيره لظواهر الطبيعة على أساس المنطق السببي والتحليل الفرويدي والرؤية الهيكلية والماركسية لجدلية الفكر ومادية التاريخ، ومن ثم نقض تلك الأفكار المادية التي تريد إخضاع دراسة القرآن لمنطق التفكير السببي الديكارتي، والذي يهدف في أعماقه إلى ضرب أهم مقوم رسالي للأمة وهو القرآن.

الثاني: موجه إلى ضمير الفرد المسلم الذي استسلم لمنطق الاستعمار من خلال آلية القابلية للاستعمار؛ فصار عنصرا خاملا خارج دورة الحضارة منذ زمن سقوط الموحدين وما أطلق عليه "إنسان ما بعد الموحدين" الذي سقط سقوطا حرا، لأنه يرى أنه لابد من الرجوع إلى القرآن وإعادة قراءة ذلك الخطاب القرآني قراءة جديدة ليست تلك التي تكرر قراءة القرآن في الزرد وعلى قبور الموتى، بل على المسلم أن يعيد تمثيل معاني النزول القرآني وما جاءت به الآيات كأنه ينزل الآن، وبذلك يستعيد الفرد المسلم دوره في دالة الحضارة. والسبب هو أن القرآن الكريم لما جاء في أول الوحي خاطب العقل والضمير أمرا بإعلان زمن جديد هو زمن القراءة وانتهاء زمن الأوثان وعبادة الأصنام وتحرير العقل من كل سلطة خرافية، وبذلك يحقق الإنسان المسلم ثابتا كونيا تاريخيا، عندما يتحد مع مضمون الخطاب القرآني الذي هو رسالة ومشروع حضاري جاء ليغير واقع الإنسان...

١ - أسباب وظروف تأليف الكتاب

إن المطلع على مؤلفات مالك بن نبي يبدو له اهتمامه بالصراع الفكري في العالم الإسلامي المعاصر، وانشغاله بمشكلة الهجوم النصراني على المسلمين، ومواجهة الاستشراق بكل ما أوتي من قوة فكرية.

وهذا ما نستشفه في مؤلفه الظاهرة القرآنية، الذي يرجع تأليفه إلى أسباب تاريخية وأسباب عائدة إلى المنهج^(١).

أولاً: أسباب تاريخية؛

في هذا المبحث، نرى أن الظروف التاريخية التي صاحبت تأليف كتاب الظاهرة القرآنية، تتوزع على نوعين من الظروف التاريخية، النوع الأول يمكن أن نطلق عليه العامل التاريخي الشخصي لمالك بن نبي، والثاني يمكن أن نطلق عليه الظرف التاريخي الموضوعي.

أ/ العامل التاريخي الشخصي؛

يقول مالك بن نبي في مدخل كتابه (الظاهرة القرآنية) في الطبعة المنشورة باللغة العربية: "لم يتح لهذا الكتاب أن يرى النور في صورته الكاملة؛ فالواقع أننا قد أعدنا تأليف أصوله التي أحرقت في ظروف خاصة. وهو كما هو الآن، لا يكفي في علاج فكرتنا الأولى عن المشكلة القرآنية؛ فإن الموضوع يستلزم عملاً شاقاً طويل الأنفاس، ومراجع ذات أهمية قصوى، لم يكن بوسعنا الحصول عليها في محاولتنا الثانية. غير أننا لا زلنا نشعر بقيمة الفكرة التي ساقطنا إلى هذه الدراسة، حتى لقد آمنا بضرورة بذل ما نستطيع من الجهد في سبيل تحقيقها، مهما تكن من صعوبات المشروع، ومهما تكن من المعوقات دون تحقيقه.

"ولذا حاولنا أن نجتمع العناصر التي بقيت من الأصل مكتوبة في قصاصات، أو مسجلة في الذاكرة؛ فأقننا بذلك - على ما نعتقد - جوهر الموضوع، وهو الاهتمام بتحقيق منهج تحليلي في دراسة الظاهرة القرآنية، وهو منهج يحقق من الناحية العملية هدفاً مزدوجاً هو:

١/ أنه يتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضج في الدين.

٢/ وأنه يقترح إصلاحاً مناسباً للمنهج القديم في تفسير القرآن.

وهذه المهمة وتلك ترجعان إلى أسباب مختلفة، يتصل بعضها بالتطور الثقافي الذي حدث في العالم الإسلامي بصورة عامة، وبعضها يرجع إلى عنصر آخر يمكن أن نسميه "تطور نظرنا في مشكلة الإعجاز" بصورة خاصة، ولا بد إذن من عرض هذه الأسباب بترتيبها"^(١).

١- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية / ص ٥٣.

فما هي الظروف والأسباب التي أدت إلى إتلاف المادة الأصلية للكتاب (الظاهرة القرآنية)، حيث سنحت لنا الفرصة للتعليق بالأستاذ خالد مسقاجي بتبسة حيث قدم لنا معلومات تجيب عن تلك الأسئلة والمتعلقة بظروف تأليف كتابه (الظاهرة القرآنية)، وهي المعلومات ذاتها التي وقفنا عليها مدونة في كتاب (الكاتب)، وهو القسم الثالث من مذكراته شاهد القرن، والذي لم ينشر من قبل، حتى جاء الأستاذ نور الدين بوكروح وكشف الغطاء عنها.

في عام ١٩٣٨ حاول مالك بن نبي مغادرة فرنسا والتوجه نحو بلاد الحجاز عن طريق البر من خلال مروره بألمانيا إلا أنه قفل راجعا بسبب بداية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩. فبقي في فرنسا حيث اشتغل وقتا سيرا كمسؤول بلدية درو، بلدة زوجته الفرنسية، أقبل من المنصب في شهر أبريل عام ١٩٤١، فعمل كحارس ليلي؛ فكان في النهار يقضي وقته في القراءة والكتابة والصلاة، والشرطة الفرنسية لا تنزع عنه عين المراقبة والمتابعة. وذات يوم اتهم بسرقة بعض الأغراض من مستودع، وأثناء زيارة الشرطة لبيتهم بهدف التحقق من عدم وجود الأغراض المسروقة عنده، أخبره أحد أفراد الشرطة، بأن هناك في البلدة من الحسدة من يضمرون له شرا؛ ففقد عمله هذا أيضا، فرجع إلى باريس. اقترح عليه صاحب المقهى الجزائري (الهقار)، أن يعمل بصفة دائمة في وحدة مسلمة تابعة للحزب الشعبي الفرنسي (PPF) الذي يترأسه آنذاك Jaques Doriot، والذي كان مقره بشارع rue des Ecoles قبالة Collège de France؛ قبل مالك بن نبي بالعرض واتخذ غرفة بالقرب من Panthéon^(٢).

ويقول بن نبي رحمه الله عن هذا العرض: "هذا لا يعني لي أنني متأثر بالخلفية السياسية لدوريو Doriot، الذي أراد أن يلعب دور "القائد الفرنسي" تحت نعل هتلر. ولكني أعلم أنه ليس هناك شيء جدي، في هذه الحركة التي لا يمكن أن تنتهك فيها حقوق العمال المسلمين بباريس"^(٣).

1 - مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق ١٩٨٦، ٢٨٧ صفحة، صص ٥٣ - ٥٤.

2-Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 110.

3- Malek Bennabi cite: «Cela ne me disait rien de me lier à la fortune politique de Doriot qui voulait jouer le rôle de (chef français) sous la botte de Hitler. Mais je savais qu'il n'y avait rien de sérieux dans ce mouvement qui ne pouvait pas abuser les travailleurs musulmans de Paris». voir Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 110.

وحتى لا يبذر المال، قام باستحضار مدخراته من Dreux، ولبت من ٠١ فيفري ١٩٤٢ إلى غاية ٠١ جويلية ١٩٤٢، قضى تلك الأيام في مكتبة Sainte - Genièvre، حيث تعرف على زوجته قبل عشر سنوات. ويصرح بن نبي أنه بهذه المكتبة وجد المادة العلمية الخام، التي يمثلها رصيده الثقافي، وكيف أنه مرت عليهم أوقات عصيبة عندما كانت الطائرات البريطانية تقصف فوق رؤوسهم.^(١) إذن بهذه المكتبة وبعدها مكتبة l'UJGC، حيث قام بن نبي بقراءاته الأساسية العميقة التي شكلت فكره.^(٢)

ويرجع مرة أخرى مالك بن نبي إلى رحلة البحث عن العمل، بعد أن غادر عمله بالوحدة التابعة لحزب دوريو Doriot، يوم أن طلب منه أن يؤدي يمين القسم على القرآن، عندها قرر الذهاب إلى هانوفر Hanovre للبحث عن عمل بألمانيا. توقف ببلدة بومليتز Bomlitz، حيث سيقضي ١٨ شهرا بمعمل للمواد اللزجة. فكان يقرأ في الليل القرآن حيث ينام، وهو لم يكن يدري أنه بصدد التحضير لموضوع الظاهرة القرآنية (Le phénomène coranique).^(٣) في شهر ديسمبر ١٩٤٢، يعين مالك بن نبي ممثلا للعمال الفرنسيين في بومليتز، وفي وسط السنة بدأت قوات التحالف بقصف ألمانيا وفي أواخر شهر ديسمبر ١٩٤٣ يغادر بن نبي ألمانيا، قافلا إلى فرنسا، حيث سيعيش على بعض المهن والحرف، وهذا ما يذكره بعد ٢٠ عشرين سنة في مقال له بعنوان "العامل الجزائري بفرنسا" «Le travailleur algérien en France».

1- Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 110

2- Malek Bennabi cite: «J'y dévorais toute la matière qui constitue aujourd'hui mon bagage intellectuel hormis ma formation scientifique... On voit aujourd'hui naître une œuvre intellectuelle, qu'on avait tout fait pour couper à la racine de 1932 à 1940. Et l'on me voit aujourd'hui (1952) écrire et publier cette œuvre sans savoir où est sa racine puisqu'on sait que j'écris sans documents et sans possibilité d'en avoir. Bref, cette période que je passais à la permanence du PPF à Paris m'a permis de réaliser mon rêve de jeune homme... Oh! Plus que je n'aurais pensé puisque je voulais être l'auteur du (livre proscrit) et que je devais, en effet, le devenir au delà de mon espérance. Je dois encore à cette période de privation de toutes sortes, de misère générale, de péril constant suspendu au – dessus de nos têtes dans les ailes des avions anglais, une sorte de ferveur religieuse, d'exaltation mystique que je ne perdrai plus.», Voir: Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, pp.250 – 258, et Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 110.

3- Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, pp.258 – 259 et Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, pp 110 – 111.

بتاريخ ٠٢ أكتوبر ١٩٦٥^(١). في هذه الفترة التاريخية والممتدة من ١٩٢٥ إلى غاية ١٩٤٣، عرف بن نبي كافة أنواع الشقاء والمعاناة الجسدية والنفسية والمادية بل والأخلاقية أيضا.

في شهر حزيران (جوان) ١٩٤٤، حطت قوات الحلف بالمنطقة التي كان يقيم بها مالك بن نبي (منطقة النورماندي). تراجع الألمان على أعقابهم القهقري، وتمكن بن نبي من تجنب القصف والالتحاق بمنطقة درو Dreux، والتي سيغادرها بعد وقت وجيز إلى باريس. وفي أوقات من الضعف البشري التي اعترته كان يتمنى لو تخترقه رصاصة طائشة تصيبه في مقتل فيستريح من قساوة المأساة. لما علم بوقوع بلدة درو تحت قبضة قوات التحالف، قلق بخصوص زوجته؛ فقفّل راجعا سيرا على الأقدام قاطعا مسافة مائة كيلومتر تقريبا، في أربعة ٠٤ أيام وثلاث ليال قضاهما في العراء، يتناول ما يجده في طريقه، وقد كتب عن لسانه فيما بعد الدكتور خالد في مقال نشر بتاريخ ٢٣ أفريل ١٩٥٤ يقول: "لم العجلة، سندهب إلى عمود الإعدام"، وهنا انتبه إلى ذلك الشعور السيئ بوجود دور لليد الاستعمارية الخفية والتي خبرها عن كثب منذ قدومه إلى باريس من سنة ١٩٣٠، حيث كان للويس ماسينيون^(٢) الدور الأكبر، فيما ألم به من معوقات وإحباطات وانتكاسات كثيرة وكبيرة، ولما وصل إلى البلدة خضع للاستجواب ولمدة ١٥ خمسة عشر يوما، هو وزوجته. كلاهما نقل فيما بعد إلى معتقل Pithiviers، وذات يوم نشرت جريدة (الحركة الجمهورية) «l'Action républicaine»، برئاسة موريس فيوليت Maurice Viollette، قائمة بأسماء الموقوفين ببلدة درو مع الإشارة لسبب التوقيف، وفيما يتعلق بابن نبي (لا شيء)، أما فيما يخص زوجته؛ فكتب أمام إسمها، "نشاطات متابعة من طرف ضابط ألماني". وبين الأخذ والرد والإتهام والإنكار، قضى مالك بن نبي وزوجه في السجن من غير محاكمة ٠٩ تسعة أشهر^(٣).

1- Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, p.258 - 259 Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, pp 110 – 111. et dans la page 111 voir la note 69.

2 - لويس ماسينيون ١٨٨٣-١٩٦٢، من كبار مستشاري فرنسا، تقلد وظائف مهمة في الدولة الفرنسية، عمل مستشارا في وزارة المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا، نشر ديوان الحلاج وكتب عن ابن سبعين الأندلسي وسلمان الفارسي. اشتهر بمواقفه العنصرية.

3- Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, pp 259 – 269, et Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 112.

وبينما هو في المعتقل، وقد حل فصل الشتاء القاسي الذي زاد جدران السجن رطوبة ستسكن في عظام زوجته خديجة، رطوبة ترافقها حتى القبر، بدأ مالك بن نبي في كتابة أولى المسودات الخاصة بكتابه (الظاهرة القرآنية) «Le phénomène coranique»، وهذا من غير أن تكون له نية في نشره، ولكنه تخوف من عدم إمكانية نقل المخطوط معه، في حالة ما إذا قررت المحكمة ترحيله إلى سجن كارتير Chartres؛ فقرر أن يترك المخطوط مع شخص يدعى جورج مارلان وزوجته Mr Georges Marlin، عندما قاما بزيارته وهو بالسجن.^(١)

بعد خروجه من السجن، زار الجزائر وذلك من عام ١٩٤٦، وفي شهر جويلية من السنة نفسها زار والده بتبسة حيث وجده يعيش حالة مزرية مدقعة في الفقر والعوز؛ فقرر حينها أن ينشر كتابه (الظاهرة القرآنية)، والذي لم تكن له نية في طبعه ونشره حين وضعه كمسودة وهو بالسجن، وهذا من أجل إنقاذ حالة عائلته مما آلت إليه، وبحسب رأيه بسبب مواقفه هو من الإدارة الإستعمارية^(٢). نفهم إذن أن كتاب الظاهرة القرآنية كان حالة ذهنية وروحية عاشها مالك بن نبي على مرحلتين، الأولى عندما كان بألمانيا والثانية عندما سجن لمدة تسعة أشهر، كأنه وجد في القرآن الملاذ الوحيد الآمن لروحه وضميره اللذين أثقلا تعبا وهو إلى ذلك الحين ليس له عمل قار، يرتزق منه ليعيل زوجته ونفسه.

في أواخر شهر نوفمبر، كان العمل منتهيا، أخذ القطار بمعية دكتور خالدي إلى العاصمة، حيث يتوجب عليه أن يودع الكتاب إلى دار نشر (النهضة) التي أسسها الإخوة ميموني بالقصبة. وفي القطار يقع صديقه خالدي على إعلان وهو يتصفح الجرائد، مفاده أن الحكومة تعلن عن وضع جائزة للأعمال التي تقدم حول الإسلام، وأن المخطوط يجب تقديمه للهيئة المشرفة في غضون عشرة أيام من تاريخ نشر الإعلان، وقد قام برقن الكتاب شاب يهودي.

وبعد أن قام بتوفير نفقات طبع الكتاب، غادر إلى فرنسا حيث ترك زوجته هناك ولمدة ٥٠ خمسة أشهر من غير موارد مالية؛ فبقي بجوار زوجته خديجة إلى غاية شهر فيفري ١٩٤٧،

1- Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, pp 262 – 263, et Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 112.

2- Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, pp 271- 273, et Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 117.

حيث عاود الذهاب إلى الجزائر العاصمة، إذ تلقى أولى النسخ من كتابه (الظاهرة القرآنية)، وبعدها عرف الكتاب النور وتعرف آنذاك المثقف الجزائري على طرح غير مسبوق للقرآن الكريم.^(١)

هذا النجاح في صدور الكتاب الأول لمالك بن نبي، كان حصيلة كافة المعاناة التي مر بها، من البحث عن العمل، إلى السفر إلى ألمانيا ثم السجن، وأيضا نتيجة المؤازرة التي حظي بها من طرف صديقه الدكتور خالدي، وجمع من الناس أمثال صالح بن ساعي وشخص يدعى طيار ملياردير، والساسي رابح خياط بسيط، وعباس تركي مفاوض. بالإضافة إلى جمعية العلماء التي أرسلت بمكتوب مفاده أنها ستقدم خمسين ٥٠ ألف فرنك فرنسي، ولكنها في النهاية شاركت بـ ١٠ عشرة آلاف فرنك فقط، ومن تبسة أرسل كل من صادق بوزراع وابن عمه صالح حواس بأربعين ٤٠ ألف فرنك فرنسي.^(٢)

في هذه الأجواء، المواكبة لصدور الكتاب (الظاهرة القرآنية)، تعرف مالك بن نبي على عدد من الشخصيات العامة وأيضا العادية البسيطة مثل مصمم الملابس شعبان، من الجزائر العاصمة، وعمر راسم مؤسس أول جريدة في الجزائر كانت مناهضة للمستعمر، وأيضا الأستاذ مهرداد النائب بالبرلمان آنذاك عن كتلة l'UDMA، وشخص آخر يدعى ميموني الذي

1- Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, pp 271- 273 - 274, et Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 118.

2- Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, pp 273- 274, et Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p p 118 – 129.

إن الطبعة الأولى للكتاب، كان فيها إهداء لكل من والده، وأمه المتوفاة وإلى أولئك الوضعاء وغير المعروفين من أبناء وطنه حتى لا تنسى معاناتهم، وأيضا إلى صديقه وأستاذه محمد بن ساعي، وأيضا إلى السيد جورج مارلان، غير أن هذا الإهداء أسقط فيما بعد في الطبعة العربية، وهذا نص الإهداء كما جاء في الأصل:

«A mon cher père qui a payé de quinze années de souffrance le prix de ma façon de penser.
A la mémoire de ma pauvre mère qui est morte après m'avoir laissé son ultime bénédiction.
Aux humbles de mon pays qui m'ont donné la plus noble leçon en ennoblissant leur souffrance.

A mon cher ami et maître, Mohamed Ben Sai, que je veux affirmer parce que la condition de l'intérêt féroce et de la médiocrité ambitieuse a voulu le nier ... comme d'autres.

A monsieur George Marlin, noble figure de paysan français qui m'a montré que l'homme a ses frères et ses ennemis parmi tous les peuples et toutes les races.», voir: Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 118.

قام بتوزيع الكتاب والإشهار له، وبوشامة الذي أراد أن يجعل من الحدث مناسبة لإقناع بن نبي أن يلتحق بالتوجه الماركسي. ولقد قام بن نبي نفسه بجولة إعلامية لكتابه، بدءاً من وهران ومستغانم، حيث منع منتسبون لحزب PPA – MTLD من نشر الكتاب بالمدينة والأمر نفسه بمدينة تلمسان، غير أن المستوى الفكري لمثقفى هذه المدينة أثار اهتمامه^(١).

ردة الفعل هذه تجاه كتاب مالك بن نبي، توضح حال الحركة الوطنية بالجزائر آنذاك، حيث طغى عليها الانتماء الحزبي أكثر من الوظيفة السياسية التي كان يجب أن يضطلع بها ممثلو الحراك السياسي النخبوي، وإذا به يخدم مقاصد المستعمر الفرنسي من غير تكليف وبأقل التكاليف، بل وينوب عنه في مجال معركة الصراع الفكري الذي كان لمالك بن نبي معه فيما بعد شأن آخر وهو بمصر.

وحتى يطبق الشرك جيداً على هذه السمكة الصغيرة التي تريد الإفلات من شبكة الصياد المترقب لكل خطوة غير عادية، حتى إن كانت أمنية في صدر صاحبها، يتم توقيف مالك بن نبي من طرف مدير شرطة بونة (عنابة) بتاريخ ٢٨ أفريل ١٩٤٧، بحجة أن هناك بحقه مذكرة توقيف منذ شهر سبتمبر ١٩٤٥، والغاية من وراء هذه الحركة تحقيق هدفين اثنين: الأول ثنيه عن السفر إلى مصر، والثاني قتل مؤلف كتاب الظاهرة القرآنية معنوياً وأخلاقياً. ولقد أطلق سراحه بعد ٠٣ ثلاثة أيام، ولكنه سراح مشروط لا يمكنه من مغادرة الجزائر، ودام الحال لمدة ثلاثة أشهر كاملة، وبعدها رفع هذا القرار^(٢). ولكن لم يسمح له بمغادرة الجزائر وإلا ستعرض زوجه في فرنسا للتوقيف أيضاً، إذ هو نوع من الابتزاز، وعليه اختار أن يبقى بالجزائر حتى إشعار آخر. وبقي الأمر هكذا وأثناء نشر في مطلع ١٩٤٨ روايته لبيك والتي تقع في ٩٩ صفحة فقط، عبارة عن رحلة روحية أو نوع من التصوف اعترى مالك بن نبي وهو يعاني الأمرين.

هنا نتوقف عن سرد الجانب التاريخي الشخصي الذي أحاطت ظروفه مؤلف الظاهرة القرآنية، مركزين في انتقاء الأحداث التي حدّدت قيمته على مر الزمن ومصير مؤلفه أيضاً،

1- Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, pp 275- 276, et Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 128.

2- Malek Bennabi: L'écrivain, édition Samar, pp 276- 282, et Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 129.

وخير ما نختم به هذا المبحث هو شهادة سبّحها أحد المثقفين الجزائريين، وهو صديقه المخلص خالدي، الذي صَدَّر كتابه "خطاب في شروط النهضة" بقوله:

"بن نبي ليس كاتباً محترفاً، أو عاملاً في مكتب منصب على أشياء جامدة، أوراق وكلمات، ولكنه إنسان استشعر من خلال حياته الشخصية معنى الإنساني بدلالته المزدوجة الأخلاقية والاجتماعية... إنه ليس بمثقف مغرم بالمجردات، ولا بفنان مأخوذ بأحسن الأشكال. إن ما يجذبه، هو ما يسحره، هو الانفعال الإنساني، الألم، الجوع، الأسى، اللامبالاة"^(١).

٢- العامل التاريخي الموضوعي:

إن الفكر الإسلامي يمر بمرحلة خطيرة، إذ تواجه النهضة الإسلامية ظاهرة فكرية خطيرة، مناهضة للترتات العربي الإسلامي هذه الظاهرة التي لا تغزو، فقط الحياة الاجتماعية للعالم الإسلامي، بل تغزوا الحياة الفكرية الروحية، لتسميم أفكارنا وعاداتنا، ومعتقداتنا الدينية.

إنها ظاهرة الإستشراق orientalisme التي تعرف في قاموس أكسفورد الجديد بأنه "من تبحر في لغات الشرق وآدابه"^(٢)، الإستشراق علم يبحث في علوم العالم الشرقي، وكل ما يتعلق بمعارفه من لغة وأدب، وتاريخ وأثار وفلسفة ولن يأتي الباحث بالتناج السليمة مالم يتقن لغات الشرق.

وقد تعددت الأعمال الإستشراقية بتعدد النوايا والأغراض، فكثرت المؤلفات عن الفكر الإسلامي من مادحة، وقادحة. ونتائج هذه الأعمال لم تقتصر على الأثر المحمود في تطوير

1- Nour-Eddine BOUKROUH: L'islam sans l'islamisme, p 141. Le texte original en français et très touchant que ma version en arabe, si pour ça que je laisse le lecteur admirer le passage. «Bennabi n'est pas un écrivain professionnel, un travailleur de cabinet penché sur des choses inertes, du papiers et des mots, mais un homme qui a senti dans sa propre vie le sens de l'humain avec sa double signification morale et sociale... Il n'est pas un intellectuel épris d'abstractions, ni un esthète grisé par les belles formes. Ce qui l'attire, ce qui le fascine, c'est le frisson humain, la douleur, la faim, les haillons, l'ignorance.»

2- أحمد سميلوفتش، فلسفة الإستشراق أثرها في الأدب العربي المعاصر القاهرة، دار الفكر العربي سنة ١٩٩٨ / ص ٢٢، نقلاً عن آربري، المستشرقون البريطانيون، ترجمة محمد الدسوقي النويهي مطبعة وليم كولنز بلندن / ص ٨.

أفكارنا وثقافتنا بل أثرت تأثيراً سلبياً على الفكر الإسلامي، رغم أن هذه الأعمال لها وقع كبير في المجتمع الإسلامي، وخصوصاً الطبقة المثقفة، ومسلم اليوم يدين في تكوينه المعرفي إلى هؤلاء المستشرقين، يقول مالك: "إن الجيل المسلم الذي أنتسب إليه، يدين إلى هؤلاء المستشرقين الغربيين من خلال الدراسات التي كانت بين يديه لمواجهة مركب النقص الذي اعترى الضمير الإسلامي أمام ظاهرة الحضارة الغربية"^(١). وإذا كانت الدراسات الإستشراقية اتسعت لتكتب عن حياتنا وتراثنا، مع تعدد المقاصد والنوايا.

فما دور الفكر الإسلامي في نقد هذه الأعمال الدخيلة؟ وما مدى فاعلية الردود الإسلامية؟ إهتم الفكر الإسلامي في هذا القرن بالدراسات الإستشراقية فظهر لكثير من الباحثين والمفكرين المسلمين دراسات وكتابات متعددة، فهذه الحركة البسيطة والبطيئة في الوسط العلمي الإسلامي وإن جاءت متأخرة عن موعدها الذي كان يجب أن تظهر فيه إلا أنها تدعو إلى شيء من الأمل في إيقاظ الشعور الإسلامي، وبعث النهضة الفكرية السليمة والرجوع إلى الثقافة الإسلامية الأصيلة المنبعثة من ذاتية الأمة والتحرر من التبعية الفكرية التي أذابت الشخصية المسلمة.

وإذا كانت القضايا التي أثارها الإستشراق تعد أخطر هجوم قام به أصحابه على الأمة الإسلامية، فإن رد الفعل الذي قام به العرب يعد حركة معاكسة تستهدف الدفاع عما هو عربي إسلامي يقول أحمد سمايلوفتش "حتى ليستطيع المرء أن يعتبر ما أنتجوه خلال مواجهتهم لهذا الهجوم أروع ما في أدبهم المعاصر من فكر وفلسفة وعمق وثقافة ومنطق"^(٢).

ويعتبر المفكر الكبير مالك بن نبي حلقة من سلسلة الباحثين والمفكرين المهتمين بقضايا الفكر العربي الإسلامي، وإن كان يعتبر ظاهرة فريدة في الفكر العربي المعاصر فقد تعرف على الفكر العربي الإسلامي عن طريق الإستشراق نفسه كما أنه أحاط بالفكر العربي الإسلامي الحديث إحاطة شاملة، وكرس حياته للدفاع عن هذا الفكر، ولهذا انفرد بأصالة إسلامية نادرة قلما نجدها عند مفكر إسلامي معاصر.

1- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق ط/ ١، سنة ١٩٩١ / ص ١٦٧.

2- أحمد سمايلوفتش، فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب المعاصر / ص ٦٨٤.

مالك بن نبي بعد دراسته لأعمال المستشرقين^(١) يرى أنه لا يجوز نكران قيمته العلمية، بل نراه أحيانا يستحق كل التقدير لما يتسم في بعض أصنافه مثل ما خلفه غوستاف لوبون أو أسين بلاثيوس^(٢) بالإضافة إلى طابعه العلمي، طابع أخلاقي ممتاز لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود نعرف قيمتهم كعلماء ولكن تغفل جانبا أساسيا في الموضوع إذ لم نأخذ في حسابنا أن كل ما ينتجه العقل في هذا القرن العشرين الخاضع لمقاييس الفعالية لا يخلو من بعد عملي قد يستغل في ميدان السياسة والانتفاع حيث تصبح الأفكار، والمعلومات الاستشرافية غثها وسمينها، خطيرها وقليلها، مسخرة لتكون وسائل افتضاض الضمائر والعقول.

فمالك بن نبي يرى أنه يجب علينا أن لا نعتبر إنتاج المستشرقين من زاوية ذاتية أصحابه، من ناحية ميزاتهم الفكرية ونواياهم. بل من زاوية من يستخدم إنتاجهم لغايات خاصة في عالمنا نفسه لا في عالم بعيد ولذلك فيقول "إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع حيث تغلغل أكثر في الحياة الروحية لشباب اليوم"^(٣) فقد أصبحت كتب المستشرقين مراجعهم الثمينة، يتلقون منها عناصر ثقافة تتصل بمعتقداتهم الدينية وبدوافعهم الروحية نفسها، فالدراسات الإسلامية التي تظهر في الغرب بأقلام كبار المستشرقين واقع لا جدال فيه، وقد احتلت مكانة واسعة في الحركة الفكرية الحديثة في البلاد الإسلامية إذ نرى طبعة رسائل الدكتوراه التي يقدمها الطلبة السوريون والمصريون كل عام إلى جامعة باريس وحدها، يصرون وهم أساتذة الثقافة العربية في الغد وباعثو النهضة الإسلامية، يصرون كما أوجبوا على أنفسهم، على ترديد الأفكار التي زكاها أستاذتهم الغربيون وعن هذا الطريق تغلغل الإستشراق في الحياة الروحية والعقلية للبلاد الإسلامية وهذا ما شكل أزمة خطيرة وهذه الأزمة العامة لها مظهر مهم موضوع الدراسة، ويحدد مالك بن نبي هذا المظهر بقوله "ولكن لهذه الأزمة العامة مظهر مهم موضوع دراستنا هذه وأعني به تأثير دراسات المستشرقين على الفكر الديني لدى شبابنا الجامعي الشاب الذي يتجه إلى المصادر الغربية حتى

١- مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي ببيروت، ط١، ١٩٦٩.

٢- مالك بن نبي، القضايا الكبرى / ص ١٦٨.

٣- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية/ ص ٥٤.

فيما يخص معارفه الإسلامية الشخصية سواء أكان هذا الاتجاه ناشئاً عن افتقار مكتبتنا أم لمجرد التجانس والقرابة العقلية^(١).

فمثلاً نجد كتاب الإيديولوجيات العربية في محضر الغرب لصاحبه المراكشي الذي هو أحد تلامذة المستشرقين، كتابه مبني على منطق سفسطائي وصلة متينة بهذا التيار فهم بمثابة آلات مسخرة بين أيدي المختصين في الصراع الفكري حيث يسرون على إثر أساتذتهم الغربيين فيلتقون معهم في انتقاص الفكر من سوابق الفكر الإسلامي، ولكن يمتازون في إحاطة متقلبة بالريية والإبهام بتلك الثثرة التقدمية^(٢)، فمالك بن نبي يرى أن الضمير الإسلامي يبقى في دوامة صراعه الباطن محكوماً أحياناً بما يكتبه المادحون ويثور أحياناً أخرى بما ينتجه المنفذون، وقد استمر هذا الصراع منذ قرن في حلقة مغلقة مستهلكة إحدى الطاقات الفكرية في العالم الإسلامي من دون أي تأثير حقيقي على تطور العقلية الإسلامية، لم ينتج إلا بعض الصواريخ الأدبية الخالية في تلك المؤلفات الجميلة التي لم يبق لها تأثير مثل كتاب روح الإسلام للسيد أمير علي وعلى هذا كله لا غبار عليه لو اقتصر الاستشراق بمناهجه على الموضوع العلمي ولكن الهوى السياسي الذي كشف عن نفسه أحياناً بكل أسف في تأليف هؤلاء المتخصصين الأوروبيين في الدراسات الإسلامية^(٣).

وقد تطرق مالك بن نبي إلى مشكلة تفسير القرآن فعلى أية حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم، كما أنها مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع ومن هنا يمكن أن يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي، بالتالي فإن كانت هذه الأسباب التي قدمناها تدل على ضرورة هذا التعديل؛ فهناك أسباب أخرى تدل على محتواه نعني على صورة المنهج الذي يجب أن نسلكه في مشكلة الإعجاز فما هي الأسباب العائدة إلى المنهج أو بعبارة أخرى ما هي الأسباب التي دفعت مالك بن نبي إلى إتباع هذا المنهج؟

١- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية/ ص ٥٥.

٢- مالك بن نبي القضايا الكبرى / ص ١٨٠.

٣- مالك بن نبي الظاهرة القرآنية/ صص ٥٥-٥٦.

المبحث الثالث

مناهج بن نبي المعرفية

لقد أشرنا سابقا إلى الأسباب التاريخية التي دعت إلى دراسة الظاهرة القرآنية، والتي أثرت في موقف مسلم اليوم من الإسلام بصورة عامة.

ولأن مجدر بنا أن نشير إلى الأسباب الثانية التي رسمت المنهج المتبع في هذه الدراسة نظرا إلى نظرة المسلم المثقف في مشكلة الإعجاز القرآني.

لا يمكن فصل هذه الأسباب عن تاريخ الأديان السماوية بصورة عامة، ولذلك وجب علينا أن نحدد الإعجاز القرآن بالنظر إلى مفهوم الإعجاز في الأديان بعامة، وفي علاقته بالتاريخ وبعنصر الزمن الذي له دخل في القاضية باعتبار أننا نحدد مفهوم الإعجاز في تاريخ الأديان.

فماذا تعني لفظة الإعجاز؟

إن دلالة لفظة الإعجاز في قاموس لسان العرب لابن منصور تعني: الفوت والسبق، يقال أعجزني فلان أي فاتني، ومنه قول الأعشى:

فذاك ولم يعجز الموت ربه ولكن أتاه الموت لا يتأبى

وقال الليث: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه^(١).

ويرى أهل اللغة أن الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها^(٢).

قال ابن عرفة في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (سورة الحج، الآية: ٥١)، أي يعجزون الأنبياء وأولياء الله، أي يقاتلونهم ويمنعونهم ليصيروهم

1- ابن منظور، لسان العرب، مجلد الخامس، دار صادر، بيروت / ص ٣٧٨.

2- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية / ص ٦٠.

إلى العجز عن أمر الله، وليس يعجز الله جل ثناؤه خلق، في السماء ولا في الأرض ولا ملجأ منه إلى إليه^(١).

أما حين نريد تحديد مصطلح الإعجاز القرآني في حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر لحجة الدين، وإدراك المسلم لحجة الإسلام بخاصة، فلا بد من مراجعة القضية في ضوء تاريخ الأديان السماوية، وهذه هي نواحي الثلاث للإعجاز.

أما عن الآيات التي تشير إلى الإعجاز، وتلفت النظر إلى عدم قدرة البشر على إدراكه، فهي كثيرة مثل قوله عز وجل ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٨٨).

ويقول أيضا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة هود، الآية: ١٣-١٤).

وقوله جل شأنه ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٣-٢٤).

إن هذه الآيات الثلاث جاءت إعلانا عن الإعجاز القرآني، الذي هو فوق طاقة البشر، يقول مالك بن نبي (لم يسبقها القرآن لتنشئ الحجة، وإنما جاءت إعلانا هنا وإشهارا لوجودها في سائر القرآن، كيما تؤتي تأثيرها في العقول المتربصة، وتنتج أثرها في القلوب التي لا زالت في أكتتها)^(٢).

إن المهتم بتاريخ وعادات العرب يكتشف لا محالة أن العرب في الجاهلية كانوا أمة بيان ولغة، فقد كانت موهبتهم تنحصر في لسانهم، فنجدهم يبدعون ويتفننون في لغتهم، التي نحتوا منها صورا جمالية فنية لا تقل جمالا عما أبدعه اليونان والفراعنة.

1- ابن منظور، لسان العرب / ص ٣٧٩.

2- مالك بن نبي - الظاهرة القرآنية/ ص ٦٠.

يقول الأستاذ محمود شاكر في مقدمة هذا الكتاب "كان حين أنزل الله القرآن على نبيه (ص) نورا يضيء ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله على بيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط، فقد كانوا عبدة البيان، قبل أن يكونوا عبدة الأوثان، وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم، ولم نسمع قط منهم من استخف ببيانهم"^(١).
هذه صورة الظروف النفسية التي نزل فيها القرآن، فكان الإعجاز يشع في الفؤاد، دون أي عائق، وهذا يوافق ملكة الذوق البياني.

ثم تغيرت الظروف العربية مع اتساع الرقعة الإسلامية، ومع التطورات التاريخية، ومع التيارات الفلسفية التي تسربت إلى هذه الأمة في أواخر عهد بني أمية ٤١-١٣٢ هـ، والعهـد العباسي ١٣٢-٦٥٦ هـ، فصار إدراك جانب الإعجاز في القرآن عن طريق التذوق العلمي أكثر من أن يكون عن طريق الذوق الفطري.

قد أصبح الإعجاز القرآني من اختصاص طائفة قليلة تملك بيدها وسائل التذوق العلمي، نظرا إلى تقدم الزمن، وتغير الظروف الاجتماعية، وهنا صار الإعجاز موضوع دراسة قائم بذاته، فكتب فيه أئمة البيان.

من أمثال الجاحظ في كتابه (نظم البيان) وعبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز. حاليا فقد المسلم ملكة الذوق البياني، وليس بوسعـه أن يتذوق الإعجاز القرآني بوسائل علمية، ومن هذه النقطة، تواجهنا إشكالية الإعجاز في صورته الجديدة، خصوصا بالنسبة للمثقفين ثقافة أجنبية في ظروفهم الثقافية والنفسية الحالية، وهذا ما يفرض علينا إعادة النظر في المشكلة مع مراعاة الظروف الجديدة التي يمر بها مسلم اليوم، مع متطلباته الروحية العقائدية.

وعلى الرغم مما يبدو في هذه القضية من صعوبة، إلا أن مالك يعتقد أن مفتاحها موجود في قوله ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنَّا تَبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (سورة الأحقاف، آية: ٩).

١- المصدر نفسه ص ٦١.

إن الآية تحتوي على معنيين نحدددهما من الزاوية التي تعيننا على الدراسة

أولاً: تحمل إشارة إلى أن تكرار الشيء في ظروف معينة يدل على صحته، أي أن سوابقه في سلسلة معينة تدعم حقيقته بوصفه ظاهرة التي تعني الحدث الذي يتكرر في الظروف نفسها، ومع النتائج نفسها.

ثانياً: تحمل في مدلولها، ربطاً واضحاً بين الرسل والرسالات خلال العصور. يقول حسن أيوب "الرسالة طائفة ممتازة من البشر يختارهم الله تعالى بنفسه، ويضعهم لرسالته، ويربهم بحكمته، ويعصمهم من الزلل والاثم والفواحش حتى يصلحوا للقيادة بعد نزول الرسالة عليهم^(١)."

قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ٣٣).

الرسالة سفراء بين الله تعالى وبين خلقه، يتلقون الوحي والعلم والدين عن الله سبحانه وتعالى على الوجه والكيفية التي يختارها الله تعالى قال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (سورة النساء، الآية: ١٣٦).

إنهم ينفذون دين الله ويطبّقونه بكل دقة لتقتدي بهم أممهم وتسير على نهجهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الأحزاب، الآية: ٢١).

ونستخلص مما سبق أن الدعوة المحمدية ينطبق عليها ما ينطبق على الرسالات السابقة، ولهذا يصح أن ندرس الرسالة المحمدية في ضوء ما سبقها من الرسالات كما يصح أن ندرس هذه الرسالات في ضوء رسالة محمد (ص) على قاعدة أن "حكم العام ينطبق على الخاص قياساً، وحكم الخاص ينطبق على العام استنباطاً"^(٢)

ولا مانع من إعادة النظر في معني الإعجاز في ضوء الآية الكريمة، انطلاقاً من تكرار الحدث في نفس الظروف، مع النتائج نفسها، أي في حدود الظاهرة فالإعجاز هو:

١- حسن أيوب - الأنبياء والرسل - الزيتونية للإعلام والنشر ص ١١.

٢- مالك بن نبي الظاهرة القرآنية/ ص ٦٤.

١ - بالنسبة إلى الرسول (ص): الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها، يقول حسن أيوب (الأنبياء يقومون بمناقشة من أرسلوا إليهم ومجادلتهم لإقناع من يقتنع، وإبطال حجج من يكابر ويعاند، ولإزالة الشبهات والإجابة على جميع التساؤلات المهمة)^(١).

٢ - بالنسبة إلى الدين: وسيلة من وسائل التبليغ.

وهذان المعنيان للإعجاز يضيفان على مفهومه صفات معينة:

أولاً: الإعجاز القرآني فوق مستوى إدراك طاقة الجميع.

ثانياً: الإعجاز لا بد أن يكون في مستوى إدراك الجميع، وإلا فأت فائدته.

ثالثاً: ومن حيث الزمن: أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ من دين إلى آخر من حاجة إليه.

وهذه الصفة الأخيرة تختلف من دين إلى آخر، باختلاف ضرورات التبليغ أو بمعنى أصح معنى الإعجاز له ظروف مختلفة في كل الأديان.

فإذا قسنا رسالة موسى عليه السلام، نرى أن الله اختار لهذا الرسول معجزتي اليد والعصا، وهما الحجة التي يدعم الله بها نبيه، وتتصفان بما يلي^(٢):

(١) ليستا من مستوى العلم الفرعوني، الذي كان من اختصاص أشخاص معدودين يمارسون السحر الذي يدرك عن طريق الحس، لا عن طريق الفكر.

(٢) إن معجزتي اليد والعصا لا تمتان بصلة إلى معاني هذا الدين، فهما مجرد توابع حسية.

(٣) إن هاتين المعجزتين محدودتين بفترة معينة، إذ مفعول اليد والعصا تقتصر فقط على الجيل الذي شاهدها، أو الجيل الذي بلغته تلك الشهادة بالتواتر، أي أن مفعوله لا يكون إلا زمن في محدد.

ويستنتج مالك أن حكمة الله في معجزة نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أنها تتفق مع حقائق نفسية، وحقائق تاريخية وقعت فعلا هي:

١- حسن أيوب، الأنبياء والرسول / ص ١٢.

٢- مالك بن بني الظاهرة القرآنية ص ٦٥.

أولاً: إن القوم الذي يدينون بدين موسى أي اليهود يفقدون لأسباب نفسية، نزعة التبليغ فلا يشعرون بضرورة تبليغ دينهم إلى غيرهم^(١).

ثانياً: إن مشيئة الله قد قدرت أن يأتي عيسى رسولا من بعد موسى^(٢)، وأتى الدين الجديد لينسخ الدين السابق، ذلك أن الرسل يتلقون عن الله تعالى دينه ويبلغونه للناس بأمانة تامة، وليس لهم رأي في الدين إلا في الحدود التي أذن الله لهم فيها، وفي كل مرة ينسخ جانب الإعجاز بزوال الحجة.

أما عن رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن الحجة التي ساق بها نبوته تتمثل في إبراء الأكمة، والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، ونفس الشيء يقال في الإعجاز الذي جاء به النبي الجديد سيزول مع زوال تأثيره، وأتى بعد عيسى رسول جديد ودين جديد يلغيان الدين السابق دين عيسى عليه السلام.

وتأتي رسالة الرسول (ص)، وإرادة الله جعلت هذه الرسالة تتميز بميزة خاصة مختلفة عن الرسائل السابقة، إن حاجة التبليغ ستبقى صفة مستمرة فيه، سواء من الناحية النفسية، أو من الناحية التاريخية، لأن الدين الجديد سيكون آخر الأديان السماوية، فحاجة هذا الدين إلى وسائل التبليغ ستبقى مستمرة، وصفة ملازمة له عبر الأجيال، وهذا ما يجعل وسائله تختلف عن الأديان الأخرى، التي وسائلها مجرد أدوات حسية لا تحمل نزعة التبليغ عبر التاريخ.

وعليه يجب أن يكون الإعجاز صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال وهذا ما يجعل وسائله تختلف عن الأديان الأخرى، التي وسائلها مجرد أدوات حسية لا تحمل نزعة التبليغ عبر التاريخ.

وعليه يجب أن يكون الإعجاز صفته الملازمة له عبر العصور والأجيال، وعلى المسلم الذي أفلتت منه جميع وسائل التذوق القرآني من لغوية وعلمية، أن يتناول الإعجاز في صورة أخرى وبوسائل أخرى.

1- المصدر نفسه / ص ٦٥.

2- المصدر نفسه / ص ٦٦.

إن القضية هنا تتعلق بالتركيب النفسي، إذ أصبح المسلم مضطراً إلى تناول الآية من حيث تركيبها النفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من الناحية البيانية.^(١)

إن هذه الظروف الجديدة تفرض نمط جديد في الدراسة القرآنية وهذه هي الأسباب التي دعت إلى تطبيق الدراسة التحليلية من أجل الإدراك الشخصي للقرآن.

المنهج الموظف في الظاهرة القرآنية:

إن دراسة الحقل الديني والبرهنة عليه يتطلب وسائل، وأدوات منهجية، تكون نابعة من ذاتية الأمة، وملائمة لاحتياجات العصر، خصوصاً في العصر الحديث الذي أصابه الجفاف الروحاني.

فكيف تعامل مالك بن نبي مع ظاهرة بهذا المستوى من التعقيد؟ وما هي وسائله لمحاربة الشك الذي يحوم حول صحة الظاهرة القرآنية؟

إيجاد منهج عملي إسلامي، يقف في وجه الأعمال الإستشراقية ويرد على تحديات العصر كان أحد الاهتمامات الرئيسية، التي شغلت فكر مالك بن نبي، باعتباره شخصية إسلامية، استجابت للتحديات الزمكانية التي يواجهها عصره.

بناء على تجربته وعلى دراسته وعلى مرجعيته المتعددة من مذاهب ونظريات علمية، وظف مالك بن نبي في دراسته للظاهرة القرآنية عدة مناهج ستتطرق إليها بالتفصيل.

المنهج الموضوعي:

إن القرآن الكريم ظاهرة تتمتع بجميع الخصائص الموضوعية، فهو مادة فريدة من نوعها جديرة بالملاحظة والبحث، يتميز بنظام عجيب قابل للتمحيص والدراسة وبموضوع واسع ورحب، يمكن دراسته دراسة جزئية متأنية، وبطابع ملفت للنظر وخارق للعادة.

وهذه الظاهرة حمالة أوجه ويمكن أن ندرسها من الزاوية التقنية الاجتماعية الحضارية، الثقافية، ولكن بأدوات جديدة ومختلفة عن الأدوات السابقة.

1- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية / ص ٦٧.

ولها تأثير قوي، إذ كثيرا ما نجدها تتسرب في القلوب الإنسانية لتحدث اختراقا في القلوب الصماء، فتشعّ فيها نورا بعد ظلمة شديدة لتستنهض روحها وفكرها.

يقول مالك (و هو يتقصّى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس)^(١).

إن القرآن ظاهرة موضوعية مستقلة، أما خصائصها الظاهرة القابلة للدراسة والتمحيص، فهي ظاهرة دقيقة جذورها ضاربة في كل جوانب الحياة.

ويقول مالك (فهو يبدأ حديثه من ذرة الوجود المستودعة في باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحار إلى النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم)^(٢).

وقد امتاز القرآن الكريم بميزة فريدة من نوعها، هي أنه تنقل منذ أربعة عشر قرنا دون أن يتعرض للتحريف، ودون أن يفقد حيويته وفعاليته، وهذا ما لا نجده في الكتب السماوية الأخرى.



وهذه الخصائص العلمية: سيحاول مالك دراستها دراسة نفسية مستفيضة، ليكمل الجانب العلمي بالجانب النفسي.

1- المصدر نفسه/ ص ١٩٥.

2- المصدر نفسه/ ص ١٩٥.

المنهج النفسي:

لا يمكن لدارس هذه الظاهرة القرآنية الاستغناء عن معرفة الذات المحمدية معرفة صحيحة تقتضي منا تحليل الخصائص المرتبطة بها، باعتبار أن النبي شاهد موضوعي على الظاهرة القرآنية.

والأمر كما يرى مالك ينظر إليه من وجهة نظر نفسية، لهذا شكّل صورة نفسية لهذه الذات من دون أن يلتفت إلى التفاصيل التاريخية إلا بقدر ما يعنيه في بحثه.

لقد بحث مالك بن نبي في شخصية الرسول باعتباره الشاهد الوحيد على الظاهرة، واقتناعه الشخصي يمثل دليلاً على صحة الظاهرة الدينية.

وتبرهن الوثائق على أن المشكلة الغيبية لم تساور ضميره أبداً، فأى اهتمام شخصي منه كان خارج الدعوة، وخارج المشكلة الميتافيزيقية.

إلى أن يبلغ سن الأربعين، وهنا تتغير حياته، من دون أن يتدخل، وتحدثنا كتب السيرة النبوية حيث يكون كعادته منشغلاً في تأملاته في غار حراء، فيرى بوضوح أمام عينه رجلاً متشحاً بلباسه الأبيض، مخاطبه قائلاً:

- إقرأ.

- فيجيبه النبي: ما أنا بقارئ، لقد لفظها وهو يحاول الابتعاد عنه والهرب منه من ذلك الذي يأخذه فيغطه حتى يبلغ منه الجهد قائلاً: إقرأ... فيجيب مرة أخرى.

- ما أنا بقارئ.

فتكرر للمرة الثالثة الظاهرة الروحانية التي تلزم النبي.

- اقرأ... ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق، الآيات: ١-٥)^(١)

ومن هذه اللحظة، أصبح لدى هذا الحنفي البسيط شعوراً بأن كتاباً قد طبع في قلبه ولكن من دون أن يتصفح أو يقرأه، كما يشاء إذ أنه أمر قاصر نازل من عند الخالق، لهذا فهو لن

1- المصدر نفسه/ صص ١٢٢-١٢٣.

يتصرف فيه كما يشاء، يقول حسن أيوب: (و النبوة والرسالة لا يمكن لأحد أن يكتسب إحداهما عن طريق المجاهدة والرياضة والتقوى وغيرهما، لأنهما منحة من الله تعالى يختص بهما من يشاء من عباده ويتفضل بهما على من يختاره من خلقه، فهما إذن من شأن الله وحده لا دخل للخلق فيهما بأي وجه من الوجوه).^(١)

قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٢٤).

ومفيد جدا أن نشير ولو إشارة طفيفة لأن المقام لا يتسع، إلى حالة النفسية التي أصابت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويمكن تسجيلها في حالتين نفسيتين لازمتين بصفة خاصة لدراسة الظاهرة القرآنية.

الحالة النفسية الأولى^(٢)؛

وهي فترة تتعلق بالوحي، حيث كان جهد النبي وعناءه في مناقشة حالته الفريدة، غير مطبوع بأمل القيام بدعوة. وهذا الجهد يؤكد بصورة قاطعة استقلال الظاهرة القرآنية عن الذات المحمدية.

الحالة النفسية الثانية^(٣)؛

في هذه المرحلة نجد النبي بوجه إرادته لفهم ما يجري حوله لكن دون جدوى، إلى أن يهمس له الوحي مرة أخرى حينها يدرك أهمية الأمر.

ويفترض مالك أن هذه الحالة النفسية التي عرفها النبي، لو كان مصدرها اللا شعور لما تأخرت لزمان طويل. والتفاصيل النفسية تبرز تماما عزمه النهائي على قبول هذا التكليف غير المتوقع إذ أنه يقبلها ولن يتخلى عنها أبدا، وتؤكد لنا المصادر التاريخية مدى الصعوبات التي واجهت النبي أثناء دعوته من قبل أهل مكة.

1- حسن أيوب، الأنبياء والرسول، / ص ٩٠.

2- نفسه، صص ١١٩-١٢٣.

3- نفسه، صص ١٢٤-١٢٨.

هذه باختصار شديد صورة نفسية للذات المحمدية في المرحلة المكّية، أما عن المرحلة المدنية، فنجد شخصية القائد والنبى تجتمعان في ذات واحدة، حيث نجده يتخذ القرارات السياسية، ويعد الخطط العسكرية، ويمضي قراراته من وجهة نظر دعوته بعيدا جدا عن الطابع الروحاني السماوي.

وقد كان النبى (ص) يلتزم دائما في سلوكه الشخصي الحقيقة المنزلة؛ فهو يمضي جزءا كبيرا من الليل في التعبد، ولكنه لا يلزم أتباعه ذلك.

ومع كونه قائدا في نفس الوقت، كان في منزلة واحدة مع الصحابة المحاربين، حتى إن سلوكه الشخصي كان يدل على أنه مجرد جهد إنساني، وفي سائر المناسبات كان النبى يشجع ويعلم صحابته؛ فلقد كان يهتم بأن يبعد عن عقولهم فكرة المعجزة الدارجة التي تخاطب الجوارح، ففي يوم دفن ولده الوحيد إبراهيم حدث كسوف كلي، وفسّر بعض الناس الظلمات بأنها آية على مشاركة الطبيعة للنبي في حزنه، ولكنه صحّح خطأ صحابته قائلا: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته".

ومن هذا التفصيل التاريخي، يثبت لنا إخلاص النبى المطلق، واقتناعه الشخصي لم يكن قائما على شبه معجزة.

يقول بن نبى: (و على كل حال؛ ففي ضوء وثيقة نفسية كهذه، لا يمكن أن نعدّ هذا الاقتناع نتيجة استعداد عقلي غير سليم، واتجاه منحرف لتفسير بعض الأحداث العارضة داخل الذات، أو الخارجة عنها بأنها آية علوية، إذ أن محمد ذو فكر موضوعي، لا يميل إلى تأييد دعوته بغير معجزته الوحيدة القرآن)^(١)

ب- المنهج العلمي:

إن القرآن الكريم ظاهرة تتمتع بجملة من الخصائص العلمية سبقت الإشارة إليها آنفا. وهو موضوع واسع رحب فريد من نوعه، يحوي في دقاته أسراراً وغرائب كانت تجهلها الإنسانية من قبل، وما تزال تجهل منها الكثير لحد الآن.

1- نفسه، ص ١٤٠.

ولكن رغم القيمة العلمية للقرآن الكريم، إلا أنه لا يمكن اعتباره كتاب علم نبحت فيه عن المعارف العلمية، حتى التي لم يتم اكتشافها بعد، فلا يمكننا أن نبحت فيه عن النظريات والقوانين.

وقد سقطت مزاعم الذين يعدون القرآن مجلدا ضخما يحوي على كم هائل من المعلومات المعدة للتطبيق، وفي هذا يقول مالك (ونحن هنا نجد أنفسنا ملزمين باعتراف هو اعتراف مثقف أقبل على القرآن بطوية فطرية، كيما يكتشف فيه كومة من المعلومات المحددة، كأنه يطلع على أحد المجلدات الفنية)^(١).

ومع أن مالك بن نبي لا يعد القرآن كتاب علم، إلا أن هناك آيات تحتوي على لمسة علمية خالصة، لكن إذا تذوقنا القرآن الكريم لفظا ومعنى، ينبغي أن نشير إلى أن المنهج الموضوعي ليس من أجل إثبات اللمسة العلمية، وإنما من أجل الإيمان؛ فنحن نتبع المنهج السالف ليس لنبحث فيه عن قانون علمي، وإنما من أجل الإيمان والتسليم بعلوية الظاهرة القرآنية، وقدرتها على إنشاء مجتمع حضاري.

ومن أجل تبيان استقلالها عن الذات المحمدية، ف شخصية محمد (ص) رغم نبوتها، إلا أنها ذات لا يمكن لها أن تسوق لنا المشكلة الدينية والغيبية، وليس باستطاعتها أن تحدثنا عن الأمور العلمية التي لم يتم اكتشافها إلا في العصر الحديث؛ فأراء البشر قاصرة عن إدراك عالم الغيب، وهي معرضة للتخطئة والخلاف ولا يمكنها أن تنظم الكون، وأن تربط بين الخالق والمخلوق برباط الإيمان.

ومفيد جدا دراسة بعض نماذج من الآيات التي تحتوي على حقائق علمية انصفت من طرف الكشف العلمي منذ قرون، من أجل البرهنة بها على الصحة اليقينية للظاهرة القرآنية واستقلالها عن الذات المحمدية، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (سورة الأنبياء، الآية: ٤٤).

لم يكن الإنسان القديم يملك أي تصور عن شكل الكرة الأرضية، ما عدا الأفكار الأفلاطونية الغارقة في عالم التخمين، والأفكار البطلمية (نسبة إلى بطليموس) والتي تذهب

1- نفسه، ص ٢٨٢.

إلى القول بكروية الأرض وتذهب أيضا إلى أنها ساكنة في مركز الفضاء، وهذه مجرد أفكار تخمينية لا ترقى إلى مستوى العلم.

أما القرآن الكريم، ورغم أننا سلمنا بأنه ليس كتاب علم إلا أننا نجد فيه أن الآية توحى لنا بالشكل الهندسي البيضاوي للأرض. وهذا التحديد العلمي يساير المعلومات المتوفرة عن دحو القطبين، وهذا التوافق في هندسة الكرة الأرضية يتفق مع الحقيقة العلمية.

ويصف لنا القرآن حركة الأرض قبل ثمانية قرون من حديث العلم عنها؛ فيقول: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (سورة النمل، الآية: ٨٨).

توحى الآية بفكرة عن حركة الأرض، وعن محور حركة الأرض، وبالتالي بفكرة القطبين، والقطبان قد عينهما لفظ (أطراف).

كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الذريات، الآية: ٤٩).

ولقد ثبت الآن علميا أن لكل شيء في الوجود زوجا، قد أثبتت هذه الحقيقة بدرجة مدهشة في كل شيء لدرجة أن العالم قال بوجود عالم آخر زوج لعالمنا هذا، وذلك العالم الآخر حسب رأي العلماء يتمتع بخواص لا يتمتع بها عالمنا هذا مثل الأبدية، فإن الاكتشاف الجديد (مبدأ الزوجية) يصدق القرآن الكريم الذي قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (سورة الرعد، الآية: ٣).

والقرآن يلفت أنظارنا دائما إلى ظواهر الطبيعة بعيدا عن التفسيرات العلمية يقول تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (سورة يس، الآية: ٤٠).

إن الآية تتفق مع الفكرة العلمية عن الليل من حيث كونه ظاهرة طبيعية أعقبت البرودة التدريجية للأرض، إذ الواقع أنه طالما كانت الأرض كتلة ملتهبة، فإنها لم تكن تعرف الليل، فكانت في نهار طبيعي^(١).

١- بن نبي: المرجع السابق، صص ٢٦٨-٢٧٥.

ورد في القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٢٥).

منذ اكتشاف الطبقات العليا بفضل الطيران والبالونات استطعنا أن ندرك ظاهرة عضوية تنتج عن تمدد الهواء إذ يشعر الصاعد في العلو ببعض الصعوبة في التنفس. وقد انتبه هواة تسلق الجبال إلى هذه الظاهرة، ولقد اقتبست الظاهرة القرآنية من هذه الظاهرة الجوية.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ (سورة يونس، الآية: ٦١).

إن القرآن يقرر بوجود أصغر من الذرة (وهو المتناهي في الصغر)، وهو أمر كان إنسان القرن السادس الميلادي يجهله إلا أن الكشوف العلمية الحديثة قد أثبتت صدق هذه النظرية.

ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (سورة الأنبياء، الآية: ٣٠).

إن الماء هو نقطة البدء في الدورة البيولوجية في النظرية والقرآن يحدد أطوار الخلق ابتداء من الماء.

وقد لفت انتباه بعض المفسرين المحدثين الآية الآتية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّمَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة النور، الآية: ٣٥).

بعيدا عن العملية الصوفية، سنبحث في الآية من الوجهة العلمية لندرك إعجازها العلمي. إن الآية تحوي على لمسة علمية خارقة للعادة -بحسب تعبير بن نبي-، ولو استعملنا مصطلحات الصناعة العصرية واستبدلناها بمفردات الآية، يصبح لدينا:

مشكاة = عاكس

مصباح = سلك

زجاجة = أنبوبة

يتضح لنا أن الإشارة مبكرة لحقيقة علمية؛ فالآية تشير إلى الإضاءة من دون استعمال نار^(١).

ليصل بن نبي إلى التركيب الآتي: (ولو لم تمسسه نار)، يضيء النور من عاكس فيه سلك في أنبوبة، (يوقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية)^(٢).

ما يمكن استخلاصه أن القرآن الكريم ليس كتاب علم، وليس كتابا في وصف الكون، رغم ورود العديد من الآيات التي تحتوي على سلسلة علمية من الوصف الجغرافي والفلكي لمختلف مظاهر الطبيعة والكون والإنسان.

والقرآن الكريم لا يسلك منهجا علميا في تبيان الحقائق العلمية؛ فهو كتاب سماوي منزله خصوصية القدسية.

ولا نجد في القرآن كومة من المعارف الجاهزة، ما على الإنسان إلا استخراجها، إنما نجده يضع معالم بسيطة - (علامات، إشارات، تنبيهات) - أمام العقل الإنساني؛ فيحثه دائما على التأمل والتدبر في معانيه من أجل كشف الخفي منه.

وقد أثبتت الاكتشافات العلمية توافقا كبيرا بين العلم والقرآن الكريم، مما ينفي عنه جميع التهم الموجهة إليه من طرف أنصار المذهب المادي في نشأة الكون والحياة.

فهو ظاهرة - أي القرآن - أثبتت صدقها في جو العلم وفي جو الاكتشافات على مر قرون عديدة، لذلك نستطيع أن نقول عن أنه حدث موضوعي حقيقي يشهد له التاريخ بذلك.

وهذه اللمسة العلمية للقرآن تدل على براءة الرسول (ص) وانفصاله المطلق عن الحدث القرآني.

فالأفكار القرآنية بما فيها من خوارق ومعجزات أثبتتها العلم ليست من نسق تفكيره، وليست نتاج تجربته وليست منبعثة من محيطه الصحراوي.

والمعرفة جزء من الذات، ويحدد طبيعتها الفكر الذي صاغها؛ فلا يمكن لشخص أمي لا يعرف من الزهد سوى اليسير أن يضع فجأة معالم الفكر العلمي.

1- نفسه، صص ٢٧٥-٢٧٧.

2- نفسه، ص ٢٧٧.

والآيات السابق ذكرها، إشارة مبكرة للعديد من الظواهر العلمية التي لم يتم اكتشافها إلا مؤخراً، وهذا ما يدل على أن النبي (ذات) لا علاقة لها بالقرآن الكريم وما يحويه.

المنهج الاجتماعي:

إن الإنتاج الذهني لا يأتي من الفراغ، بل يكون مبنياً بصورة واعية على تصورات ومسلمات، وهذه التصورات والرؤى لها دور مهم في تنمية إنتاجه الفكري.

ومالك بن نبي لم ينطلق من الفراغ في قضية التأكيد على الدور الرئيسي للدين، ودخول الدين في الجدلية النفسية والاجتماعية في ذات الفرد، والوسط الاجتماعي.

وقد كان لكل من ابن خلدون^(١)، شبنجلر^(٢)، وتوينبي^(٣)، وسوروكين^(٤)، تأثير على تفكير مالك بن نبي في تفسيره للتغير الاجتماعي والحضاري^(٥).

وقد انطلقوا في تحليلاتهم من مختلف الثقافات الحضارية، وبخاصة الحضارة الغربية مثل حضارات اليونان، الرومان والثقافة الغربية، وبنوا تحليلاتهم على حتمية التغير في المجتمع، فالتغير سنة في الحياة.

فكيف تجسد التنظيم الاجتماعي في فكر مالك بن نبي؟

يفرق مالك بن نبي بين نوعين من المجتمع، مجتمع ما قبل الحضارة، ومجتمع الحضارة. الأول مجتمع بدائي لا يمارس وظيفته التاريخية، والثاني يعرف التغير المستمر من أجل الدخول في نطاق الحضارة.

انطلق مالك بن نبي في مشروعه الحضاري، من فرضية الدين ضرورة اجتماعية مهمة في بناء شبكة اجتماعية وفي صناعة الحضارة^(٦).

1- ابن خلدون:

2- شبنجلر:

3- توينبي:

4- سوروكين:

5- الدكتور نورة خالد السعد، التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ص ٧٨..

6- مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ٨٠.

ويرى مالك أن الحضارات بصفاتها هدفا لأي تغيير اجتماعي تعتمد على الدين بوصفه عاملا أساسيا في تركيبها وإقامتها، ولهذا فإنه يخطئ المذاهب المادية التي تجعل الدين عارضا في تاريخ الثقافة الإنسانية.

الوظيفة الاجتماعية للدين تتحقق في شكل تركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمر إلى النفس الإنسانية، لهذا التغير الاجتماعي بالضرورة من صنع الأشخاص، والأفكار والأشياء جميعا. ويرى مالك أن الطريق لمعرفة الأساس القوي للتغير الاجتماعي يجب أن يكون باستقراء الوقائع التاريخية الماضية، والذي يدلنا على أن الفكرة الدينية كانت هي الأساس والمحرك الفاعل لأي حركة تغييرية اجتماعية وحضارية.

ويفرق مالك بن نبي بين التغير الاجتماعي والتغير الاجتماعي فالتغير الاجتماعي ظاهرة، يتدخل الإنسان فيها، أما التغير الاجتماعي فهو ظاهرة تلقائية تسير بحسب القانون وتشمل التغير نحو الأسوأ أو الأفضل.

وما يمكن ملاحظته أن مالك استعمل الكثير من المصطلحات والأدوات الاجتماعية التي تساعده على وصف الظاهرة الاجتماعية فلا يمكن أن يطلق مجرد مفاهيم عامة، ولم يتبع في تعريفاته الطابع الفلسفي، بل كان يربطها بالوظيفة الاجتماعية لكل مفهوم، ذلك أنه يرى أن العلوم الإنسانية لم تبلغ بعد درجة تحديد مصطلحاتها.

وتميزت نظريته بتأكيده على الدور الرئيسي للدين ودخوله في الجدلية النفسية الاجتماعية بين الفرد والمجتمع في الدورة الحضارية.

لقد استخدم مالك بن نبي مفاهيم التحليل الاجتماعي، بصفاتها أدوات معرفية يستعين بها من أجل إيجاد القانون العام الذي يحكم الظواهر الاجتماعية، وهي بمثابة حلول قابلة للتطبيق لتغير ظاهرة التخلف الحضاري، ولتغيير الواقع الاجتماعي المتخلف.

المنهج العقلاني؛

إن المنهج العقلاني منهج يوظف المنطق، ينطلق من المبادئ الصحيحة للوصول إلى النتائج الصحيحة، بعيدا عن التخمين الغيبي، فهو منهج واقعي يتناول الوقائع في حقيقتها وفي ذاتها ليخرج بالسنن والقوانين.

وتجرد فيه مالك من ذاتيته وشخصيته لينقد مناهج الأوائل ويتطلع إلى منهج موضوعي يتقبله العقل، بعيدا عن التلقّي السلبي. إن المعيار المنطقي العقلي من أجل إثبات أن الوحي الذي نزل على الرسول (ص) ظاهرة يتقبلها العقل قائمة على الإعجاز العقلي، لا على الإعجاز الحسي بالأدلة والبراهين القطعية ولعل اقتناع الرسول (ص) باستقلاله عن الوحي لدليل قاطع.

لقد وُصف مالك بن نبي منهجا عقلانيا، منهج يدعو إلى إعمال النظر والتحليل المنهجي، لا التفكير الغيبي الذي هو معرفة قائمة على مجرد الحدس^(١).

وشغل مالك نفسه بالبحث عن المصدر الحقيقي للقرآن، وإثبات أن الرسول محمد (ص) شخصية بشرية منفصلة عن ظاهرة القرآن وظاهرة الوحي، بأسس ثابتة وعقلية يدين فيها كل أنواع إتباع أعمى لا يستند إلى سلطة العقل.

لقد جعل مالك اهتمامه منصبا على سلطة العقل، والجهد الجاد المستقل والمتحرر من كل إدراك سابق، فوظف كما سبق أن أشرنا الفلسفة الديكارتية التي تطالب بحق العقل في تفسير الظواهر.

انصرف مالك إلى البرهنة بمبدأ عقلي على أن القرآن ظاهرة خارقة أدت إلى إحداث تغييرات كبرى في الحياة الإسلامية. ويمكن تجاوز الذاتية في دراسة الوحي؛ فهو أيضا يحمل صفات ظاهرية وله أعراض ظاهرية يمكن البرهنة عليها، والرسول (ص) شاهد موضوعي على ظاهرة الوحي^(٢).

ويرى مالك بن نبي أن ما يعيد الحياة إلى عالم الأفكار الإسلامي هو المنهج العقلي السليم، القادر على تقصي الوقائع بطريقة منهجية أكثر دقة بعيدا عن الذاتية والإرث القديم.

المنهج النقلي:

رغم التأثير بالوسط الغربي، والانفتاح على الدراسات الغربية، إلا أن موقف مالك بن نبي كان دائما موقف المؤمن المفكر، المتمسك بعقيدته وبدينه.

1- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، مقدمة عبد الله دراز، صص ١١-١٣

2- مالك بن نبي، المرجع السابق، صص ٦٩-٧٠ و صص ١٤٤-١٥٣.

لقد جعل القرآن الكريم محور مسيرته الفكرية، وأية نهضة لا تتم خارج الشرط القرآني، فهو حين يتحدث عن دور الدين في الرباط الثقافي ونسيج الشبكة الاجتماعية لا يرى عامل ذلك خارجا عن الإسلام.

وترسخت العلاقة بين مالك بن نبي والقرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي، منذ طفولته، حيث حرص والده عند إلحاقه بالمدرسة الفرنسية على أن يظل مرتبطا بالمدرسة القرآنية، فكان يقضي فيها بين ساعة وساعتين، ليكون في الساعة الثامنة بالمدرسة الفرنسية.^(١) وأشاد غير واحد بحرارة الإيمان، والاعتماد والتمسك الشديد بالقرآن الكريم وبراعته في إبراز الحقيقة القرآنية وتلمس الاستعداد الروحي القوي، وتسخير كل إمكانياته في موضوع تيهان الشباب وبعده عن الدين والمبدأ القرآني.

إن مالك بن نبي نبته إسلامية نشأت وترعرعت في بيئة إسلامية محافظة، وقد كان خلال مسيرته يتفتح على كل ما يعلي فيه تلك الروح الدينية، ليلمس عناصر القوة في هذا الدين، في نفس الوقت كان ينفتح على الحضارات الغربية، تفتحا واعيا، قادرا على التمييز ما بين ما يعرض في الواجهات، وما هو مبطن فيها.

يقول عبد السلام الهراس (إن مالك بن نبي مفكر كان ينهل ويكرع من منابع الوحي القرآني، ومن حياض السنة النبوية، ومن الآثار الصافية لتراثنا الإسلامي، فهو مفكر مؤمن مسلم لا يحيد عن الإسلام قيد أنملة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، إلا ما قد يند عنه، ولا ينتبه إليه أو لا ينبه عليه، وحريص على رضى ربه)^(٢).

وهذا يحقق قاعدة أن بناء الإنسان سابق على تحقيق أي مشروع تغييري، من حيث التطبيق لا من حيث الوجود، ولذا وضع كتابه الثاني سنة ١٩٤٧ (خطاب في شروط النهضة).

والذي يعد من زاوية نظر مخصصة اختزال لتجربة مالك بن نبي في طفولته وفي شبابه، إذ نجده يركز على الإنسان منذ طفولته وهو في المحضن الأول له وهو (الأسرة)؛ فهو في الباب

١- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ص ٢٤.

٢- عبد السلام الهراس: أثر الدين في فكر مالك بن نبي، مجلة العصر، ص ٢١.

الأول يقوم بنقد الوضع الراهن ليهدمه على مستوى المقولات النظرية المؤسسة وعلى مستوى الممارسة، من أجل تهيئة المحيط الإجتماعي لتقبل الأفكار الجديدة وبذلك يحقق قاعدة القطيعة التاريخية والقطيعة المعرفية مع الجيل السابق الذي فقد مبررات وجوده لأنه فقد وظيفته الرسالية منذ زمن بعيد، وهذا كله في خيط هندسي منطقي ينطلق من الإنسان أولاً ثم عالم الفكرة ثم عالم الأشياء، وهنا يشحن رؤيته التغييرية بتلك المؤثرات التربوية الوراثة والمكتسبة من خلال انفتاحه على الحضارة الغربية بانتقاله إلى باريس وزواجه من فرنسية أسلمت فيما بعد وهي زوجه (خديجة)، وفي هذا دلالة واضحة على الفكرة التي كانت تتملك كيانه رحمه الله، ولذا جعل من شروط تحقيق النهضة بتركيز الضوء على عوامل الثقافة من خلال التربية الأخلاقية والجمالية والعملية، وهذا مع مراعاة شروط العملية التغييرية ووفق آلياتها الأساسية ألا وهي (الإنسان) و(التراب) و(الوقت).

وفي كل مرة نجد أن الإنسان المستقبلي الذي يطمح إليه مالك بن نبي ليحقق مشروع التغيير الحضاري، هو تلك الرؤية الحاملة ذات ليلة من ليالي صيف مدينته تبسة، وهو بعد يداعب تلك الخيالات والرؤى التي كانت تعلق بأهداب عينيه وهو يدافع كرى زمن أقص مضجعه، وجعله يطرح دوما سؤاله المقلق والمتوتر ألا وهو: ما العمل؟

وهذا الذي أوصله فيما بعد في كتابه ميلاد مجتمع، ليكتشف ما أطلق عليه (الدافعية) أو (الفاعلية) التي لا بد من توفرها في الإنسان حتى تكون أفعاله إيجابية ومثمرة، ولكن هذه الفاعلية لا تتأتى من الفراغ بل تستمد نسغها من المحيط الثقافي والإجتماعي الذي ينتمي إليهما الفرد، وهذا وفق شبكة العلاقات الإجتماعية المكونة للنسيج الإجتماعي، وعليه اكتشف قانون نوع المجتمع التاريخي والمجتمع الطبيعي، وأيضا مفهوم الثروة الإجتماعية والقيمة الخلقية، ودور العامل الديني في تكوين شبكة العلاقات الإجتماعية وفق نظرية المعدل الضروري للطاقة الحيوية للفرد، ثم فكرة التربية الإجتماعية وعامل المؤثرات النفسية ودور الجغرافيا أيضا.

وبعدها يصدر كتابه (Vocation de l'Islam) وجهة العالم الإسلامي، في سنة ١٩٥٤، يناقش من خلاله أطروحة التغيير وهشاشة النموذج النهضوي والإصلاحية المتواجدة آنذاك، والكتاب عبارة عن إعادة تقييم لواقع الحركة الإصلاحية ليس فقط في الجزائر بل في

العالم العربي والإسلامي أجمعه، ورأى أن من معوقات نجاح الأفكار الإصلاحية آنذاك أنها انقسمت على نفسها إلى طرفين متنازعين أحدهما نادى بالرجوع إلى الإسلام عقيدة وشريعة وأن الحل يكمن في العودة إلى الإسلام، ورفض كل معطيات الحضارة الغربية على أساس أن هذا الغرب يمثل الآخر الغازي لديار الإسلام وهذا وفق منظور فقهي ضيق يقسم العالم إلى (دار سلم) و(دار حرب) أو (دار الإسلام) و(دار كفر)، بسبب ما عانتها البلاد الإسلامية آنذاك من ويلات الاستعمار الأوروبي الحديث، وطرف ذا نزعة عروبية قومية متحررة تنادي بالانقضاء على ما تبقى من الدولة العثمانية ذلك الرجل المريض الذي تتسابق الدول الاستعمارية الكبرى على اقتسام ما تبقى من إمبراطوريته، على أساس أن الدولة العثمانية هي التي كرسست حالة التخلف في الأمة العربية وأنها قوة مستعمرة باسم الإسلام وأنها مارست الاستبداد والقمع؛ فنحن منذ بدايات القرن الماضي أمام مشروعين تغييريين نهضويين، لم يلتقيا حول نقاط اشتراك بل قاما على أساس نقاط تباعد وفكر إقصائي كل طرف للآخر، ومن غير إقامة حوار صريح ومسئول، وكانت النتيجة أن باءت الجهود النهضوية والإصلاحية بالفشل، بل يرى مالك بن نبي أنها خدمت المشروع الاستعماري وذلك بتكريس حالة الشتات أو التشتت في جسد الأمة وفق رغبات السياسة الاستعمارية، إضافة إلى كل ذلك أن تلك المشاريع التغييرية لم تقم على أسس رؤية علمية واضحة تتناول الظاهرة من كافة جوانبها.

والشق الثاني من هذا الكتاب حاول فيه أيضا أن يقدم كشف حساب لما آلت إليه الحضارة الغربية بحكم منطق الثورة والفكر الصناعي وما جنته هذه المدنية الغربية على الإنسانية، حيث رأى بأنها جسد من غير روح، يحتاج إلى هداية، وبذا تكتمل صورة المشروع التغييرى النبأى؛ فهو يولي (الإنسان) العناية الأولى لأنه هو المعامل الأساس والذي من دونه لن يتحقق نجاح أي مشروع حضارى إنسانى.

أما كتابه والمعنون بـ(فكرة مؤتمر الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ) الصادر سنة ١٩٥٦؛ فهو بهذا الكتاب يقدم أطروحة تتجاوز واقع العالم العربي كي تشمل ليس فقط واقع العالم الإسلامي بل الواقع الإنساني برمته، حيث يطرح فكرة التعايش أو الوجود المشترك وفكرة العالمية، إذ حدس بفكره المتقد أن العالم يتجه إلى احتدام الصراع

بين عالين مختلفين ثقافيا وعقائديا، وبذلك لم يلتقيا حول نقاط مشتركة، بل العلاقة بينها ستكون مرتكزة على أساس مفهوم الصراع بسبب حالة الإستعمار التي كانت تعيشها معظم الشعوب غير الأوروبية، وفق مفاهيم الهيمنة ومركزية الرؤية الغربية حول ذاتها، وفي آن معا أدرك أن العالم يتجه نحو عالمية تفرض نفسها يوما بعد يوم، ولا نستطيع أن نرفضها كلها لأننا نعيش وفق معطياتها يوميا؛ فرأى أن الحل يكمن في تأسيس رؤية مستقبلية تعترف بالآخر من كل طرف من دون إقصاء، بهذا تتحقق العالمية المرجوة بل هي عالمية إنسان مالك بن نبي.

وفي عام ١٩٥٩ يقدم مالك بن نبي رؤيته حول الإنسان البشري ولكن وفق شروط ومعطيات ذلك الزمن في شكل كتاب يحمل عنوان (فكرة كمنويلث إسلامي)، وهذا يدل على وعي استراتيجي مبكر كان حينذاك وربما ما زال إلى يومنا لم يتحقق وعي عربي أو إسلامي مماثل له، إذ رأى أن الفكر الغربي الأوروبي دائما يحقق مشاريعه الاستعمارية التوسعية وفق مفاهيم الهيمنة الإستعمارية، في حين الواقع الإسلامي يعيش حالة من الضعف سواء على مستوى الحياة الاجتماعية النفسية أم على مستوى الحياة العقلية والفكرية؛ فأكد على ضرورة إعادة النظر في ما هو متوفر على هذه الأصعدة وصياغتها من جديد وما ينتظر من مهام ووظائف والتي لخصها في (الشهادة) و(الرسالة)...

وفي أواخر ستينيات القرن الفارط يتوج مالك بن نبي طموحه التغييري باستحداث فكرة مؤتمر الفكر الإسلامي والتي صارت فيما بعد تقليدا سنويا يعقد بالجزائر والفكرة والغاية الأصلية من ورائه أنه كان ينظر بعين الأنثروبولوجي والمفكر الإستراتيجي، إذ رأى أن الكثير من المشاكل التي يعيشها مسلم القرن العشرين تحتاج لأكثر من عقل وأكثر من اختصاص وأكثر من زاوية نظر، حتى تعالج القضايا الأساسية وتتعدى مرحلة الوصف للظاهرة، بل لتنطلق إلى مجال التطبيق الذي يحقق فعل التغيير، وفي بداية السبعينيات يقدم كتابه المتفرد آنذاك ألا وهو (المسلم في عالم الإقتصاد)، حيث أدرك بذلك الحدس الرياضي والمنطقي أن البشرية مقبلة على حروب اقتصادية ضارية، وأن أي مشروع مستقبلي يعتمد على الدعامة الإقتصادية وكل مشروع إقتصادي يعتمد على ركن أساس وهو الإنسان وهذا وفق منطق ثقافي وتاريخي وأخلاقي، ليختم بعد ذلك رحمه الله شهادته على عصره بوصية أخيرة للإنسان

الذي يأتي بعده بكتيبه الذي عنوانه بـ(رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين)، وبذلك كان بن نبي يحمل منذ طفولته إلى خاتمة حياته همًا رساليا وحضاريا تعدى أطر النظرة القومية الضيقة والرؤية الدينية المتزمتة والمتمدنة الغربية المتبرمة، كان يحمل رؤية مستقبلية لإنسان زمن جديد لم يره بعد إنسان الحضارة والتي قال بخصوصها:

"وإذا حدث الانفجار، فلن يكون مجديا أن نقول لأولئك المتطلعين لهذه اللحظة، لا تلتقطوا شظاياها.. ومن ثم فلا ريب في أن الخطر سيظل يتهددنا طوال العشرين سنة القادمة... ولكن (الإسلام) يظل دائما القوة التي لا تحطم"^(١).

1- مالك بن نبي: فكرة كمنويلث إسلامي، دار الفكر، ترجمة الطيب الشريف، دمشق الطبعة ٢، ٢٠٠٠، ص ٨٤.

المبحث الرابع

مرجعية مالك بن نبي

في هذا المبحث سنركز على ما هي المدونات المعرفية والتفاعلات النصية، التي كانت بمثابة المحددات التي أنتجت أنساقاً فكرية واضحة انتظمت من خلالها آراء بن نبي فيما يتعلق بمشكلات الحضارة، على اختلاف مسائلها.

ولكن بدءاً، نجدنا ملزمين بتحديد ماهوية مصطلح (التفاعلات النصية)، والذي قد يجده قارئ مؤلفات مالك بن نبي والباحث في نظرياته الحضارية، اصطلاحاً غريباً، وهذا حقيقة لا فرار من مواجهتها، إذ استعرنا هذا المصطلح من حقل الدراسات الألسنية والنقدية الأدبية، لأننا نتعامل مع مالك بن نبي من خلال نصوصه، وليس بواسطة مساءلتنا لشخصه، إذ هذا أمر متعذر، كتعذر نقض مبدأ الثالث المرفوع.

يعتبر (النص) (مدونة كلامية)؛ فهو ليس رسماً أو صورة، وهو (حدث) وقع في ظرف زمني ومكاني محددين، ومن غير أن يعيد إنتاج نفسه مرة ثانية، بسبب مبدأ الصيرورة والتحول.

وهو (تفاعلي) بسبب طبيعته الوظيفية التواصلية التفاعلية، والتي تحدث شبكة من العلاقات متعددة الأشكال. وهو (مغلق) بسبب صفته الكتابية الأيقونية، ولكنه من الناحية المعنوية (توالدي)؛ فهو ليس نتيجة العدم بل هو منبثق من رحم التاريخ بكل سياقاته النفسية واللغوية والاجتماعية والدينية والسياسية.

(النص) إذن، هو مدونة حدث كلامي، يعيد ترتيب علاقته بالنصوص السابقة عليه في نوع من الحوارية الفاعلة، لذا هو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية وليس عبر المقولات اللسانية الخالصة؛ فهو ترحيل للنصوص، وتداخل نصوصي؛ ففي فضاء نص

ما تتقاطع وتتشابك بل وتتنافى أيضا مجموعة من الملفوظات المستعارة من نصوص أخرى.^(١)

وعليه فالنص ليس واحدا، بل هو أنواع مختلفة، منها ما يعرف اصطلاحا بـ (النص المفتوح) و (النص المغلق)، أو ما يعرف تحت مصطلح (النص المقروء) Lisible، و (النص المكتوب) Scriptible، ليدل الأول على معنى النص المغلق، والثاني على معنى النص المفتوح. هذا الأخير الذي يوفر مجالا للعبور بين صفتي (النص - الرسالة) المؤلف / القارئ، وهناك النص (الغائب)، والذي يتسلل عبر النصوص المنجزة ليبلغ رسالته، عبر ما يعرف بالتناص والميتاناص، يرتدي حلة شفافة لا تبين عن ملامحه، وعلى القارئ أن يتتبع آثار خطوه، حتى يقبض عليه، ولكن هيهات أن يفلح، وإلا لتوقف الفكر عن التحليل والتركيب والاستنتاج والتأويل والتحوير والنقد والمقاربة والمراجعة، والمحاججة والبرهنة والمداورة، والمقايضة، وهذا هو لب آلية التفاعل النصي؛ فما هي المتفاعلات النصية؟

هي تلك البنيات النصية، والتي يستوعبها (النص) المنجز كتفاعل نصي، وهي أنواع منها: المتفاعلات النصية التاريخية، وهي لا تقدم كوقائع جامدة ولكن كنصوص قابلة للقراءة والتأويل، وتمتد هذه المتفاعلات إلى التاريخ البعيد، وتطفو على متن النص من خلال الإشارة إلى أسماء شخصيات بعينها أو إلى أحداث ووقائع تاريخية واجتماعية كان لها أثرها الباقي عبر امتداد الزمن. وبذا يكون الرجوع إلى الماضي استقراء للحاضر واستشرافا للمستقبل عبر ديمومة زمنية في انسكاب مستمر وانسياب متصل.

وهناك المتفاعلات النصية الدينية، والتي تتداخل في حضورها على رقعة النص مع المتفاعلات النصية التاريخية، وذلك من خلال الإلماح إلى أسماء الأنبياء والرسل ومقتطفات من الكتاب المقدس أو من القرآن الكريم أو الحديث النبوي، أو ذكر لبعض الشعائر الدينية

1- أنظر كلا من: محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التناص، الدار البيضاء، الطبعة ٤، ٢٠٠٥، صص ١١٩ - ١٢٠، وصلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة الكويت، ١٩٩٢، صص ٩٧ - ١٠٩. وجوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، والدار البيضاء، الطبعة ٢، ص ٢١.

والممارسات التعبدية، وهي ليست من طبيعة واحدة، إذ فيها ما هو وثني، ما هو عقائدي
سماوي من عند الله.

وأیضا نجد التفاعلات النصية الأدبية والثقافية بل وأیضا تفاعلات معرفية.^(١)

وعليه سنحدد هذه التفاعلات النصية التي مارست حضورها في مجموع إنتاج مالك بن
نبي الفكري، منذ أن كان طفلا إلى أن صار شيخا، وأبرز هذه التفاعلات النصية وأبقاها في
نفسه وفي ضميره وفي عقله هو هيمنة (النص القرآني)، والذي كان هو المنطلق وهو النهاية
عنده. حيث أن كل كاتب أو مبدع ينتج (النص الأصل / المرجع)، وبقية النصوص الثانوية
أو التي تأتي بعد ولادة النص الأول ما هي سوى نوع من La Para textualité، وهي بنى
نصية تشترك مع البنية النص الأصل (الأم)، ومجاورة لها؛ فالمناص إما أن يكون حول النص
وحول الكاتب مثل العنوان والتمهيد، أو مدرجا ضمن الفجوات النصية مثل عناوين
الفصول وبعض التعقيبات. وقد يكون المناص خارج دائرة النص مثل المقالات أو
الاستجابات أو بعض العناصر ذات الخصوصية المميزة، مثل المراسلات والمذكرات
الشخصية، هذا بحسب اعتبار أن المناص رسالة مادية تحتاج إلى مكان تتجلى فيه مظهراتها التي
ذكرناها منذ قليل.

أما على مستوى الزمانية؛ فإن المناص يرتبط بتاريخية ميلاد النص الأصل، مثل تاريخ
الطبعة الأولى، ولذا يتمظهر المناص إما سابقا على ظهور النص Paratexte antérieur، أو
مزامنا لنشأة النص الأصل؛ فهو المناص الأصلي Paratexte Original، وقد يكون لاحقا أو
متأخرا على ظهور النص الأصل؛ فهو المناص اللاحق Paratexte Ulérieur ou Tardif،
وقد يكون المناص حادثا بعد وفاة المؤلف أو أثناء حياته Paratexte Posthume ou
Authume. وعلى المستوى الماهوي فالمناصات قد تكون ذات تجليات نصية أو لفظية في أدنى

١- سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي - النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠١،
صص ١٠٧ - ١٠٦، محمد بوشحيط: الكتابة لحظة وعي - مقالات نقدية، المؤسسة الوطنية لكتاب، الجزائر،
١٩٨٤، ص ٧٩، طه وادي: جماليات القصيدة المعاصرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، الإسكندرية، ط ١،
٢٠٠٠، ص ٧٨.

تمثيل لها، كالعناوين والتمهيدات والمقابلات، وقد تكون هي ذاتها نصا، من خلال تجليات طباعية مرتبطة بالإختيارات الطباعية والتي تكون أحيانا دالة على المؤلف وعلى النص. أو تجليات حديثة ومرتبطة بحدث معروف لدى جمهور المتلقي، مما يؤثر في توجهات المتلقي مثل جنس الكاتب وسنه ومضمون النص وحمولاته المعرفية، وهذا من خلال سياقات مضمرة حول النص قد تعدل من دلالاته الخطابية. وهذا السياق المضمرة أنواع منه ما هو سياق ذاتي مؤلفي Contexte Autorial، أو سياق أجناسي Contexte Générique، مرتبط بتحديد جنس النص، أو سياق تاريخي Contexte Historique، مرتبط بالعصر التاريخي الذي أنتج فيه النص.

أما على مستوى التداولية Pragmatique؛ فإنها تحدد من خلال خاصيات محلها ووضعية تواصلها، من حيث طبيعة المرسل والمرسل إليه ومستوى (سلطة النص / الأصل)، ومستوى هيمنة رسالته اللفظية Illocutoire، ومن بين هذه المناصات ما هو مرتبط بالمؤلف صاحب المسؤولية الكاملة، وهناك من المناصات ما هو مرتبط بالناشر الذي يشترك من حيث المسؤولية مع الكاتب، وهناك المناص المرتبط بجمهور المتلقي مثل العنوان أو المقابلة الشخصية، بالإضافة إلى المناص الشخصي المتعلق بالكاتب في شكل رسائل أو مذكرات يوجهها إلى نفسه - أي الكاتب -، وهذه العناصر جميعها تحدد طبيعة النص وسلطته ومستوى تلقيه وفق أفق الإنتظار. وعليه فالمناص منه ما هو سردي Narrative، ومنه ما هو ديني Religieux، منه ما هو تاريخي Historique. وعليه فالتفاعل النصي يتم على مستويين: الأول: المستوى العام، وهو ما ينشئه النص من علاقات مع نصوص أخرى مع ما بينها من اختلاف على المستوى الأجناسي والتداولي.

الثاني: المستوى الخاص، وهو أن يقيم نص ما علاقة محددة مع نص بعينه، لا غير، وهذا يكون مع بنية نصية جزئية وليس مع بنية نصية أساسية كبرى.

والناتج من كل هذا التمهيد النظري، أننا في تعاملنا مع نصوص مالك بن نبي المختلفة، لاحظنا أن الظاهرة القرآنية هي (النص - الأصل) (النص - السلطة) (النص - المهيمن) بل (النص - الرسالة)، بمعنى آخر أن (القرآن) هو (الأصل) و(السلطة) و(المهيمن)

و(الرسالة)، وما بقية المؤلفات سوى نصوص تماهت مع الأصل وحيث مقولاته لا غير، وعليه نجد نوعين من التفاعلات النصية عند مالك بن نبي، النوع الأول هو التفاعل النصي القرآني أي التفاعل النصي الديني، والنوع الثاني هو التفاعل النصي المعرفي، والمتمثل في مختلف المرجعيات النظرية العلمية والفلسفية التي كونت لدى مالك بن نبي فيما بعد خلفية لرؤيته الإبيستيمولوجية، وهو يرد على أصحاب المذاهب المادية المختلفة بشقيها الغربي المسيحي وأيضا الغربي العلماني.

(أ) التفاعل النصي القرآني / المرجعية الدينية الإسلامية:

إن دراسة مالك بن نبي في طفولته للقرآن الكريم ونشأته في أسرة مسلمة غرست فيه قيم الخير والإحسان. كما أن المؤثرات الثقافية والفكرية التي واكبت مراحل دراسته في الجزائر وفي فرنسا كل ذلك شكل الأولويات في تحديد مساره الفكري المبني على عقيدة إسلامية قوية، فالتراث العربي الإسلامي ومنابعه الأولى خاصة القرآن الكريم الباعث الروحي الذي يمثل الأساس الأول في تكوين مالك بن نبي^(١).

فالدين عند مالك بن نبي في ضوء القرآن يبدو ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم جاذبية المادة، وتتحكم في تطورها. فالدين يبدو كأنه مطبوع في النظام الكوني قانونا خاصا في الفكر الذي يطوف في مدارات مختلفة من الإسلام الموحد إلى أحد الوثنيات البدائية حول مركز واحد يخطف سناه الأبصار وهو حافل بالأسرار^(٢).

فالفكرة الدينية هي كل ما ينقل فكر الإنسان وتطلعاته واهتماماته إلى عالم القيم وسمو بالنفس إلى المستقبل.

إن دراستنا لأهم مؤلفات مالك بن نبي تبين بوضوح تأثيره بالقرآن الكريم، إما مشيرا إلى دوره في نهضة المجتمعات، وإما مستدلًا به في عدة قضايا وموضوعات عملية، واقتصادية، فلا يكاد يخلو له مؤلف من ذكر آية أو تنويه بأهمية القرآن في حياتنا ككل، ففي كتابه الظاهرة

١- دكتورة نور خالد السعد التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي الدار السعودية للنشر ط ١ - ١٩٩٦/ص ٢٥.

٢- مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ص ٢٨٤.

القرآنية يظهر ذلك بشكل جلي تأثره بالقرآن الكريم حيث يقول في الأخلاق "أما القرآن فسيأتي بمبدأ إيجابي أساسي، كما يكمل منهج الأخلاق التوحيدية، ذلك المبدأ هو لزوم فهو يخاطب معتنقه بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١١٠)، ومن جهة أخرى يقر القرآن فكرتي الجزاء والعقاب، أساس الأخلاق التوحيدية.

وجهة العالم الإسلامي:

لقد عالج في هذا الكتاب عدة قضايا تخص العالم الإسلامي مبرزاً دور القرآن في حل عدة أمور، كالإنفصال الذي حدث في العالم الإسلامي حيث يقول: التخلف بين الضمير والعلم كان هو السبب المباشر في الانفصال الذي حدث في العالم الإسلامي في صفتين - يقصد معركة صفتين -؛ فالقرآن من حيث كونه نظاماً فلسفياً كان علماً يتجاوز في مداه أفاق الضمير الجاهلي بطريقة فريدة تنتج عن ذلك الانفصال بين أولئك الذين استعبدتهم حمية الجاهلية والاجتماعية وشرائط الحياة التي جاء بها القرآن الكريم ليمحوها محو من طبائع الناس... فإن النهضة تكون فيما يبذله العالم الإسلامي من جهد في الميدان النفسي، هي حركة ضميره ليتدارك تخلفه عن الفكر القرآني، وعن ركب الفكر العلمي الحديث^(١).

فكرة الإفريقية الآسيوية:

في هذا الكتاب نجد مالك يقر بأهمية الإسلام، وقد اعتبره منقذاً للإنسانية في ظل الأحداث التي كان يعيشها العالم حيث يرى (أن المنقذ هو الإسلام حيث وضع عاملين مهمين على هذا الطريق ليؤمن الإنسانية ضد جميع أشكال الاضطهاد الديني والزمني، فأرسي القرآن أولاً في الضمير المسلم تحديداً جوهرياً بالإرادة القوة، ولم تدع تعاليمه أي سبب أو غموض)^(٢).

ميلاد المجتمع:

هنا تعرض إلى ارتقاء الإنسان يكون بالاعتصام بالله لأن (العلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان...

١- مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي ترجمة عبد الصابور شاهين - دمشق - دار الفكر ١٩٨٦ ص ١٧٩

٢- مالك بن نبي فكرة الإفريقية الآسيوية - في ضوء مؤتمر باندونغ دمشق، دار الفكر سنة ١٩٧٩ / ص...

فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الإجتماعية^(١) والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنها حدث، ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد... ذلكم ولا ريب هو الدرس الذي أراد القرآن أن يعلمه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حين قال له: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٦٣)^(٢).

شاهد القرن:

هذا الكتاب عبارة عن مذكرات تناول فيها جزءا كبيرا من حياته بشيء من البساطة ذكره لتلاوة القرآن الكريم حيث قال: (كانت الحياة المنزلية تبتدئ بالنسبة لي عندما أعود مساء من المدرسة، فأخذ استراحة قصيرة أتناول أثناءها كأس شاي وأتجاذب الحديث مع خديجة حول القضية الجزائية أو حول الدين، وكان يروق لها بعد ما أصلي المغرب، أن تستمتع لما أتلو من القرآن دون أن تفهم بطبيعة الحال، غير أنها تتذوق جرس التلاوة"^(٣)).

المسلم في عالم الاقتصاد:

أشار مالك في هذا الكتاب إلى عدة مسائل إقتصادية حيث يقول بهذا الصدد مستدلا بالقرآن الكريم (كأننا ليس للمسلم إلا سبيل واحدة للتفتح أن يكون بشرا إقتصاديا وألا يكون غير هذا، ولا يخفى علينا أن التعليم الإسلامي كله في القرآن والسنة يدعوه إلى الحلول الوسط دائما)^(٤) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٤٣).

كما أشار أيضا في هذا الكتاب إلى الأساس الأخلاقي لعمليتي الإنتاج والتوزيع وقد قال في هذا الشأن:

1- مالك بن نبي ميلاد المجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق سنة ١٩٨١ / ص ٥٢.

2- مالك بن نبي ميلاد المجتمع ص / ٥٢.

3- مالك بن نبي مذكرات شاهد القرآن دار الفكر دمشق سوريا - الطبعة الثانية جزأ سنة ١٩٨٤ / ص ٢٧٤.

4- مالك بن نبي المسلم في عالم الاقتصاد دار الفكر دمشق سنة ١٩٨٦ / ص ٤١.

(وإنما يعيننا الوجه الثاني وهو أن من طبيعة المادة القصور إلا في الحيوان، وإذا تحركت المادة فإنها تتبع أيسر السبيل فالماء لا يجري من أسفل إلى فوق إلا إذا سلطنا عليه ضغطا، والإنسان مجبول أيضا على المنحدر إذا لم تكن وراءه قوة دافعة إلى الأعلى)^(١)، وربما وجدنا توضيحا وتأكيدا لهذه الملاحظة البسيطة في الآية الكريمة ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (سورة البلد: الآيتان: ١٠-١١)^(٢).

تأملات:

تناول فيه الأهمية والمكانة التي أولاها الإسلام للفرد، خاصة الفرد المسلم: (فالمسلم محفوظ من النزعات المنافية للشعور الديمقراطي الموجودة أو المدسوسة في طينة البشر، بما وضع الله في نفسه من تكريم مقدس وما جعل عن يمينه وشماله من معالم، ترشد طريقه حتى لا يقع في وحل العبودية أو وحل الاستعباد، ومما يدعم شعوره بهذا التكرم العام الذي منحه كإنسان فإنه يشعر بتكريم خاص قد منحه كمؤمن^(٣)) في قوله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة المنافقون، الآية: ٨).

بين الرشاد والتهيه:

تعرض في هذا الكتاب إلى قضية الثورة (فالثورة لا تستطيع الوصول إلى أهدافها، إذا هي لم تغير الإنسان بطريقة لا رجعة فيها من حيث سلوكه وأفكاره وكلماته، وإذا نظرنا إلى الأمور في عمقها فإن ثورة ما لا بد أن تسير طبقا للقانون الاجتماعي^(٤) الذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد، الآية: ١١).

مشكلة الثقافة:

ظهر في هذا الكتاب أن المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن الكريم ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول أنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي^(٥).

1- مالك بن نبي، المصدر السابق / ص ٨٦.

2- مالك بن نبي، المصدر السابق، ص ٨٦.

3- مالك بن نبي تأملات - دار الفكر دمشق - ط ١٩٨٦ - ص ٨٣.

4- مالك بن نبي بين الرشاد والتهيه، دار الفكر - سوريا - ط ١٩٨٦ / ص ٨٣.

5- مالك بن نبي مشكلة الثقافة ترجمة عبد الصبور شاهين - دار الفكر - ط ٤ - ١٩٨٤ / ص ٧٤.

بعد تناولنا لهذه العينة من كتب مالك بن نبي، نعتقد أنه بدى واضحا للعيان مدى تأثير مالك الكبير بالثقافة الإسلامية عامة وبالقرآن الكريم بوجه خاص، وهذا ما تجسد لنا في معظم كتبه إن لم نقل كلها بحيث لا نجد له كتابا كما ذكرنا، إلا وتعرض فيه لأهمية القرآن الكريم وأشار إليه واستدل به إذن فمرجعية مالك بن نبي مرجعية دينية إسلامية.

(ب) المتفاعل النصي المعرفي (الايبيستيمولوجي) / المرجعية الغربية:

لم يكن مالك بن نبي مفكرا ذا مرجعية إسلامية فحسب، يعتمد على متن ومذهب فلسفي معين بل متنه الفلسفي ينم عن مصادر متنوعة من الفلسفة الغربية، سواء أكانت معاصرة أو حديثة وهذا راجع إلى احتكاكه بالغرب ودراسته لثقافتهم ومن أهم المدارس التي أثرت في فكر مالك بن نبي:

(١) المدرسة الفرنسية:

كان مالك بن نبي مفكرا انتقائيا حيث جعل العقل مركز اهتمامه فاتجه صوب كل المدارس التي جعلت من العقل مركز اهتمامها، وأولى المدارس الحديثة التي وظفها في تحليل الظاهرة الإسلامية تيار العقد الاجتماعي وخاصة عند حديثه عن الثورة. كما أنه وظف فلسفة ديكارت Descartes^(١) في مجال حديثه عن شروط الحضارة، وعن ضرورة العقل ومبادئ الفكر الأساسية في تحقيق النهضة، فإن مبدأ الوضوح والبدهة يعتبرهما مالك بن نبي من بين أهم العوامل التي تجعل الأفكار في العالم الإسلامي تتجه نحو إعادة تشكيل الإنسان الشاهد، ونلمح ذلك جدا في كتاب شروط النهضة ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، إن حضور فلسفة ديكارت تجسدت في الفكر البنّابي، رغم دعوته إلى التحرر من ديكارت ولعل الأمر يرجع كون ديكارت في عصره كان يمثل نقطة التحول بين عهدين في تاريخ أوروبا^(٢).

1- ديكارت Descartes rene من مواليد ١٥٩٥، توفي ١٦٥٦، صاحب مبدأ "أنا أفكر إذن أنا موجود"،

الترما عن جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة دار الطليعة بيروت ط ٢ / ص ٣٠١.

2- الدكتور اسماعيل زروخي وأساتذته آخرون -التيارات الفلسفية الغربية وأثرها على الفكر العربي- منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية جامعة منتوري قسنطينة/ ص ٨٠.

٢) المدرسة الألمانية:

إن التأثير الأكبر الذي لا مجال لنكرانه يتمثل في حضور الفلسفة الألمانية بقوة في فكر مالك بن نبي، فلا نجد مؤلف من مؤلفاته لا يحتوي على مفاهيم من وحي الفلسفة المثالية الواقعية، إذ نلاحظ حضور فلسفة فريدريك نتشه وهيجل وشبنجلر:

أ) فلسفة فريدريك نتشه:

نتشه فيلسوف ألماني يرى أن العقلية الدينية هي نقيض العقلية العلمية، فاعتبار الأولى تفسر الأشياء من خلال قوى وإرادات واعية، أما الثانية تفسرها على أنها مستمدة من منطق الحوادث ذاتها لا من تشبيه الحوادث الطبيعية بما يجري داخل الذات الإنسانية الواعية. والواقعية عند نتشه تعبر عن الوجود المستقل عن المعرفة، فنتشه كان يعبر عن وجوب الإنطلاق ويشير بلزوم تجنب الجمود الفكري ليترك المجال للتجديد^(١).

فما نلاحظه في مؤلفات مالك بن نبي هو حضور فلسفة نتشه وذلك نتيجة تأثر مالك بن نبي بهذا الفيلسوف وقد ذكر ذلك خاصة في كتابه (مذكرات شاهد القرن) حيث قال "وكان نتشه يشغلني خصوصا لأن صواعقه كانت تدوي فعلا في تلك الفترة التي ستفجر فيها الحرب العالمية الثانية"^(٢).

كما نجد أن مالك نصح المثقفين بالقراءة لنتشه لأنه اعتبره المنقذ من التيه الفكري، كما حدث ذلك مع الدكتور خالدي الذي تأثر بتوجيهات يسارية حين ذكر مالك أنه (تقرر أن تضيف خالدي إلى قائمة الشبان الذين يجب إنقاذهم من التيه الفكري، ونظرا لتكوينه وحرصه على الإطلاع والمطالعات، رأينا أن يكون المنقذ نتشه وفي الغد في لقاء اتفقنا أو تأمرنا عليه، قدمت لخالدي نسخة من كتب الفيلسوف الألماني أظنها نسخة من كتاب "هكذا تكلم زرادشت"^(٣).

وبعد مرور سنتين على هذه الحادثة لاحظ مالك بارتياح على وجه خالدي علامة النقاهاة الروحية الناجمة منذ بدأ قراءة نتشه، كما أثرت عليه بذلك قبل سنتين، فأصبح محصنا بأفكار

١- الدكتور مصطفى غالب: في سبيل موسوعة فلسفية - دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٨٣.

٢- مالك بن نبي - مذكرات شاهد القرن / ص ٢٧٥.

٣- نفسه، ص ٣٤٦

الفيلسوف الألماني من تلك العقبات التي توضع في طريق شبابنا الجامعي حتى اليوم، لتحيله إلى طريق تفكير وإحساس تجعله أجنبيا عن الشعب شاذا عن نسق حياته^(١).

إذن من هاته المذكرات يتضح تأثير مالك بالفيلسوف الألماني نتشه ودعوة الشباب والمتقنين لقراءة فكر هذا الفيلسوف لما فيه من آراء سديدة.

(ب) فلسفة هيغل Hegel Georg^(٢) :

لقد تأثر مالك بن نبي بفلسفة هيغل فمثلا مصطلح اللحظة الذي وظفه مالك بن نبي استعمله من قبل هيغل حيث يرى هذا الأخير أن اللحظة علة الحركة أو قوة الدفع، وركز على أن اللحظة المنعطف الأخطر في التحول الإنساني من السلب إلى الإيجاب أو من السكون إلى الحركة بإعتبار اللحظة وعي جدي وعلية فتركيز مالك بن نبي على اللحظة يرجع إلى كونها نقطة تحول في الذات والشيء الذي تميز به مالك بن نبي هو أنه ربط اللحظة بالفراغ الكوني الناتج عن إدراك الصعوبات، فالمسلم يحتاج إلى تلك اللحظة النفسية من أجل اتخاذ موقف عزمي ينتج عنه عمل خلاق، فاللحظة لا يمكن أن تكون عند مالك بن نبي إلا من خلال ما اصطلح على تسميته بالعزلة الظرفية. فموقف الإنسان في عزلته يجعله يشعر بالفراغ الكوني كفضاء تأملي يعمل على تعميق نظرة الأنا إلى أنها يقول مالك بن نبي "عندما يخلو الإنسان في وحدته وعزلته ينتابه شعور بالفراغ الكوني" فالفراغ الكوني لحظة حاسمة في شعور الذات إما أن يؤدي إلى ميلاد وإما أن يؤدي إلى استلاب فتفقد الذات وجوده الحي^(٣).

ويمكننا كذلك أن نجري مقارنة بسيطة بين مفهوم الإنسان عند هيغل وعند مالك بن نبي، فمفهوم الإنسان عند هيغل نلاحظ مدى توغله في متاهات المفاهيم، وnergسية الذات المتعالية، حتى يستحيل على من يدرس هيغل أن يدرك صورة نموذجية للإنسان المطلوب؛

1- نفسه، ص ٣٨٧.

2- هيغل Hegel Georg من مواليد ١٧٧٠ وتوفي سنة ١٨٣١، له موسوعة في علم الجمال لزم ما عن جورج طرابشي، معجم الفلاسفة / ص ٧٢٢.

3- الدكتور اسماعيل زروخي وأساتذه آخرون -التيارات الفلسفية الغربية وأثرها على الفكر العربي ص ٨٢.

فالنخبة العرقية ومبدأ "السمو والتعالى تجعله مثالي الطرح، بيد أن مفهوم الإنسان عند مالك بن نبي يتخذ صورة واقعية مقبولة وقريبة إلى الأذهان، كما أنه مفهوم لم يغرق في المثالية المتعالية بل كان قريباً من واقع المسلم ملتجئاً بالمبدأ القرآني"^(١).

(ج) فلسفة شينجلر Spengler Oswald^(٢)

لقد تأثر مالك بن نبي بالفيلسوف الألماني شينجلر في فكرة تقسيم الشعوب، حيث قسّم الشعوب بالنسبة لموقعها من الحضارة إلى ثلاث أنواع هي: الشعوب السابقة على الحضارة، والشعوب المتأخرة عن الحضارة، والشعوب المتحضرة، وأساس هذا التقسيم عنده عرقي.

ونجد مالك بن نبي قد تأثر بهذا التقسيم، ولكن على أساس نفسي اجتماعي أي بالنسبة لموقعها من الحضارة وليس على أساس عرقي، وقد قسمها إلى ثلاثة أنواع مجتمع ما قبل الحضارة ومجتمع في حالة تحضر ومجتمع ما بعد الحضارة^(٣).

يشترك مالك وشينجلر في عنصر آخر فيما يخص الدورة الحضارية عند كل منهما، فمالك يرى أن الحضارة تنهار عندما تفقد الروح سيطرتها على العقل، وتعلو الغريزة وذلك يحدث بعد مرحلة الانتشار والتوسع وازدهار العلوم واكتمال شبكة الروابط الاجتماعية، وتحقيق كافة الضمانات الاجتماعية للأفراد وحدوث التوازن في مستوى أنساف الأشخاص، الأفكار، الأشياء وانعكاس هذا في إنتاج الأفراد مقابل الضمانات الاجتماعية من المجتمع وهنا نجد انتساقه مع فكرة شينجلر في تحقيق جميع الإمكانات في الفترة السابقة على الفناء، فكأنها هناك ازدهار شامل يليه فناء عند الفيلسوف الألماني، واكتمال الحضارة يليها انهيار لها عند مالك، كما أنه يرى أن مرحلة فناء الحضارة لا تتم بصورة نهائية، ولكن هذه الحضارة تبقى قادرة على البقاء قروناً طويلة كما تبقى الشجرة التي استنفذ عصارتها الزمان سنوات طويلة لا تزال خلالها تمد أغصانها التي أصبحت فريسة للسوس، كما هي حال المجتمعات الخارجة من

١- الدكتور اسماعيل زروخي وأساتذته آخرون - التيارات الفلسفية الغربية وأثرها على الفكر العربي ص ٨٣.

٢- أزوالم شينجلر spengler Oswald عالم ألماني ولد في ١٨٥٦ وتوفي في ١٩٣٦ له كتاب تدهور السياسة الغربية التر عن د.نورة خالد سعد، التغير الاجتماعي في الفكر مالك بن نبي / ص ١٠٠.

٣- المصدر نفسه / ص ٢٢٦.

الحضارة عند مالك والتي تسير بانتكاس وبخط معاكس للتقدم حتى تتوقف تماماً عند نفاذ القوة كما يتوقف المحرك عندما يستنفذ آخر قطرة من الوقود^(١).

في الوقت الذي نؤكد أن هناك تقارباً بين آراء بن نبي وشبينجلر، إلا أننا نشير إلى انتقادات وجهها المفكر الجزائري للفيلسوف الألماني، وخاصة المتعلقة بآرائه عن دور القادة والنخبة في الحركة التاريخية. فقد انتقد مالك النظرة العرقية له "والتي تحصر القدرة على تغير في نخبة من جنس معين وطبقة معينة، حيث وجد أن العامل العنصري في نظريته قد تسرب منها إلى المذاهب التاريخية وأتيح لدوره التاريخي فيما بعد أن يحقق اكتماله المنهجي في المدرسة الهتلرية على يد روزنيخ"^(٢).

المدرسة الانجليزية:

تأثر مالك بن نبي بأرنولد توينبي Arnold Toynbee^(٣)

لا بد من عقد مقارنة بين مالك بن نبي وأرنولد توينبي حول عدة قضايا، والتي من خلالها يبرز لنا مدى تأثير مالك بن نبي بتوينبي، كدور الدين في إحداث التغير الاجتماعي، وفكرة الفساد الروحي والأخلاقي عند كل منهما.

أما عن دور الدين في إحداث التغير الاجتماعي (فإن مالك يؤكد على الدور المهم الذي يقوم به الدين، ويرى أنه المركب الذي يقوم ببناء الحضارة والشرط الأساسي الذي يقوم بالتأليف بين عناصرها الإنسان، الوقت والتراب-الأرض- للوصول إلى الحضارة^(٤).

إن الفكرة الدنية عند مالك هي باعثة الحضارة؛ فالحضارة القائمة على الدين وفق تحليل مالك قد تولد عند ظهور الفكرة الدنية وقد يتأخر ميلادها عند ظهور الدين وذلك أن ميلادها متوقف عند تسجيلها في الأنفس أي دخولها في أحداث التاريخ، ويستثني مالك من الحضارة

1- مالك بن نبي -وجهة العالم الإسلامي.

2- مالك بن نبي شروط النهضة، ترجمة عبد الصابور شاهين - دار الفكر ط ٤ ١٩٨٤ ص ٩٥.

مؤرخ بريطاني ولد عام ١٨٨٩ توفي عام ١٩٧٥ له موسوعة تاريخية بعنوان دراسة تاريخية الترع عن د.نورة.

خالد السعد التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي / ص ١٢٠.

4- المصدر نفسه / ص ٢٣٣.

الإسلامية، وذلك يعود في رأيه إلى الفراغ الذي وجدته الفكرة الإسلامية في النفس العربية العذراء التي لم تنشأ فيها ثقافة ولا ديانة سابقة فخلا لها بذلك الجو أما الحضارة النصرانية كما يرى مالك فلم يكن حظها في نفوس أهلها ويبتتها كحظ من الديانات والثقافات العربية والرومانية اليونانية فلم يتح لها أن تدخل في قلوب الناس وسط الزحام الفكري الثقافي لتؤثر فيها تأثيراً فعالاً ولم يكتب لها أن تعمل عملها إلا عندما بلغت وسط البداوة الجرمانية في شمال أوروبا حيث وجدت النفوس الشاغرة، فتمكنت منها وبعثت فيها الروح الفعالة، التي اندفعت بها لتكون حلقتها في سلسلة التاريخ^(١).

أما توينبي فأكد هو الآخر في دراسته المشهورة عن التاريخ (على دور الدين في إنشاء الحضارات إذ وفق تحليله، وجد أنه في ظروف انهيار حضارة ما تبقى ديانة ما عن طريق استجابة الأقلية الخلاقة وهم من يطلق عليهم "البروليتاريا الداخلية" لتحدي طغيان الأكثرية، واستعرض أمثلة عن كيفية انبثاق الديانة اليهودية والزرادشتية عن استجابة البروليتاريا الداخلية بصفاتها عنصراً اجتماعياً تكون في مجتمع معين، ولكنها لتكون منه في أي دور من أدوار تاريخه، لتحدي الطغيان الآشوري في عهد الدولة الجامعة للحضارة البابلية، ويرى أنه في ظروف مشابهة نشأ الإسلام على يد الرسول (ص) وجماعته، في المجتمع العربي المتفرع مع شقيقه المجتمع الإيراني عن الحضارة السريانية الزائلة^(٢).

رغم أن مالك بن نبي وتوينبي أكدا على أن الحضارة الغربية هي وليدة الديانة النصرانية إلا أن هناك فرقا بينهما من حيث مصدر الدين، ومالك يؤكد على دور الدين السماوي، وأما توينبي فهو يرجع الدين إلى الظروف التاريخية وإبداع الأقلية.

مالك بن نبي استقرأ التاريخ لا لكي يعرف أسباب انهيار الحضارات كما هو الحال مع توينبي، بل كان يهدف إلى اكتشاف قوانين الحضارة والتغيير الاجتماعي التي تعيد المجتمع الخارج من الدورة الحضارية في مرحلة الانحطاط، وكيف يعود هذا المجتمع إلى هذه الدورة، ووجد أنه لا بد من العودة إلى الدين "مركب الحضارة"^(٣).

١- مالك بن نبي - شروط النهضة / ص ٥٤-٥٥.

٢- شبل فؤاد محمد- حضارة الإسلام في دراسة أرنولد توينبي، القاهرة ١٩٦٨ / ص ١٨.

٣- د. نورة خالد السعد، المرجع السابق / ص ٢٣٥.

أما فيما يخص الفساد الروحي والأخلاقي؛ فمالك بن نبي وتوينبي يتفقان في أن انحلال الحضارات يسبقه ويرافقه فساد روحي وأخلاقي، فأوج أي حضارة عند مالك يتزامن مع بدء مرض اجتماعي معين، يرى مالك بن نبي أنه لم يجذب انتباه المؤرخين وعلماء الاجتماع بعد لأن آثاره المحسوسة لاتزال بعيدة، ويعني بها بداية ظهور الانحلال والتفكك نتيجة انطلاق الغريزة وتحريرها من الدين، فكلما ضعفت سلطة الدين ازداد الفساد الروحي والأخلاقي، فهو يربط ميلاد الحضارة بدخول مبدأ أخلاقي معين^(١).

وبانحلالها يتسلل الفساد الروحي والأخلاقي إلى البناء الاجتماعي الحضاري، ويؤكد مالك أن (مستوى أخلاق المجتمع ينخفض كلما كان هناك نقص في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية)^(٢).

كما أن مالك بن نبي يتفق مع توينبي في تفسيرهما لظاهرة الإستعمار، إلى أي مدى تساهم هذه الظاهرة في سقوط الحضارات.

وهكذا نجد أن مالك بن نبي تأثر بكل من توينبي وغيره من المؤرخين، لكن هناك بعض الاختلاف بينه وبينهم يعود إلى أن مالك كان يبحث في كيفية العودة بالمجتمع الذي خرج من دورة الحضارة، بينما توينبي وغيره بصفتهم مؤرخين إستعرضوا الواقعة التاريخية في محاولة لاكتشاف سنن حدوثها.

المدرسة الروسية:

- الفلسفة الماركسية: (تاخوتين).

لقد تركت الفلسفة الماركسية انطبعا على فكر مالك بن نبي، رغم موقفه منها بإعتباره رجل إيمان وعقيدة، والمرجعية الماركسية تتجلى في فلسفة "الوعي" و"الثورة" ومن حيث المنهج تتجلى في "الجدل" فالعالم الروسي سارج تاخونين يرى أن الطاقة الحيوية هي مجموعة الدوافع التي تحرك الفرد نحو الفعالية وقد حددها في أربعة عناصر الدافع الغذائي، الدافع

1- مالك بن نبي، شروط النهضة / ص ٦٨.

2- د. نورة خالد السعد، المرجع السابق / ص ٦٩.

الحسي، الدافع التملكي، ودافع البناء، فإذا كان العالم تاخوتين يربط هذه العناصر بالبناء، باعتبارها دوافع خلاقة، فإن نبي يعتقد أن الدوافع الحيوية ليست دوما عامل بناء وإنما تتحول في أغلبها إلى عامل هدم وتحطيم من خلال حالتين للطاقة الحيوية حالة فوضى، عندما يطلق العنان للطاقة الحيوية فإنها تهدم المجتمع، حيث الفرد يفقد روح الإنتماء وينغمس في فردانيته وهذه الحالة، نلاحظها اليوم بشكل واضح في إنسان الغرب وبالتالي سيادة الأشياء، وهي علامة من علامات التحضر وعلامة خروجه في حلبة الصراع والتدافع، إن الوجودية صرخة، نتيجة فوضى الأشياء وفوضى الأفكار، فالحرية الجنسية كمثال كانت من أبرز الأقوال^(١).

والحالة الثانية هي حالة القيد إذ لما نقيد الطاقة الحيوية، فإننا نهدم المجتمع نتيجة تعجيز الفرد لأن الطاقة الحيوية تفقد شحنتها المحركة الدافعة إلى النشاط وتركن إلى السكون والعطالة. إن المجتمع الإسلامي شهد مع نهاية الحقبة العباسية فكرا صوفيا وحركات ونحل، جعلت من قمع الطاقة الحيوية غاية لها فانجر عنها الانحطاط، إذ القرآن أشار إلى هذه الحالة السلبية^(٢).

وعليه مالك بن نبي يرى أن بناء الإنسان لن يكتمل إلا "بمراعاة الطاقة الحيوية وفق مجال حيوي منسجم، ونظرية الحدين تثبت ذلك، إذ يقول مالك بن نبي "عندما نلغي الطاقة الحيوية فإننا نهدم المجتمع، وعندما نحررها تحريرا كاملا فإنها تهدم المجتمع لذلك يجب على الطاقة الحيوية أن تعمل بالضرورة ضمن الحدين"^(٣).

المدرسة النمساوية:

المنهج التحليلي النفسي: لقد تأثر مالك بن نبي بكل من غوستاف ويونغ و"أدler" فدراسة الإنسان تفرض الاعتماد على المعطيات النفسية، فعندما ندرس حالة الانعكاس لا بد أن نستخدم منهجا ينفذ إلى أغوار النفس الشعورية واللاشعورية، ولقد ظهر التحليل النفسي في كتابه "ميلاد المجتمع" و"الصراع الفكري" ونلمح حضور فرويد و"غوستاف"

1- زروخي إسماعيل، المرجع السابق -/ ص ٨٤.

2- نفس المرجع / ص ٨٥.

3- إسماعيل زروخي، المرجع السابق.

"يونغ" و"أدler" خاصة من حيث النقائص والأمراض التي أصابت الذات الإسلامية مثل ذهان السهولة.

يعتبر مالك بن نبي من دعاة التنوع المنهجي لا الثبات، فالقراءة النقدية المتأنية لمؤلفاته تجعلنا نستقرأ عدة مناهج كالمناهج التحليلي النفسي، والمنهج التحليلي الاجتماعي من أجل تفكيك الظاهرة الاجتماعية إلى أجزاء، ثم المنهج التحليلي التاريخي وذلك من أجل تحليل الأحداث ومعرفة العبر والسنن ومحاولة وضع فلسفة للتاريخ، كما أن مالك بن نبي جسد المنهج التركيبي في كل أطروحاته، ولقد أكد على ضرورة الإعتماد على المنهج التركيبي في قوله "لقد تناولنا ظواهر حتى الآن من وجهة مجردة هي وجهة التحليل، وتناولها من الطرف الآخر أعني أننا ستناول في حياتنا وحركة نشاطها، فالحياة لا تحلل الظواهر ولكن تركيبها".^(١)

هذه هي مجموع التفاعلات النصية القرآنية والمعرفية التي كونت مجمل الفلسفة التي طرحها بن نبي رحمه الله، وهنا يتوقف القسم الأول من الكتاب. لبدأ القسم الثاني وهو رؤية استثمارية عملية (براغماتية - تطبيقية) لمختلف المقولات النظرية التي طرحها في مختلف كتبه، لأن الذي يهمننا هو: كيف نفهم التأسيسات النظرية الفلسفية المختلفة وكيف يمكننا أن نحينها ونكيفها لنقرأ الثلث الأخير من القرن العشرين الذي كان المفكر الجزائري (الشاهد) عليه، ومن باب تحقيق وظيفة (الشهادة) ووظيفة (الرسالة) ..

إذ النتيجة الأولى التي نرصدها، أن فعل (التغيير) الذي جعله مالك بن نبي القاعدة الأساس في أي عمل نهضوي، هو نتيجة عملية تربوية سابقة تشرط السلوك الفردي بل والسلوك الجمعي أيضا، وفق (غاية) يحددها (الدين)، ومن ثم فـ(التغيير) يتم في نطاق (الأصالة)، وهكذا تكتسب الأفكار الدافعية والديمومة عبر الزمن، لأن (التغيير) جاء ليحل مشكلة نابعة من (ذات الإنسان)، الذي تحتاج نفسه إلى (صياغة جديدة). ولذا فالآليات التي ذكرها (التكييف) و(التغيير)، و(الدافعية)، ما هي إلا بمثابة وسائل تربوية لإرساء أسس

١- نفسه/ ص ١٠٢.

(العملية التغيرية)، والتي كانت في صورة ثورة على كافة الأوثان السياسية والإقتصادية والثقافية التي وضع أثقالها الإستعمار آنذاك.

وبما أن العقيدة هي المحتوى الداخلي للإنسان؛ فإنها تشكل (المثل الأعلى) للإنسان لما يمتاز به من القدرة على التأثير والتوجيه والولاء والقيومية، ولذا خاطب القرآن ضمير الإنسان بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ (سورة الفرقان، الآية: ٤٣).

إذن (الحضارة) تستمد حيويتها من المثل الأعلى بمعنى (الحضارة) = (المثل الأعلى)

وبما أن (الحضارة) = المحتوى الداخلي للإنسان (الجانب القيمي)

فإن (المحتوى الداخلي) = (المثل الأعلى) للإنسان

فالإنسان في المحصلة هو جملة القيم والمبادئ، وهذا يمكننا من فهم درجة متانة شبكة العلاقات الإجتماعية أو رخاوتها، بمعنى آخر ما مدى التوافق بين درجة التوتر الأخلاقي ودرجة إشعاع الفكرة الدينية؛ فإن المجتمع سيتسم بصورة (الوحدة) و(الاندماج) و(الانسجام) الكلي بين مجموع أفراده، وعليه يمكن اعتبار (التوحيد) كمبدأ ديني هو المبدأ القيمي والاجتماعي الذي يحافظ على (وحدة) المجتمع، وعلى صيرورته عبر التاريخ. أما إذا كان العكس فالمجتمع آيل إلى الكارثة، إلى التقويض والعدمية.

النتيجة الثانية:

ومن النتيجة الأولى، نستخلص أن (التوحيد) هو جوهر الحضارة الإسلامية، ومن ثمة فإن (المحرك) الأساس لـ(التاريخ) هو (الدين)، وكأن بن نبي أراد أن يوقفنا على فلسفته الخاصة بالتاريخ، على أنها قائمة على أساس (ديني) توحيدي، بتعبير آخر أن الحركة التاريخية تتجه دائماً نحو (غائية) حددت سلفاً، وفي الوقت ذاته هذا (الهدف) هو (قطب) الحركة الكونية، إذ (الكل) من (الله) وإلى (الله). في آخر الأمر؛ فالحركة التاريخية هي حركة كونية مشروطة بـ(غائية) توجهها، إذ الكل يسبح بإسم (الله) وإن اختلفت هيئة التسبيح وفقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدِّ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور: ٤١). وقوله: ﴿فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَنَّمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥).

هذا معناه، أن محور الشخصية للإنسان المسلم ديني محض، ومن زاوية أخرى هل كان يهدف بن نبي إلى إقامة سوسولوجيا دينية، من خلال دراسته للظاهرة الدينية عبر تحليله للحضارة من حيث المفهوم ومن حيث مكوناتها وأطوارها؟

إذ (الدين) يملك (القدرة) على (التغيير)، لأن ما تحتاجه البشرية اليوم هو (توبة ضمير) وليس مزيدا من التصنيع والتسليح؛ فالمشكلة الأساس اليوم هي (الإنسان).

وهكذا أمكن لبن نبي أن يقدم تفسيراً جديداً للقرآن الكريم من أجل فهم أعمق لسنن الله الجارية في الكون، ومن ثم وضع مشروع يخرج الأمة من مأزقها لتحقيق كلمة الله على الأرض..

القسم الثاني
النظريات البنائية وامتداداتها التطبيقية
الرؤية والإسقاط

مدخل تأسيسي: في فقه السنن الكونية والتاريخية

في السنن الكونية:

لو أجال الإنسان ببصره في سماء هذا الكون العجيب، أو بدأ هذه الرحلة الكشفية من الذرة الصغرى إلى المجرة الكبرى، لوصل بعد تأمل ونظر عميقين إلى أن كل شيء في هذا الوجود محكوم ومضبوط بقوانين في غاية الدقة وعظمة الصنعة.

وهذه النظرة التركيبية للكون والحياة والإنسان، تجعلنا نضع أيدينا على حقيقة جلييلة وهي: "السبب" و"المسبب"، وإنها لنظرة عاقلة منطقية، إذ من المعلوم أن المعادلة لا تكون صحيحة تامة إلا إذا كان لنا طرفان يربطان أجزاء المعادلة الجبرية، لتكون العلاقة بين المقدمات والنتائج علاقة منطقية معقولة.

والشيء نفسه بالنسبة لهذا الوجود، إذ هناك أسباب تربط بين ظواهر الأشياء وكوامنها أي ماهيتها، ومن خلال هذه الروابط والعلائق يمكن لنا أن نكون النظرة الشمولية للكون وللحياة وللإنسان.

وعليه يمكننا أن نقسم القوانين التي وضعها الله في هذا الكون إلى نوعين:

أ/ النوع الأول: يطلق عليه السنن الإلهية، أو السنن الكونية

وهذا النوع من القوانين قائم على مبدأ "السببية والاطراد" ولذا قال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿فَلَنَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣).

وهذا النوع بدوره ينقسم إلى قسمين إثنين:

١/ قسم القوانين الطبيعية:

وهو الجانب الذي يحكم بصورة تلقائية حركة الأفلاك في مداراتها، والذرة وفوتوناتهما، والطبيعة والكيمياء وأجهزة الجسم الإنساني، بل كافة الأنشطة الحيوية سواء أكانت على مستوى عالم الجهاد (المادة الجامدة) أم عالم الأحياء (المادة الحية)، وهذا القسم يمكننا أن نطلق عليه اصطلاحاً اسم "السنن الكونية".

٢ / قسم القوانين الإنسانية:

وهو الجانب الخاص بمجالات النفس الإنسانية والمجتمعات البشرية، إذ أن الحياة الإنسانية سواء على مستوى نشاطها السياسي أو الاقتصادي أو في حالات الاجتماع وتبادل الخبرات وغيرها تخضع - أي الحياة الإنسانية - إلى قوانين تضبط صورة الاجتماع البشري، وكذلك مجال السياسة والاقتصاد بل والنفس الإنسانية التي هي محور هذه الأنشطة المختلفة، ولذا يمكننا أن نطلق على هذا القسم اسم "سنن النفس والمجتمع".

ب/ النوع الثاني: يطلق عليه "القوانين الشرعية التكميلية"

وهذا النوع قائم على مبدأ "اتجاه إرادة الفرد إلى تنفيذها"، وترك هذا المجال منفتحاً طوع إرادة الإنسان كأساس من أجل امتحان تصرفات الإنسان في هذه الحياة الأولى في هذا الوجود عالم الشهادة، وفق معيار حرية الاختيار التي ألمح إليها القرآن بمصطلح (الهداية) في قوله تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (سورة الانسان، الآية: ٣)، وفي قوله:

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (سورة البلد، الآية: ١٠). وبهذا يمتحن مدى عبودية الإنسان لله تعالى، ومن ثم يتحدد مدى وعيه وإدراكه لمفهوم الخلافة أو الاستخلاف الرباني للإنسان في الأرض...

ج/ الإنسان همزة الوصل:

وهذه القوانين في مجموعها - أي مجموع القوانين الكونية وقوانين النفس والمجتمع والقوانين الشرعية التكميلية - كلها ذات صلات وثيقة فيما بينها، وسنبين تلكم الصلات الرفيعة بحسب الآتي:

١ / السبب: السبب في اصطلاح العلماء الطبيعيين هو (ما ينبني عليه الشيء وآثاره، وإذا انتفى السبب انعدمت الظاهرة). وفي اصطلاح الشرع هو:

(كل وصف ظاهر منضبط جعل مناطاً لوجود الحكم). فالوصف ما قابل الذات والظاهر هو خلاف الخفي، والمنضبط أي المحدد الذي لا يختلف باختلاف الأحوال والأحياز

والأعيان، وجعل مناطا للحكم، أي يستلزم من وجوده وجود الحكم، ومن انتفائه انتفاء للحكم، بمعنى آخر علاقة طردية بين الظاهرة والنتيجة أو بين السبب والحكم.

وهذا التعريف يشمل ما إذا كان (الوصف) بينه وبين (الحكم) مناسبة ظاهرة أو مناسبة خفية، ومثال السبب المناسب للحكم مناسبة ظاهرة (الإسكار)؛ فإنه سبب في تحريم الخمر، وبين (الإسكار) و(التحريم) مناسبة ظاهرة، لأن الإسكار يتضمن ضياع (العقل) وتعطيل (وظيفته)، ولذا جعل الإسكار مناطا لتحريم تناول كل مسكر، كما نجد أيضا أن السفر في شهر رمضان سبب للإفطار؛ فالله تعالى يقول:

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٨٥).

فبين السبب وبين (إباحة) الفطر مناسبة ظاهرة وهي تحقق (المشقة)، والمشقة يناسبها (التخفيف) و(الترخيص) من أجل رفع (الحرج) عن المكلف من أجل تمكينه من تأدية واجباته الشرعية والتزاماته العملية اتجاه بني جنسه في الإنسانية، وهكذا تتشابك حاجات الإنسان الدنيوية العاجلة بحاجاته الأخروية الآجلة من غير تصادم أو تناقض بين متطلبات الجسد المادية ونوازع النفس الفطرية وبين متطلبات الروح والعقل العليا.

ولنعود إلى شهر رمضان، عندما يظهر هلال رمضان من كل سنة؛ فهو يحقق بذلك دورة سنوية، وحلقة تضاف إلى الحلقات التي منها تتكون السنة القمرية، وظهور القمر هذا، من الأليق به أن نضعه تحت إطار السنن الكونية، لأنه - أي القمر - يعتبر زيادة على أنه ساعة فلكية، من أهم الظواهر الفلكية في نظامنا المجري.

وهذه الظاهرة الفلكية "هلال رمضان" خارجة عن إرادة الإنسان؛ فهو يدركها بالوسائل التي يسرها الله له، ولكنه لا يملك القدرة على التحكم فيها، وقد قال تعالى:

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٨٥)

فالمناسبة التي بين (السبب) وهو رؤية الهلال وبين (الحكم) وهو وجوب الصوم خفية لا يدركها العقل، وإن كان شهر رمضان هنا هو عبارة عن إعلان الوقت المخصوص للصيام، وفي هذا المثال، نجد أن السبب نوعان، سبب من فعل المكلف ويدخل تحت قدرته، مثل:

السفر سبب في الإفطار من أجل رفع الحرج على المسافر، ومن جانب آخر نجد سببا ليس من فعل المكلف وخارج قدرته، وهو "هلال رمضان"، إذ لا يتحكم في مطلع أبراجه ولا في دورانه، ومع ذلك فظهوره - أي الهلال - سبب في وجوب الصوم، وإن كنا نقدر هذا العجز عن التحكم في حركة هذه الساعة الفلكية التي لا تخطئ ولو بمقدار عشر في الثانية، دليلا على أن هذا الوجوب الشرعي لصوم شهر رمضان هو مقدر من عند العزيز القدير.

وفي هذا القسم، نلغي أن عقلية المسلم، عقلية فقهية تريد فقه الكون والحياة والإنسان، - (إذ أن حساب المواقيت والأهلة حساب دقيق، في حين أن الرؤية العينية للشهر قائمة على الظن وليس على سبيل اليقين) - ومن جانب آخر؛ فهي عقلية شرعية، تمارس التكليف الشرعية القطعية بالوجوب، وتجتهد في الظنيات، كما أنها عقلية تجعل للزمان والمكان والإمكانات حسابا وعناية بالغة، ومن ثمة فهي عقلية شملت الكون والحياة والإنسان.

٢/ ولنعد إلى الإنسان: إنه يشارك الطبيعة غير العضوية في أن له (حيزا) في (الوجود) و(ثقلًا) لـ(جسمه)، ويشارك الطبيعة النباتية في أن له (حيزا) و(حسا) و(نموا)، ويشارك الطبيعة الحيوانية في أن له (حيزا) و(حسا) و(نموا) و(حركة)، ثم ينفرد عن الجميع بقوة (العقل) المحركة لآلية (الإدراك)، والتي بها يتمكن من اكتشاف الأسباب والقوانين والنواميس التي تصل الأجزاء بالكل، وتؤلف بين مختلف ظواهر الأشياء وعالم الإنسان ...

فالكشف عن (السبب) أو مبدأ (السببية) يعد فتحا جديدا للعقل الإنساني، إذ ميزه الله به، ويعد إضافة قيمة مكنته من إعادة تشكيل عقليته حيث أضحت تعتمد على عمل منهجي يأخذ بأسباب الأشياء ومسبباتها، وبالباحث الحسي التجريبي، وهذا في حد ذاته يعتبر نقلة نوعية، إذ استطاعت الجمع بين النظر والممارسة، وبين المثالية التي هي مطلب استراتيجي لواقع المسلم والواقعية التي تأخذ في الحسبان الممكنات المرحلية والإمكانات المادية من حيث زاوية بعدي الزمان والمكان على مستويي الدور والتعاقب.

بمعنى آخر هناك شمول في التشريع، وواقعية في التنصيص التشريعي، وتوازن في صياغة صورة الكون والحياة والإنسان في حركية متناغمة لا نشاز فيها، وإيجابية في الوسائل

والأهداف، وثبات في الغاية والمقصد، وربانية في المنهج العملي، وتوحيد في إثبات مرجعية هذا كله إلى الله سبحانه.

فالتشريع الإسلامي حينما جاء راعى العناصر الثلاثة الآتية:

(النص) و(الإنسان) و(الحال)، ونستطيع إذن إثبات العلاقة المطردة الحاصلة بين: (الوحي) و(العقل) و(الواقع). ولذا ليس صدفة أن يجعل التشريع الإسلامي للتكليف بصورة أخرى (المسؤولية) شروطاً وعلى رأسها:

(١) العقل: الذي به يستطيع الإنسان أن يعي ويدرك القيم الإنسانية والظواهر الكمية، ومن خلال العقل يمكن المقارنة بين الأشياء في عالم (الأشياء) وبين القضايا في عالم (الأفكار)، ومن ثمة يمكنه اختيار أيسر السبل وأقربها إلى (الحق) الذي هو بصدد البحث عنه. وهذا بدوره يحقق قاعدة الاجتهاد المؤسسة على ركن العقل الذي من خلاله يمكن معرفة الحق، ومن ثمة نحقق الشرط الأول من التكليف الذي هو أداة لتحقيق نظرية المسؤولية من منظور الشرع.

(٢) البلوغ: وهذا فيه مراعاة للناحية الجسدية أي القدرة البدنية، إذ العبادات لابد لها من قوة وقدرة واستطاعة، بواسطتها يتمكن الإنسان أن يحقق مبدأ التعبد لله تعالى على أتم وجه وأحسنه، من خلال التمكن من تأدية الأركان المنصوص عليها في الكتاب مثل الصلاة والصوم والحج وغير من فضائل الأعمال المتروك أمرها لأحوال المتعبد. وهذا الجانب من شروط التكليف فيه تحقيق لمبدأ التوازن بين مختلف القوى العقلية والبدنية والحسية في الإنسان وذلك وفق قانون الاستطاعة الذي أقره الله سبحانه كأداة لتحقيق نظرية المسؤولية وفق مبتغى الشارع كما جاء في النص القرآني: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) (البقرة: ٢٨٦).

(٣) الحرية: عندما ناقشنا الشرط الأول من المسؤولية، وهو توفر (العقل) في (المكلف) حتى يستطيع تحقيق مبدأ الإدراك للواجب الشرعي من خلال آلية التمييز والمقارنة والاختيار بين الأفعال وفق عنصري (الحسن) و(القبح) العقلين، فالعنصر الأخير وهو الاختيار تعبير عن حرية الإنسان في الأفعال، وتوفر الإرادة المنجزة لتمكين الإنسان من أن يخرج العمل من دائرة الوجود بالقوة إلى دائرة الوجود بالفعل. ولكن الحرية تكون في إطار الحد الذي رسمه لها

الشارع، وفي حدود بعدي الزمان والمكان وفي وسع الإمكانيات التي يملكها الإنسان المكلف، وهكذا نصل في نهاية التحليل إلى أن محصلة تلك السنن والقوانين الضابطة لعالم الكونيات وعالم الإنسانيات، من خلال تفاعل (النص) و(العقل) و(الواقع)، هي القاعدة التأسيسية لمفهوم نظرية المسؤولية التي عليها ينبغي تحقيق مبدأ قابلية الحكم الشرعي للتطبيق، وهكذا يتم تنفيذ الأمر الشرعي الذي كلف به الإنسان وما هو في الحقيقة سوى إرادة الله في هذا الوجود، وأخيرا كل شيء جعله الله موزونا ومن ثم يتحقق التفاعل الموجب والتوليف الخالص بين القوانين التكليفية والسنن الكونية في حركة متناغمة دائبة، (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) (البقرة: ١٣٨)، وقال أيضا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٩٠).

المبحث الأول

الرؤية الكونية التوحيدية

مقدمة لقراءة كونية إسلامية:

إن أساس كل فلسفة وكل أسلوب في الحياة قائم على لون خاص من الاعتقاد والنظر والتقييم للوجود، وعلى نوع معين من التفسير والتحليل والتأويل والفهم والاستنباط. وكل مبدأ له انطباع محدد ونمط تفكير مميز في الكون والوجود، وهذا ما يتخذ كقاعدة وأساس وخلفية فكرية بنائية لذلك المبدأ أو ذاك، ويصطلح على هذا الأساس أو تلك القاعدة مصطلح "الرؤية الكونية"، ولذا فكل واحد من الأديان والشرائع والمبادئ الوضعية والفلسفات الإنسانية، يعتمد على رؤية كونية محددة سلفاً، وعليه قسم الحكماء الحكمة إلى قسمين:

- ١ / الحكمة النظرية، وهي تصور الوجود كما هو في الخارج العياني (عالم الظاهر).
- ٢ / الحكمة العملية، وهي فهم خط سير الحياة كما يجب أن يكون (عالم الحقيقة)، لا كما هو كائن. لأن (ما يجب) هو نتيجة منطقية وتحصيل حاصل لما هو (موجود)، وخاصة تلك الموجودات التي تتكفل الفلسفة الأولية والحكمة المتعلقة بها وراء الطبيعة أو ما يعرف بالميتافيزيقا.

١ / الإحساس بالكون ومعرفة الكون:

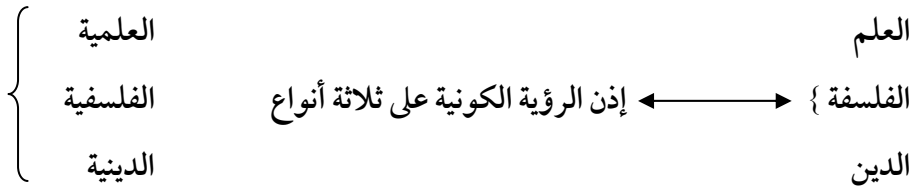
لا ينبغي أن يختلط الأمر في "مفهوم الرؤية الكونية"؛ فيحمل المعنى على "الإحساس بالكون" وذلك بسبب استعمال لفظة (الرؤية) المستعارة من (النظر) الذي هو جزء من الإحساس، وإنما معنى (الرؤية الكونية)، هو معرفة الكون، وبهذا المعنى فهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلة (المعرفة).

والمعرفة من (مختص) الإنسان، و(الإحساس) من (المشترك) بين الحيوان الناطق والعقل وهو الإنسان وبقيّة أنواع الحيوان الأعجم غير العاقل، ولهذا كانت (معرفة الكون)

من (مختص) الإنسان، لأنها من متعلق الفكر والتدبر والتعقل، والمتيقن منه أيضا، أن الإحساس بشيء ما غير معرفة ذلك الشيء؛ فالمعرض الواحد يراه الجميع (العاقل) و(غير العاقل) بشكل واحد، ولكن صنفا واحدا فقط هو الذي يستطيع (تفسيره)، وفي بعض الأحيان يقدم عدة تفسيرات متباينة للأمر الواحد، بتعدد زوايا الرؤية له.

٢ / أنواع الرؤى الكونية؛

إن الرؤية الكونية أو المعرفة الكونية، وبعبارة أخرى أن تفسير الإنسان للكون يكون على ثلاثة أنواع، بمعنى آخر على ثلاثة أضرب لأنه يستلهم من ثلاثة منابع:



أ / الرؤية الكونية العلمية؛

فـ(العلم) قائم على دعامتين: (الفرضية) و(التجربة)، وعلى هذه (الصورة) يحقق (العلم) تقدمه في (اكتشاف) (العلة) و(المعلول) و(الأثر).

إذن (العلم) قادر على أن يمنح الإنسان آلاف (المعلومات) التي تدور حول موجود جزئي واحد، والميزة الثانية لـ(العلم) هي أنه حينما يطلع الإنسان على القوانين والسنن السائدة؛ فهو يهيئ للإنسان (أداة السيطرة) و(التسلط) على (الموجودات) بل (الطبيعة) بأسرها من خلال آلية (المتسخير) التي تجعل كل ما في الكون طيعا منقادا لإرادة الإنسان بفضل تمكنه من إدراك قوانينها وسبر سننها ونواميسها الكامنة فيها، ومن هنا تنشأ (الصناعة) و(التقنية) وتنمو (التكنولوجيا)، وهي أول خطوة نحو (الحضارة) التي تبدأ أولى لبناتها عندما يبدأ (العقل) في تحوير (الأشياء)، ومن ثمة تنفتح سيطرة الإنسان نحو الكون الفسيح بأرجائه ذات الأبعاد اللامتناهية الأطراف!

وبما أن العلم دقيق ومحدود وجزئي؛ فإن دائرة اختصاصه ضيقة، محدودة بالتجربة؛ فهو يتقدم في المجالات التي يمكن أن تخضع عمليا للتجربة، فهو يتقدم عمليا أثناء البحث عن

(الكيفيات) و(الكميات)، ثم يصل إلى مرحلة يتوقف فيها عن الكشف والتفسير والتعليل، وليس له من جواب سوى لفظة (الله أعلم) و(لا أعلم)، ولذا اخصت الرؤية الكونية العلمية بكونها معرفة جزئية ضيقة زاوية الرؤية لأنها محدودة تهتم بالجزء ومن ثمة فهي قاصرة لأنها معرفة غير كلية ولا شمولية..

وهناك نقص آخر في الرؤية الكونية العلمية، ويتمثل هذا النقص في أن العلم أساسه متزلزل وغير مستقر من الناحية النظرية، لأنه متحرك دائما مثل الرمال المتحركة في المستنقعات وهذا من ناحية كشف الواقع كما هو موجود، أو كما هو مرئي، ومن ناحية جلب الإيمان بشكل الوجود وكيفيته، ويتغير شكل الكون و(هياثه) من وجهة النظر العلمية يوما بعد يوم، لأن حقائق العلم قائمة على أساس الفرضيات والتخميات والحدوس والتجارب، وليست قائمة على مبدأ البدييات والفطريات العقلية الأولية، لذا كانت الرؤية الكونية العلمية مزعزة غير ثابتة الأركان والأسس، ولا يمكن أن تصير دعامة إسناد للإيمان، لأن الإيمان يتطلب أساسا مستقرا وغير مهتز الدعامات ومتصفا بالمطلقية والخلود والديمومة.

ولهذا ينظر إلى قيمة الرؤية الكونية العلمية في شقها العملي والفني، وليس في شقها النظري الذي تلخص قيمته في صلاحيته لأن يكون قاعدة للأيدولوجيا، في حين أن القيمة النظرية للعلم هي في أن يكون واقع الكون كما تعكسه مرآة العلم، أما قيمته العملية والفنية له؛ فهي أنها تمنح الإنسان القدرة العملية على الإنتاج المطرد والتقدم الصناعي الدائم ليترد بدوره العمران في الأرض.

ب/ الرؤية الكونية الفلسفية^(١)؛

تفتقد الرؤية الفلسفية للكون إلى الدقة والتحديد الموجودين في الرؤية العلمية، ولكن عوضا عن ذلك؛ فإن الرؤية الكونية الفلسفية تتصف بلون من الجزم واليقين لأنها تعتمد على سلسلة من الأصول التي هي:

١- لمزيد من التوسع والاطلاع بخصوص طبيعة الرؤية الفلسفية والرؤية العلمية والرؤية الايمانية انظر: أسامة علي خضر: القرآن والكون، من الانفجار العظيم إلى الإنسحاق العظيم، المكتبة العصرية-بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، صص ٥٩-١٣٢ في الباب الثاني (رؤية فلسفية بين العلم والقرآن).

١/ بديهية ولا يمكن إنكارها، وهي تتقدم بأسلوب البرهان والاستدلال.

٢/ عامة وشاملة وهي من أحكام الوجود بما هو موجود.

ولهذا تتميز الرؤية الكونية الفلسفية بلغة الجزم والمطلق ويمكن اعتمادها كقاعدة لأية أيديولوجيا، ومن ثمة يمكن للتفكير الفلسفي أن يوضح صورة الكون و(هياته) بشكل عام وأوسع. كما يجب أن نعلم، أن الرؤية العلمية والرؤية الفلسفية للكون، كليهما مقدمة للعمل ولكن في اتجاهين مختلفين من حيث زاوية الاختصاص، إذ الرؤية العلمية مقدمة للعمل بحيث تمنح الإنسان القدرة على (التغيير) و(التصرف) و(التحوير) في أشكال الحياة وأعراضها وفي صورة (الطبيعة) وهياتها من أجل (القدرة) و(السيطرة) و(السلطة) على المخزون الطبيعي والمقدرات الأولية للمادة الخام وآليات الحياة.

أما الرؤية الفلسفية ؛ فهي مقدمة للعمل ومؤثرة فيه من جهة أنها (تعين) له اتجاه العمل و(تبين) للإنسان الطريق التي يختارها في الحياة، وذلك وفق معايير أخلاقية وقيم إنسانية عليا، وهي تؤثر في (رد الفعل) الإنساني إزاء الكون، ومن ثمة تضفي لونا خاصا على نظرتة الكونية، وهي تزود الإنسان بفكرة أو تسلب منه أخرى، لتجعل لحياته هدف ومعنى وغائية في الوجود، أو تقذف به إلى المجهول والفوضى والعبث الوجودي، من غير تبين للمقصد أو لغائيته في وجوده...

ج/ الرؤية الكونية الدينية؛

إذا اعتبرت أية نظرية كلية شاملة حول الكون والوجود، رؤية كونية فلسفية، بصرف النظر عن مبدأ وعن أصل تلك الرؤية الكونية، أهو (القياس) و(الاستدلال) و(التحليل) و(البرهان)، أم هو الوحي من عالم الغيب، وعليه يمكن اعتبار الرؤية الكونية الدينية تصدر من المشكاة نفسها التي استمدت من زيتها الرؤية الكونية الفلسفية قبسها، ولذلك فالرؤيتان الفلسفية والدينية ينشطان في مستوى أفق واحد وعلى صعيد فكري واحد.

أما إذا لاحظنا مبدأ المعرفة من زاوية الرؤية الكونية الدينية ومن زاوية الرؤية الكونية الفلسفية، نلفي أنفسنا أمام نوعين مختلفين من أنواع المعرفة، وفي بعض الأديان كما هو الحال

في الإسلام، اتخذت المعرفة الدينية للكون لونا فلسفيا معتمدا طريق النظر والاستدلال والاعتبار بعد السبر والاستقراء، وهذا يعني أن المواضيع التي استعرضها ذلك الدين اعتمدت على العقل والقياس والبرهان، ولهذا تعتبر الرؤية الكونية الإسلامية، رؤية كونية عقلية وفلسفية في الوقت ذاته، ولهذه الرؤية ميزتا الرؤية الكونية الفلسفية وهما: (الثبات) و(الخلود) والأخرى (العموم) و(الشمول).

وبالإضافة إلى كل هذا؛ فإنها تتمتع بميزة تنفرد بها عن الرؤيتين العلمية والفلسفية، وهي ميزة (القداسة) التي تهيمن على أسس تلك الرؤية وتلون صبغة الخطاب.

والفكرانية (الأيديولوجيا) تتطلب توفر عقيدة الإيمان الخالص، وعندما يتعلق الإيمان بمبدأ؛ فإنه يوفر الاعتقاد بالخلود والديمومة لما آمن به من مبدأ، وعدم تغيير الأصول، وزيادة على هذا فالإيمان يوفر الشعور براحة الضمير والاحترام إلى درجة القداسة والتقديس. وعليه لا يمكن للرؤية الكونية أن تصير أساسا وقاعدة للأيديولوجيا ولا سندا للإيمان، إلا إذا كانت تستمد مصدريتها ومرجعياتها الفكرية من الرؤية الدينية.

ونستنتج من هذا كله أن الرؤية الكونية في حالة واحدة فقط يمكنها أن تكون رؤية مؤسسة للأيديولوجيا، وهذه الحالة هي تلك التي تتمكن فيها من أن تولف بين عمق التفكير الفلسفي وسعته، وقدسية الفكر الديني وحرمة أصوله التي تتميز بالجزم والمطلقية والثبات والخلود، لأن مصدر ذلك ومرجعه إلى الله سبحانه من خلال وحيه ورسالاته.

٣/ إشكالية المعيار في الرؤية الكونية الجيدة:

كيف السبيل إلى أن تكون الرؤية الكونية رؤية جيدة وراقية، كي تمنح للإنسان المعرفة اليقينية المفسرة والمؤولة والمستشرفة؟

من أجل تحقيق هذه الغاية الشريفة والمتمثلة في المعرفة من درجة (عين اليقين) لابد من توفر الخصائص الآتية:

(١) إمكانية ثبوت الرؤية الكونية الجيدة بالاستدلال العقلي، بمعنى تكون محصنة بمعيار العقل والمنطق الذي هو آلة الفكر وعاصمه من الخطأ والزلل.

٢) أن تسبغ على الحياة رؤية بعدية وغائية ومقصدية من خلال الفعل والعمل، وذلك بهدف أن تحتث من ذهن الإنسان وتصوراته ومن نفسه المهوسة في أعماقها بسطحية الرؤية العبثية والسلبية اتجاه القدر من خلال نوازع الفناء التي تملك إحساس الإنسان ومشاعره بسبب طغيان وسواس ما الغاية من كل جهد يبذل أو عمل ينجز إن كانت النهاية المقدرة والحتمية هي (الموت)، ولذا لا بد من أن يصفى وعي الإنسان من هذا الطرح الذي يؤدي به إلى مزيد من الفراغ والضياع الوجودي.

٣) أن تكون قادرة على مد مساحة الأمل في نفس الإنسان، وإيقاد جذوة الحواس وبث روح الطموح المتدفق في مسلكياته وأفعاله.

٤) أن تكون لها القدرة على أن تمنح أهداف الإنسان وأشواق الروح، سواء في صورة النشاط الفردي أم النشاط الجماعي (الحرمة) و(القداسة).

٥) أن تولد في ذات الإنسان مفهوم (الالتزام) والشعور بـ(المسؤولية).

٤ / التوحيد أساس الرؤية الكونية:

إن هذه الميزات المعيارية جميعها، تتوفر في الرؤية الكونية على عنصر (التوحيد) كمبدأ أساسي للرؤية الكونية الجيدة، وهذا يعني أن الإنسان المتبصر المتدبر يمكنه أن يدرك أن الكون أبدعته إرادة حكيمة، وأن نظام الوجود قائم ومشيد على أساس المبادئ الثلاثة (الحق) و(الخير) و(الجمال)، وايصال الموجودات بكمالها ومثالياتها، وتعني أيضا أن للكون (قطبا) واحدا ومحورا واحدا، وتعني أن (ماهية) الكون منه "إنا لله" وأنها إليه "إنا إليه راجعون".

وكل الموجودات في الكون تتكامل بنظام وانسجام في (اتجاه واحد)، ولم يخلق أي موجود عبثا وبلا فائدة ولا هدف، والكون يدار بواسطة سلسلة من الأنظمة القطعية الثابتة التي تسمى بـ(السنن الإلهية)، والإنسان يتميز من بين الموجودات بالشرف والتكريم الإلهي، وهو منوط برسالة كونية في هذا الوجود والمتمثلة في واجب الإعمار في الأرض، وهو مكلف بتربية ذاته وإصلاح مجتمعه؛ فالكون مدرسة للإنسان والله يجازي الإنسان بحسب (نيتة) وبقدر (فعله).

وهذه الرؤية التوحيدية مسلحة بقوة المنطق والاستدلال والعلم، وكل ذرة من ذرات الكون وكل خلية من خلايا الأحياء، الكل ينطق بدلائل الوجود ودلائل القدرة الإلهية.

٥ / الرؤية الكونية الإسلامية:

إن الرؤية الإسلامية للكون في جوهرها رؤية توحيدية، وقد فسر التوحيد في الإسلام بأنقى وأصفى صورة، ففي الإسلام لا يوجد لله نظير (ليس كمثله شيء) - الشورى / ١١ -؛ فهو لا شبه له ولا يمكن تشبيه أي شيء به سبحانه، والله ليس بحاجة على الإطلاق؛ فالكل محتاج إليه، وهو ليس بحاجة إلى أي أحد (أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) - فاطر / ١٥ . والله يعلم كل شيء وقادر على كل شيء (إنه بكل شيء عليم) - الشورى / ١٢) وإنه على كل شيء قدير) - الحج / ٦ -.

وهو سبحانه في كل مكان ولا يخلو منه مكان، ولا يختلف بالنسبة إليه أعلى مكان في السماء ولا أدنى مكان في الأرض، وفي أي مكان نقف فنحن واقفون أمامه (فأينما تولوا فثم وجه الله) - البقرة / ١١٥ . وهو يعلم بمكنونات القلب وخواطر الذهن وهواجس النفس وبكل نية وقصد: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) - ق / ١٦ . وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) - ق / ١٦ ، وهو مركز الكمالات ومنزه من كل نقص: (ولله الأسماء الحسنى) - الأعراف / ١٨٠ ، وهو ليس بجسم ولا يرى بعين:

(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) - الأنعام / ١٠٣ -.

والرؤية التوحيدية الإسلامية للكون تعتبره أحد المخلوقات التي تحفظ بالإرادة الإلهية والعناية الربانية، ولو ابتعدت عنها تلك العناية الإلهية لأسلمت قيادها إلى الدمار والفناء والعدم.

ولم يخلق الكون عبثاً ولا باطلاً، بل هناك أهداف حكيمة تكمن وراء خلق الإنسان والكون، ولم يخلق أي شيء في غير محله أو لم يوضع في نصابه أو من دون حكمة ولا فائدة ولا مقصد شريف أو من غير غاية بعيدة، والنظام الموجود هو أحسن نظام وأكمل، لأن الكون قائم على أساس المبادئ الثلاثة السابق ذكرها ألا وهي (الحق) و(العدل) و(الجمال)، وقد نظم العالم على أساس (الأسباب) و(المسببات)، ولا بد من البحث في كل نتيجة عن مقدماتها وأسبابها الخالصة الباعثة على الفعل، ولا بد أيضاً من النظر والسبر والانتظار والخلوص من

كل مقدمة نتيحتها المعينة، ومن كل سبب مسببه الخاص، ولذا قال القدامى (ليس في الإمكان إبداع خير مما كان).

والقضاء والقدر الإلهي قد شاء أن يوجد كل موجود عن طريق علتة الخاصة به فقط، والقضاء والتقدير الإلهي لأي شيء، إنما هو نفس التقدير لسلسلة علله.

وتجري الإرادة الإلهية في الكون عند تمظهرها بصورة (سنة)، أي بصورة (قانون) وأصل كلي، والسنن الإلهية لا تتغير، وكل تغير يقع إنما هو بحسب تلك السنن، وخير الدنيا وشرها للإنسان يرتبط بلون سلوك الإنسان في العالم ونوعية عمله رد فعله.

وأعمال الإنسان الطيبة والسيئة لا تخلو من ردود الفعل في هذا العالم، بالإضافة إلى عودتها في العالم الآخر بصورة (جزاء) ومكافأة، والتكامل والتدرج من قوانين الله وسننه، والكون ليس إلا مهذا البروز فلسفة الإنسان الكامل.

والقضاء والقدر الإلهي مسيطر على الكون، والإنسان بحكم هذا القضاء والقدر، حر مختار ومسؤول ومسلط على مصيره الخاص، ويتمتع بالكرامة والشرف الذاتيين، وهو مؤهل (للخلافة) الإلهية في (الأرض)، والدنيا والآخرة ترتبطان ببعضهما، وارتباطهما يشبه ارتباط مرحلة (البذر) أو مرحلة (الجنين) بمرحلة (الحصاد) أو مرحلة (الميلاد)؛ فكل أحد يحصد ما كان بذر ولذا جاء في الحديث النبوي في ما معناه (لا يسق أحدكم زرع غيره)، وهكذا ترتبط مرحلة الطفولة بمرحلة الشيخوخة، حيث تكون هذه الأخيرة نتاج مرحلة الطفولة والشباب وكما قيل من قبل (الدنيا مزرعة الآخرة).

٦ / الرؤية الكونية الواقعية:

الإسلام ليس إلا ديناً باحثاً عن (الحقيقة)، حريصاً على الواقع، و"الإسلام" لغة هو (التسليم)، وهذا يوضح حقيقة أن أول شرط ليكون الإنسان مسلماً إنما هو "التسليم" بالوقائع والحقائق، والمسلم الواقعي هو ذلك الإنسان الباحث عن (الحقيقة) والمتعلق بها أينما وجدها وعند أي كان فهو أحق بها من غيره، والمسلم الواقعي لا يعتبر طلب (الحقيقة) محدوداً بمرحلة زمنية من عمره، ولا منحصرًا بمنطقة خاصة ولا مقصوراً على

أفراد معدودين، لأن الأسوة الكبرى للمسلمين صلى الله عليه وسلم قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)^(١) وقال في ما معناه (الحكمة ضالة المسلم، أينما وجدها فهو أحق بها)^(٢). لذا نجد الإسلام يهاجم الظنون السطحية وبداءة الرأي، ويحارب كذلك التقليد الأعمى الذي يجعل من الفرد إمعة ويسفه عقيدة (إننا وجدنا عليه آباءنا)، والتبعية المطلقة للتقاليد الراكدة والسنن الموروثة الآسنة، لأنها ضد روح التسليم والبحث عن الحقيقة ومكبلة للعقل الإنساني وكابحة له عن الاكتشاف لسنن الله المبثوثة في الكون والحياة، وتوجب الخطأ والانحراف عن الجادة والوقوع في المهلكة بسبب مجانبة الحق والبعد عما يحث عليه الإسلام من تحرير للعقل وللإرادة الإنسانية في سعيها وهي تطلب (الحقيقة) المجردة والمنزهة عن كل شائبة ونقيصة.

٧/ مبدأ الوجود والواقع المطلق هو الله؛

إن الإنسان موجود باحث عن الواقع، ومع أن علاقته بالأشياء عن طريق التفكير إلا أنه يستفيد من التفكير باعتباره وسيلة ورابطة عمل، وهو يعلم أن واقع الأشياء غير الصور الذهنية والأفكار التي توجد لديه. والواقعيات التي يدركها الإنسان عن طريق حواسه والتي يطلق عليها إسم "الكون"، إنما هي أمور لا يمكن فصلها عن الخصائص الآتية:

أ/ المحدودية؛

إن الموجودات (المشهود) و(المحسوسة) لدينا بدءاً بأصغر (ذرة)، وانتهاءً بأكبر (نجم)، كلها محدودة ومنتهية، وتعرف اصطلاحاً بـ(المتناهي في الصغر) و(المتناهي في الكبر)، لأنها مختصة بمساحة محددة من المكان، وبمرحلة معينة من الزمان، وهي ليست موجودة خارج إطار (المكان) و(الزمان) وقيده، وقد قال سبحانه: (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا. لا تنفذون إلا بسلطان) (الرحمن / ٣٣)

١- أخرجه ابن ماجه في سننه، ٢٢٤، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ٩-٨، الطبراني في الكبير ١٠٤٣٩.

٢- سنن الترمذي ٥/ ٥١، ابن ماجه ٢/ ١٣٩٥.

ب/ التغيير:

كل موجودات الكون تخضع لمبدأ (التغير) و(التحول)، ولا يبق أي موجود على حالة واحدة في هذا الكون المحسوس؛ فهو إما أن يكون في حالة (النضج) و(التكامل)، وإما أن يكون في حالة (الضعف) و(الانحطاط)، وكل موجود (مادي) محسوس؛ فهو يطوي مرحلة وجوده في (دورة) (مبادلة) مستمرة تجري في أعماق واقعه، وهذا إما أن يأخذ شيئاً من واقعية الأشياء الأخرى وفق مبدأ التأثير ويجعل ما اقترضه جزءاً من واقعه، وإما يضيف من واقعه الخاص به على الأشياء والمحيط الخارجي المحيط به، وإما يتفاعل مع المستويين في آن واحد.

وليس هناك موجود مادي واحد ثبت على حال واحدة، بل الكل بما أنه في عالم (الأغيار) يتغير ويتقلب من حال إلى حال، وهذا لأن (التحول) سنة مطردة من بدأ الكون إلى منتهاه، وصدق العزيز القائل: (وتلك الأيام نداؤها بين الناس) (آل عمران: ١٤٠)، وقال (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) (يس: ٣٨).

ج/ الارتباط:

من ميزات هذه الموجودات (الارتباط)؛ فأى موجود نلاحظه نجده (مرتبطاً) أو (مشروطاً) بمعنى أن وجوده مشروط بتوفر وجود شيء أو عدة أشياء آخر بمرتبة (الأسباب) المؤدية إلى نتائجها، أو (العلل) إلى (معلولاتها)، بحيث إذا وجدت (العلل) و(الأسباب) حصلت (المعلولات) و(المسببات)، وإذا انعدمت عللها وأسبابها انعدمت أيضاً من الوجود، وبهذا تصوير (الموجودات) (مشروطة) بتقدير وجود شيء آخر مرتبط بها من حيث (علة) (الحدوث)، ومن ثمة تصبح العلاقة طردية بين العلة والمعلول من حيث الوجود والعدم.

د/ الحاجة:

لما كانت الموجودات (مشروطة)؛ فهي إذن من باب آخر (محتاجة) (للغير)، لتلك الشروط والعلل والأسباب التي بها يتحقق الوجود من عدمه، وهكذا تصوير دائرة (الحاجة) في اتساع مستمر يشكل في النهاية دورة وجود كاملة تتشابك في كل حلقة من حلقاتها فئة موجودات ومن ثمة تتعدد صور الوجود التي هي في حقيقة أمرها تعد مرحلة من مراحل اطراد الحياة أو

انتكاسها ومرحلة من مراحل نمو واطراد الكون وتزايد مخلوقاته واتساع نطاق حدوده وقد قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ (فاطر / ١).

هـ / النسبية:

إن الموجودات (نسبية الوجود)، ومن حيث كمالات الوجود، فإذا وصفنا الموجودات بالكبر والعظمة أو بالقدرة والقوة أو بالجمال والكمال، أو بالقدم والوجود؛ فإن تلك الأوصاف المطلقة على الأعيان وعلى الذوات وعلى الأشياء، إنما تكون بالقياس وبالمثالة وبالمشابهة إلى الأشياء الأخرى؛ فمثلا كبر جرم الشمس بالقياس إلى حجم الأرض والكواكب السيارة حولها في درب التبانة، ولكن الشمس نفسها صغيرة بالقياس إلى بعض النجوم مثل الشعرى وقد قال سبحانه:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى﴾ (النجم / ٤٩).

وكل وجود وكمال وجمال ومعرفة وعظمة وقوة وجلال؛ فهو كذلك بالقياس إلى ما هو أدنى منه رتبة في سلم الوجود، أما إذا قيست هذه الصفات لما هو أعلى منها رتبة في سلم الموجودات ستقلب النتيجة إلى عكس وضعها الأول، فيتحول الوجود إلى تجل، والكمال إلى نقص والمعرفة إلى جهل والقوة إلى ضعف، والعظمة إلى ذل وحقارة والجمال إلى قبح.

والقوة العقلية التي يمتلكها الإنسان وبها تتميز به من استعدادات عالية لا تقنع بمستوى الظواهر لا على صعيد التحليل والقراءة والتفسير والتأويل والبرهنة، ولا على صعيد الاستخلاص والنتيجة واليقين، وهذا بعكس الحواس الخارجية وآلياتها في تقصي الأشياء ومحاولة تفسير حقيقة الوجود، إذ القوة العقلية الإنسانية تنفذ إلى أعماق الوجود؛ فتحصل بذلك ملكة الإدراك وحاسة الشعور فتنتج المعرفة بماهية الوجود وتستشعر أبعاده المادية والمكانية والزمانية والكيفية المختلفة، ومن بين الأمور التي يتم إدراكها بواسطة القوة العقلية أن الوجود لا يمكن أن تحدده هذه الأمور الخاضعة لسنة التغير ولقانون النسبية في النتيجة والأداء والمشروطة والمحدودة في أفعالها بعوامل خارجية تتحكم في سير أدائها والمحتاجة دائما لدعم من غيرها، ومن ثمة يتحول مفهوم العلوم الطبيعية من اعتبارها معرفة للطبيعة إلى معرفة لله سبحانه قائمة على نظر عميق وأشمل في آياته الكونية الظاهرة لكل متبصر في صفحة

الكون الكتاب المفتوح المنظور وبذلك تتطابق حقائق الكتاب المسطور مع حقائق الكتاب المنظور، ولقد قال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٦٤).

٧/ وحدة العالم:

أَيكون العالم بما يساويه من الموجودات الطبيعية المكانية والزمانية في مجموعه واحدا حقيقيا؟

أيلزم أن تتمتع المخلوقات بلون من الوحدة من خلال توحيد الله في الذات والصفات والأفعال؟

وإذا كان العالم كالشيء الواحد المترابط فما هو هذا الترابط؟

أهو نوع من ترابط أجزاء البناء المرصوص المتراص اللبنة فهو ترابط ميكانيكي وفيزيائي من أجل وظيفة ما؟

أم هو لون من ارتباط أعضاء الجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؛ فهو ترابط عضوي وبيولوجي من أجل وظيفة محددة؟

ومن ثمة هل ارتباط أجزاء العالم بالعالم من نوع الارتباط الميكانيكي الفيزيائي أم نوع من الارتباط العضوي البيولوجي؟

لقد أيد الفلاسفة المحدثون وخاصة الفيلسوف الألماني "هيجل" (أصل العضوية)، وهو يقصد به ارتباط أجزاء الطبيعة بالكل مثل ارتباط الأعضاء بالجسم، ويعتمد هيجل في إثبات هذا الموضوع على أصول يتوقف قبولها على قبول كل فلسفته، وقد اقتبس أتباع هيجل الماديون أصحاب (المادية الديالكتيكية)، هذا (الأصل) منه وغيروا الاصطلاح إلى "التأثير المتبادل" أو أصل (الارتباط العام بين الأشياء)، أو أصل (ارتباط المتضادات)، وبدؤوا

يدافعون عنه بشدة زاعمين أن ارتباط الجزء بالكل في الطبيعة إنما هو ارتباط عضوي وليس ارتباطا ميكانيكيا، ولكنهم عند ما يصلون إلى مرحلة الإثبات؛ فإنهم لا يستطيعون سوى إثبات الرابطة الميكانيكية، وفي الواقع أنه لا يمكن إثبات كون العالم بمنزلة الجسم الواحد وكون علاقة الأجزاء بالكل هي علاقة عضوية اعتمادا على أسس الفلسفة المادية.

أما الفلاسفة المتألهون فإنهم كانوا ينظرون إلى هذا الارتباط عندما قالوا إن (العالم إنسان كبير) وأن (الإنسان عالم صغير)، ومن بين الفلاسفة المسلمين كان "إخوان الصفا" أكثرهم إصرارا على هذا الموضوع، وقد نظر العرفاء بدورهم إلى الوجود والعالم بعين واحدة قبل الحكماء والفلاسفة. إذن حقيقة العالم (منه) و(إليه)؛ ومنه نستنتج أن العالم ليس حقيقة متحركة وسيالة، بل هو (عين الحركة والسيلان). هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد أثبتت التجربة والسبر في موضوع (الحركة)، أن وحدة (المبدأ) و(المنتهى) و(المسير) تمنح (الحركة) لونا من ألوان (الوحدة). وبما أن العالم صادر من مبدأ واحد ومتجه إلى منتهى واحد وهو يتحرك في مسير تكاملي واحد؛ فإن ذلك يسبغ على العالم لونا من الوحدة والانسجام.

٨ / الغيب والشهادة:

إن الرؤية الكونية الإسلامية هي رؤية توحيدية تنظر إلى العالم على أنه مكون من مجموع الغيب والشهادة، وقد ورد ذكر الغيب والشهادة بكثرة في القرآن الكريم، وأكد على الغيب واعتبره ركنا للإيمان: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة / ٣) و﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام / ٥٩).

والغيب هو المخفي، والمخفي على قسمين: نسبي ومطلق؛ فالغيب النسبي هو ذلك الشيء المخفي عن إنسان واحد أو عدة أفراد بسبب بعدهم عنه أو لعلته تشبه هذا، وقد وردت كلمة الغيب في القرآن بهذا المفهوم النسبي في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ (هود / ٤٩).

ولكن القرآن الكريم يطلق كلمة الغيب في مواضع أخرى للدلالة على الحقائق (غير المرئية)، وهناك فرق بين وشاسع بين واقع يمكن أن نحسه وأن نلمسه ولكنه لبعده عنا أو لمانع آخر يحجبه فهو لا يرى، وواقع لا يمكن أن تدركه الحواس الظاهرة وإن استشعرت وجوده

النفوس لأنه غير مادي وغير محدود بأبعاد هذا الكون الممدود؛ فلذا فهو خفي ولا يكاد يبين، ولذا فالقرآن الكريم عندما يذكر المؤمنين يقول إنهم يؤمنون بالغيب؛ فإنه لا يقصد به الغيب النسبي لأن الناس جميعا من المؤمنين والكافرين سواء يعترفون بهذا الغيب، وكذلك عندما يقول جل ثناؤه:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾؛ فهو يحصر الغيب بذات الحق سبحانه، هذا الغيب ينسجم منطوقه مع الغيب المطلق في مفهومه وهو لا يتلاءم ومعنى الغيب النسبي، وعندما يذكر عالم الغيب وعالم الشهادة معا في قوله تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الحشر / ٢٢)؛ فهو يقصد الغيب المطلق، وهنا نتساءل: كيف هي العلاقة بين هذين العالمين وهذين الحدين، أي عالم الغيب وعالم الشهادة؟

ولا نستطيع أن نوضح علاقة الغيب بالشهادة بتعبير مادي وحسي، وأقصى ما يمكننا هو أن نقرب إلى الذهن مفهومه بمثال يساعد على إدراك المعنى الأصلي على الحقيقة والصورة، وهو: مثل علاقة الفرع بالأصل، أو الشخص بالظل؛ فيكون هذا العالم بمنزلة انعكاس لصورة ذلك العالم على صفحة المرآة التي هي بمنزلة القلب الذي تنتهي إليه حقيقة اليقين فيعكس نور الحق على ما يحيط به في الوجود ليهتدي به كل موجود.

المبحث الثاني

العالم الإنساني في إطار الصيرورة التاريخية

مدخل منهجي^(١):

إن العلم يدرس الظواهر المتنوعة في الكون، ليكتشف قوانينها والروابط المنطقية بين السبب والنتيجة، ليصل في النهاية إلى (علاقة ثابتة) تقوم عليها ظواهر الطبيعة (القانون).

وهذا العلم (علم الظاهر) أو (الظواهرية) في مراحل الأولى يعتمد على الملاحظة الحسية كأساس قاعدي للبحث العلمي، ثم تأتي المرحلة الثانية (عملية التجريب) القائمة على أساس تحويل (الظواهر الكيفية) إلى (ظواهر كمية) متوخية بذلك الدقة في النتائج والمعلومات، والمرحلة الثالثة (النظام) بمعنى الإقرار بوجود أسباب معينة بذاتها وشروط ثابتة قارة تؤدي إلى نتائج ثابتة مطردة كلما تكررت الظاهرة نفسها.

وعندما توحى الظاهرة بتعدد الأسباب، وتداخل العوامل وتشابكها، يضطر (العلم) إلى افتراضات (فكرة عقلية) لتفسير الظاهرة، ولهذا يمكن تعريف الواقعة العلمية بأنها: (بناء وإنشاء الحوادث الطبيعية في أطر عقلية بمشاركة المعطيات الحسية والعقل بلغة الكم).

لكن هذا التعريف لا تخضع له إلا الظواهر الفيزيائية القابلة للتجريب المخبري (شروط التجربة المكانية والزمانية اصطناعية) قياساً على الظاهرة في الحالة الطبيعية. وتوجد إشكالات منهجية على المستوى الإبيستيمولوجي^(١) تطرحها طبيعة المنهج العلمي في التعامل مع الظواهر الكونية، ويمكن تحديد هذه الإشكالات في ثلاث نقاط:

1- لمزيد من الاطلاع والتوسع في فهم طبيعة التفكير العلمي ونشأة العلوم وتطورها انظر: توماس س. كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة حيدر اسماعيل، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧.

١/ دراسة العالم الفيزيائي تقوم على مقادير الكم وتصنيف العناصر.

٢/ دراسة العالم البيولوجي تتم في جو من التغير والتكاثر.

٣/ دراسة العالم الإنساني في إطار الصيرورة التاريخية.

والإشكاليات قائمة على أساس المعطيات الآتية:

أ/ دراسة العالم الفيزيائي لا تتم إلا على الظواهر الكبرى Monde Macroscopique أما الدراسات المجهرية الجزيئية (المتناهي في الصغر) فلها أطرها الخاصة، وهي منهج الإحصاء ومنهج الأعداد الكبرى القائم على قوانين الاحتمالات. لأن كل الأنظمة المجهرية يطلق عليها مبدأ علمي يعرف باسم (مبدأ غير الثبات لهايزبرغ^(١))، وهو أننا لا نستطيع معرفة العوامل التي تضبط (النظام) في وقت ما من غير أن نسلم من الوقوع في (خطأ) تقدر قيمته بكمية تسمى بـ (ثابت بلانك)، وهذه الثابتة حقيرة بالنسبة للقياس الإنساني ولكنها هامة بالنسبة للقياس المجهرية، وهذا كاف كي نعتبر أن في النظام قوانين خارقة للأصول الأساسية للعلم وهو يفتح الباب ويبقيه مفتوحاً لأمد ليس باليسير كي نفترض احتمال المداخل الروحية في كل حالات النظام، وعلى هذا؛ فمبدأ (الحتمية) و(التنبؤ) أصبح أمراً لاغياً لا اعتبار لوجوده، لأن (العلم) عرف من خلال معطيات الفلك نطاقه المحدود، أما ما وراء السديميات، وراء مئات الملايين من السنين الضوئية؛ فإنها الوقوف على اللانهائي الكوني، وهنا يفقد التفكير العلمي معناه وموضوعه، لأنه لا يختص -أي العلم- إلا بـ (الكم) و(العلاقة) و(الحالة)؛ فمبدأ (الحتمية) و(التنبؤ) يبقى من صفات المذهب الميتافيزيقي الذي يبحث في اللانهائي والغائية، حيث يستطيع أن يقول بكل وضوح "الله أعلم"، أما العقل (المخلوق) فمجال بحثه لا يكون إلا في المادة المخلوقة.

١- لمزيد من الاطلاع بخصوص محدودية التفسير المادي للظواهر الكونية، انظر: وحيد الدين خان: الدين في مواجهة العلم، ترجمة ظفر الاسلام خان، مراجعة عبد الحليم عويس، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨١ م. صص ٤١-٥١.

٢- فرنار هاوز نبرغ، فيزيائي ألماني حائز على جائزة نوبل سنة ١٩٣٢، اكتشف مبادئ الفيزياء الحديثة، ولد في ميونخ ١٩٠١ توفي ١٩٧٦.

ب/ دراسة العالم البيولوجي^(١) تتم في جو من (التغير) و(التكاثر)، وهذه بعض أسباب صعوبة دراستها، ولذا نجد مادة الكربون هي الوحيدة المختارة لتكون أساس تركيبة الكائن الحي، وهذا لأنها:

١/ ناقصة غير مشبعة، كثرة الانفكاك والارتباط بالمواد التي تحيطها، شديدة القلق والاضطراب (عالية الارتداد والاهتزاز) وهذا يوافق (التغير) الذي هو:

صفة (الكائن الحي) ⇐ من أجل الوصول إلى (صورة التوازن والاستقرار).

٢/ تعتبر كذلك مادة الكربون عنصراً نشيطاً، احتمالاته الكيميائية لا حصر لها، وقد ثبت بالحساب أن الجزيء الذي يحتوي على عشرين ذرة من الكربون يمكنه أن ينتج مليون صورة لتركيبات جديدة ⇐ وهذا يوافق (التكاثر) الناتج عن تعدد العلاقات والتفاعلات الكيميائية، التي تؤدي في النهاية إلى متتاليات كيميائية لانهائية تكون في الأخير ⇐ شبكة العلاقات الحيوية للكائن الحي.

كما يوجد (الماء) (مادة الحياة) وقد صدق سبحانه في قوله (وجعلنا من الماء كل شيء حياً)، لقد وقف علماء الكيمياء الحيوية مشدوهين أمام هذه الظاهرة، عندما وجدوا الماء يؤلف معظم النسيج الحي، ويدخل في كل بنية حية كشرط ضرورة وفريضة؟...

وهذا للخصائص الموجودة فيه الآتي ذكرها:

١/ تركيب الماء الذري قلق غير مستقر لأنه غير مشبع ⇐ يؤدي إلى صورة (التغير) من خلال حاجته إلى إلكترونات أخرى من أي مادة يلامسها، هذا هو سر قدرة الماء على إذابة المواد وتحليلها إلى أيوناتهما ⇐ من أجل الوصول إلى (صورة التوازن والاستقرار).

1- لمزيد من الاطلاع على حقيقة الطبيعة البيولوجية لجسم الإنسان والأسرار الإعجازية فيها، انظر: خالص جلبي: الطب محراب للإيمان، جزءين، دار الكتب العربية بالتعاون مع مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٩٧١ و١٩٧٥، وأعيد طبعه بالجزائر عن دار الهدى، عين مليلة سنة ١٩٩١، وأيضا كتابه حوار الطب والفلسفة، دار المنبر للنشر-دمشق، ط١، ١٩٩٩.

٢ / الماء توازنه الكهربائي ناقص، لذا يروي من العطش، وله فعل آخر وهو: قدرته على تحويل مادة البروتين إلى كتل غروية جيلاتينية في حالة تماسك كهربائي لا هو بالتجن ولا بالتخثر.

بهذا يكون الماء مادة خام حية شديدة الحساسية لتقلبات البيئة، وهذه صفة أساسية في الحياة من أجل صورة H_2O (التكاثر).

النتيجة:

١ / تتميز الكائنات الحية على مستوى (الظاهرة البيولوجية) بالوحدة التركيبية، باعتبار الكربون والماء لاحتوائهما على خاصية (التغير) و(التكاثر).

٢ / وحدة المنشأ التركيبي المتمثل في الماء والكربون يؤكد على وجه تنظيم وتخطيط داخلي يؤدي إلى التوازن العام كنوع من (البرمجة) ..

إذ (التغير) و(التكاثر) لا يتم إلا وفق معادلات رياضية على مستوى (الذرة) خاصة بعينها، وعلى أو وفق معاملات وتفاعلات كيميائية على مستوى (الخلية) هذا ينتج وحدة التوجيه البنائي Métabolisme المؤدية إلى صورة (الوحدة العضوية)، وهذه الأخيرة تؤدي بدورها إلى (الوحدة الوظيفية) في إطار البناء الحيوي العام.

٣ / اشتراك المادة الحية مع المادة الجامدة في عناصر التركيب العام، إذ نجد عند تحليلنا للمواد المكونة للمادة الجامدة نجدها ذاتها المكونة للمادة الحية ففسحان مخرج الحي من الميت؟

٤ / اشتراك المادة الحية مع المادة الجامدة في نوعية (البعد الكوني)^(١)، إذ نجد مثلاً الآليات المحركة للخلية هي القواعد الأزوتية الأربعة Adénine, Cytosine, Guanine, Thymine، وتتحد فيما بينها بحسب قواعد منتظمة ثلاثية A.D.N والتي تعتبر الشفرات الوراثية المحددة لنوعية الأحماض الأمينية العشرين، وهذه الأخيرة هي المكونة للخريطة الوراثية للصفات

١ - أسامة علي خضر: القرآن والكون، من الانفجار العظيم إلى الإنسحاق العظيم، المكتبة العصرية، ٢٠٠٦ صص ١٣٣ إلى ٥٤٨ في الباب الثالث (القرآن وعلم الفيزياء). وكذلك من صص ٥٥١ إلى ٧٣١ من الباب الرابع (القرآن وعلم الفلك).

(صفات الكائن الحي)، وأي تغيير لمكان المورثات ينتج عنه تغيير في النظام الهندسي للمادة الوراثية وبذلك يمكن تغيير دوره أو وظيفته ؛ فإذا تتبعنا هذه العمليات المجهرية المتناهية في الصغر خطوة خطوة قد تبلغ بنا ملايين السنين.

٥/ إذن هذا (التغير) و(التكاثر) المؤديان إلى (التنوع) في الأفراد والوظائف، والعوالم المجهرية - البيولوجية الجزيئية - المتناهية في الصغر كلها تتم وفق قوانين ومعادلات رياضية وكيميائية ثابتة، وهذا يؤدي إلى نوع من القانون أو النظام والسنن في الوظائف والعلاقات الوظيفية، قد يطلق عليه (الحتمية) المؤدية \Rightarrow إلى (غائية) محددة سلفاً (مبرمجة)، مثل: الحفاظ على بقاء النوع المتمثل في A.D.N، حيث أن الجسم الحي بعد تحلله عند انتهاء دورته الحياتية، يتفكك لكن مادة A.D.N تبقى من أجل بقاء النوع الإنساني واستمراره؛ فالفرد ينحل وينتهي إلى ذرات كربون، لكن (النوع) يبقى متواصلاً يحمل رسل نوعه إلى الأبد من أجل غائية حددت منذ الأزل، وهي بناء الحضارة أو الاستعمار في الأرض بحسب منطق القرآن الكريم..

ما نستخلصه من هذا المدخل المنهجي:

أن ظاهرة (التغير) و(التكاثر) في ظل (الثبات) المتمثل في القوانين والمعادلات الرياضية والكيميائية المحددة للعلاقات الوظيفية بين الذرات والخلايا، والكائنات الحية وبين بني الإنسان، هي نفسها الظاهرة الموجودة على مستوى الفرد - الإنسان، إذ هناك خاصيتان للشخصية الإنسانية وهي: (تغير) و(نمو) و(تكاثر) لهذا النوع البشري، تغير على المستوى البيولوجي وكذلك على مستوى الأفكار.

كما يوجد (الثبات) في (شخصية) الإنسان، إذ هناك أمور جوهرية مثل نوع المزاج النفسي والتركيب العقلية، بل حتى على مستوى العمليات العضوية الدائمة.

فالشخصية الإنسانية سواء على المستوى البيولوجي الحيوي البحت كما رأينا، أو على المستوى النفسي والفكري، تعيش (الثبات) في ظل (التغير) و(التكاثر)، وتعيش التغير والتكاثر في ظل الثبات، لذا نجد ثلاثة مراحل يمر بها الإنسان ك(فرد) قبل أن يصير إلى (شخص) وهي:

١ / مرحلة عدم التمايز الجسماني أو الشيثي، إذ لا يستطيع أن يفرق بين ذاته وبين الأشياء الأخرى المحيطة به، إذ لا يشعر بأنه كينونة مستقلة.

٢ / مرحلة التمايز الجسمي أو الشيثي والشخصي: تكون بمقدار تجربته في عالم (الأشياء)، فيبدأ يتعرف على وجوه الناس وأولها وجه أمه ثم وجه أبيه ووجوه اخوته فيما بعد؛ فيتمكن من الشعور بوحدته الجسمية واستقلال كينونته.

٣ / مرحلة التمايز العقلي: ومن خلال علاقته بأمه وأبيه ومحيطه الأسري ثم الاجتماعي، يبدأ بتكوين عالم أفكاره الخاص به، ويبدأ بالمقارنة ودواليك حتى يتم له تحقيق التمايز العقلي. لذا توجد علاقات وطيدة بين الجانب النفسي والجانب البدني عند الإنسان؛ فقد تؤثر حالات نفسية حادة على صحة الإنسان البدنية، كما قد تؤدي الحالة الصحية المتدهورة إلى اعتلال النفس، وهذا يعرفه أطباء علم النفس - البدني.

وهنا نكون قد أتينا إلى مبحث العالم الإنساني في إطار الصيرورة التاريخية^(١).

دراسة العالم الإنساني في إطار الصيرورة التاريخية:

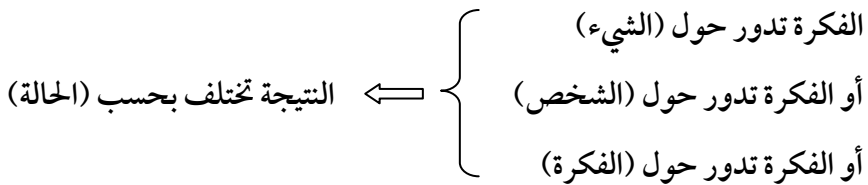
النتيجة التي نخرج بها من المدخل المنهجي الذي صدرنا به للموضوع، هو أن حياة الإنسان محكومة بظاهرة (التغير) و(عدم الثبات) على حالة واحدة، وفي حقيقة الأمر الحالات المختلفة التي تعترى حياة البشر عند النظر إليها من زاوية مقابلة هي (قانون) يسير الحركة الإنسانية، لأنها صفة ملازمة لكل أفراد النوع الإنساني.

لكن هناك اعتراضات قامت في وجه علماء التاريخ وعلماء الاجتماع على حد سواء، وهي: كيف يمكن اعتبار التاريخ علماً؟ في حين يسود حياة الإنسان عدم الثبات على حالة واحدة، والتناقضات الكثيرة لا يمكن إخضاعها للتجريب المخبري.

هذا الاعتراض في هذه الأيام لا قيمة له، وهذا من عدة وجوه:

١ - لمزيد من الاطلاع والتوسع انظر: خالص جليبي: جدلية القوة والفكر والتاريخ، دار الفكر المعاصر - بيروت / دار الفكر - دمشق، ط١، ١٩٩٩م.

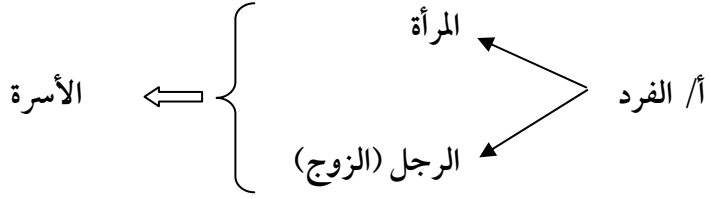
١ / التفكير العلمي يبحث في: (الكم) و(العلاقة) و(الحالة)، وهو يشترك في هذه المواضيع مع الباحث الاجتماعي الذي يبحث في (حالة) المجتمع التي يمر بها و(العلاقات) و(نوعيتها) التي تربط أفراد المجتمع وتحدد (شبكتهم الاجتماعية)، كما يبحث في (كم الأشياء) المحيطة بالإنسان ومدى تأثيرها في (عالم الأشخاص) و(عالم الأفكار)، لأنه عندما تكون حركة الإنسان متمثلة في صورة:



٢ / كما أن الباحث في المادة الحية يهتم بحالة (التغير) و(التكاثر) التي تسود عالم البيولوجيا، وبما أن (التغير) هو صفة الكائن الحي، الذي يسعى من أجل الوصول إلى صورة التوازن والاستقرار؛ فإن عالم الاجتماع والتاريخ يهتم كذلك بظاهرة (التغير) التي تطبع حركة الإنسان التي تحدد عبر نقاط انعطاف حاسمة لمصير الحركة التاريخية، إذ من خلال نقاط الانعطاف نعرف مستوى (الصعود) و(الهبوط) و(الانتشار) و(الانحسار) لنشاط مجتمع ما.

لأن كل حركة إنسانية تسعى للوصول إلى صورة (الاكتمال) و(النضج) و(الاستقرار)، أما ظاهرة (التكاثر) التي تصادف الباحث العلمي في مجال (البيولوجيا) فهي - أي الظاهرة - تبدأ من (الجزء البسيط) حتى تصل إلى (الكل المركب)، وهذا الأخير بدوره يتحد مع أجزاء جديدة أو مع كل آخر، ليكون (صورة جديدة) لتركيبات جديدة، وهذا يوافق (التكاثر) الناتج عن تعدد (العلاقات) والتفاعلات الكيميائية، المكونة في الأخير لشبكة العلاقات الحيوية للكائن الحي.

والعالم الاجتماعي هو أيضا عندما يعنى بدراسة (ظاهرة التكاثر الإنساني) التي تبدأ من:



ب/ الأسرة (أ) + الأسرة (ب) + الأسرة (ج) + الأسرة (ن) = مجموع الأسر

ج/ مجموع الأسر \Longleftarrow يكون مجموع العلاقات الاجتماعية

د/ التكاثر والتنوع في الحاجات والوظائف المؤدية إلى \Longleftarrow بحالة نشأة المجتمع^(١).

من هنا أصبح في مقدور الباحث المهتم في مجال الاجتماع والتاريخ، الاستعانة بمعطيات علوم أخرى مثل علم النفس وعلم الاحصاء والاقتصاد والسياسة، بل حتى بعلم وظائف الأعضاء، وأن يجعل من موضوع الاجتماع والتاريخ علما قائما بذاته، يستخرج من خلاله قواعد الاجتماع البشري الضابطة لحركة العمران، وتحديد أصوله..

1- مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر - دمشق، ط ٢، ٢٠٠٦، صص ١٣٣-١٥٦.

المبحث الثالث

دراسة ظاهرة الحركة

الإنسانية وصيرورة التاريخ

نضع في بداية الموضوع مقدمات (مسلمات) تسهل لنا البحث الذي نحن بصددده.

١ / الحضارة = إنسان + تراب + وقت

$$\text{٢ / الحضارة تتكون من} \left\{ \begin{array}{l} \text{الجانب المادي (المدني)} \\ \text{الجانب المعنوي (الثقافي)} \end{array} \right\} \times \text{المعامل الديني}$$

٣ / التاريخ = حركة الإنسان \times معامل الزمن

٤ / الإجتماع = تفاعل عالم الأفكار + عالم الأشخاص + عالم الأشياء

٥ / شبكة العلاقات = مجموع المنتج الثقافي المتمثل في السلوك

٦ / حركة الإنسان = مجموع التفاعل بين (العقل) + (القلب) + (اليد)

التحليل:

إن غريزة الاجتماع المميزة للإنسان هي الوسيلة التي من خلالها يتم تكوين النواة الأولى لمجتمع ما، وأساس الاجتماع الإنساني هو (الحاجة) إلى الغير من أجل إكمال جوانب النقص الحياتية بمعنى (الضرورة)، وعليه يمكن اعتبار ظاهرة أو قل عملية الاجتماع هي بداية حركة من نقطة الصفر من أجل الوصول إلى غاية معينة تحددها طبيعة العلاقات الاجتماعية المتكونة من نسيج ثقافي يعتبر هو المحيط الذي يصوغ كيان الفرد من خلال تعامله مع عالم أشخاصه وعالم أفكاره وعالم أشياءه الخاص به، كما يعتبر هذا الموروث الثقافي هو مجموع القواعد الأخلاقية (الضابط) والجمالية (الدوق). من هنا يمكننا فهم الحركة الإنسانية التي يشترك فيها

العقل والقلب واليد، والتي هي أساس شبكة العلاقات ابتداء من نزعة الإنسان إلى الاجتماع وتكوين روابط أسرية إلى حالة الاندماج في الغير (المجتمع).

وبما أن شبكة العلاقات الاجتماعية هي أساس تكوين أي مجتمع؛ فإنها تقوم بموجب (الحاجة) و(الفكرة)، لأن النقص يدفع إلى البحث عن الكمال، كما أن (الضرورة) تدفع إلى تلبية (الحاجة)، ومن أجل ملء الفراغ لا بد من (فكرة) تحكم خطة الإنسان.

ولما يبدأ الاجتماع بموجب الحاجة تتبادل المنافع بين الأفراد، ويحصل التكامل، ويكثر الانتاج وتنوع الأفكار بتنوع العادات والأمزجة واختلاف مستويات الإدراك، وهذا في الأخير يؤدي إلى نوع من النسيج الثقافي ويكون خاصا بهذا المجتمع وصياغة أفراده تتم في هذا الإطار؛ فتصبح لهذا المجتمع أعراف وتقاليد تحكمه قوانين أو نطلق عليها النظام كما يمكن إطلاق إصطلاح الحتمية المؤدية إلى غاية.

إذن هذا المجتمع الذي يتحرك سعيا نحو غاية رسمها لنفسه بعدما مر بمرحلة الميلاد هو مجتمع تاريخي يريد إنتاج حضارة..

لكن كما مر معنا نرى أن الحاجات والأهداف تتمثل في صورة سلوك إنساني واعي تحكمه قيم وأعراف وتقاليد تكون في الأخير ما نطلق عليه إصطلاحا (ثقافة)^(١)، أي أن الإنسان في المحصلة هو جملة مبادئ، هو المجرد هو المعنى وليس المادة أو الكتلة البيولوجية؛ فالثقافة هي الخاصية والمميز الإجتماعي الذي يطبع سلوك الأفراد، ومحصلة هذا كله نطلق عليه ما نسميه: إفراز الإرث الثقافي في صورة سلوك.

وحتى نستكمل جوانب هذه الدراسة لا بد من الإشارة إلى أن الجانب الثقافي فيه (الثابت) وفيه (المتغير)؛ فالأول هو: ما يتخذ صورة القدسية والخلود بسبب مصدريته، والثاني هو: الذي يتخذ صورة (الطقس الإجتماعي) حيث يمكن إندثاره عند مواجهته بالشكل الأول الذي هو (المطبوع) وغير (موضوع)!!..

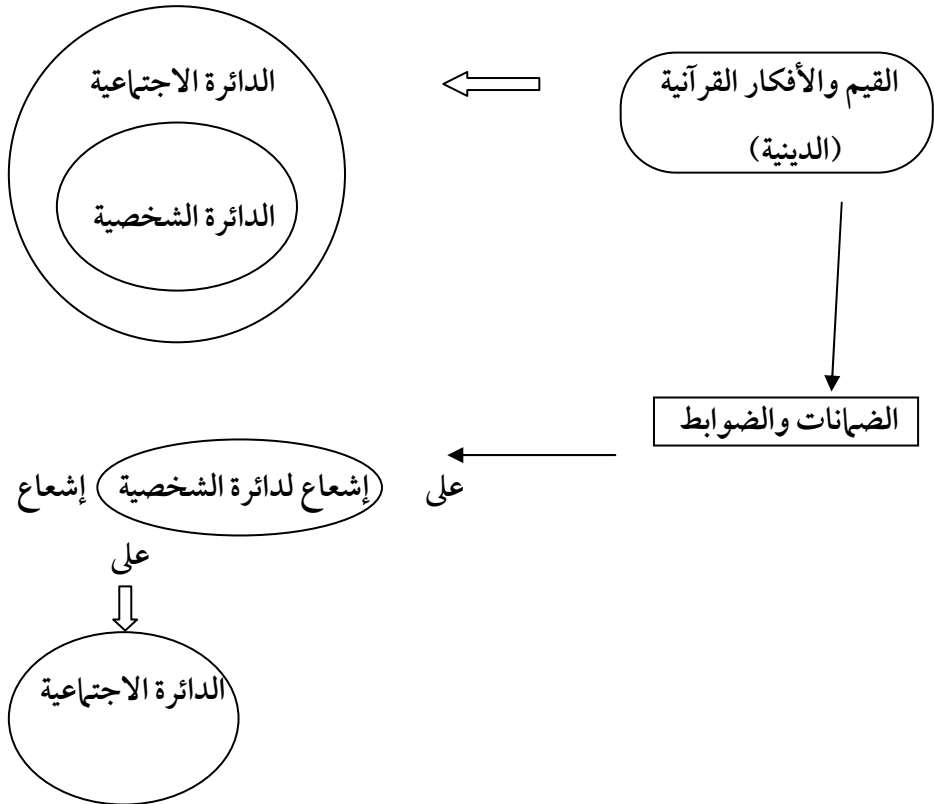
١ - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر - دمشق، ط ٥، ٢٠٠٠، ص ص ٧٦-٧٨ (في مبحث معنى الثقافة في التاريخ ومبحث معنى الثقافة في التربية).

وعليه فما مدى تأثير الفكرة (الأيدولوجيا) أو (الدين) في عملية البناء الاجتماعي؟..

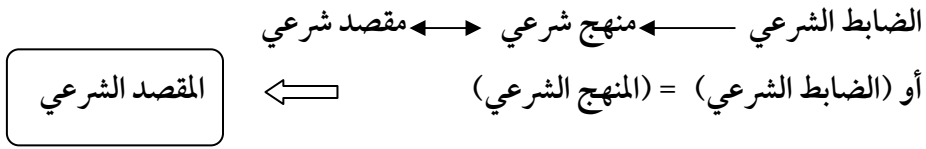
الفرد يمثل الدائرة الشخصية، أما المجتمع يمثل الدائرة الاجتماعية، والإسلام حين يهتم في الخطوة الأولى من عملية تكوين البنية الاجتماعية للمجتمع بالفرد؛ فهو يقوم بعملية تحصين (الأنثا) - الدائرة الشخصية - لتزويدها بمناعة ذاتية ضد عملية التلويث التي قد ترد من طرف المحيط الاجتماعي، ومن ثم تنعكس سلوكات الفرد الممثلة في دائرته الشخصية على الهيئة الاجتماعية؛ فتؤثر فيها بإنعكاس إشعاعها على الدائرة الاجتماعية.

أي أن الذي يحدد العلاقة من حيث طبيعتها هو (الضمير الديني) الذي يعمل عمل المراقب ليقوم بعملية الكف والحرمان في الوقت المناسب لكبت السلوكات الحادة، ويكيفها لتسلك طريقها وفق مقتضى مطلب (الفكرة الدينية).

ويمكن تمثيل هذا كله في الشكل الآتي:



إذن القيم والأفكار القرآنية التي تمثل الضمانات والضوابط الشرعية من أجل تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية هي في حقيقة الأمر: "منهج شرعي لأن مصدره إلهي لتحقيق المقاصد الشرعية"، وهذا يلخص في الصورة التالية:



بهذا يمكن فهم مدى متانة شبكة العلاقات الاجتماعية أو رخاوتها؛ فإذا كان المجتمع يتحرك في جميع أشكال إصداراته وأفعاله وفق مقاصد الفكرة الدينية، أي أن تكون هناك خاصية التوافق بين درجة التوتر الأخلاقي وإشعاع الفكرة الدينية؛ فإن المجتمع سيتسم بصورة الاندماج والانسجام الكلي بين أفراده، بمعنى آخر حصول صورة ما يسمى في الإصطلاح بـ "الإجتاع" أو "المجتمع".

أما إذا كان المجتمع في كل حركة يفقد خاصية الوحدة والانسجام في الفعل الإجتماعي؛ ففي نهاية المطاف سنحصل على أفراد متفرقين في صورة حركات انفصالية، بمعنى أدق سنفقد ما يسمى بـ "المجتمع".

المجتمع إذن، يعاني من حالة مرضية بسبب تآكل آليات الفعل الإجتماعي المتمثلة في الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي، في هذه الصورة المأساوية تصاب مناطق التوارد الذاتي المكونة للمحتوى الداخلي للإنسان بالورم الخبيث، حينئذ تتضاءل الأشواق وترهل شبكة العلاقات الاجتماعية، وتتقلص فرص الحياة ويدق ناقوس الخطر مؤذنا بهلاك المجتمع، الذي لا يبق منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ!..

"وعليه؛ فالفرد يكتسب مجموعة إنعكاساته، كما يكتسب المجتمع شبكة علاقاته، والعلاقة وثيقة بين جانبي المسألة؛ فهي علاقة كونية تاريخية. إذ أن المجتمع يخلق الإنعكاس الفردي، والانعكاس الفردي يقود تطوره"^(١)

١- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، مصدر سابق صفحة ٦١.

فالمراحل السابقة والمتمثلة في حركة الإنسان (غريزة الإجتماع) والمكونة لشبكة العلاقات الإجتماعية (نقطة الميلاد) وتكون (المجتمع)، تسعى - أي هذه المراحل - في الأخير إلى تكوين:

(حضارة) التي هي غاية الحركة الإنسانية.

ونجد أصدق تمثيل وتلخيص لهذه المراحل كلمة (أمة) والمكررة في كم موضع من القرآن الكريم، والتي تعني القصد والسييل والغاية، هذا عند إرجاع أصل الكلمة إلى أم بمعنى قصد وعزم، التي تنطوي على أربعة معان:

١/ إختيار، ٢/ حركة، ٣/ تقدم، ٤/ هدف.

كما تعني أمة (القدوة) مثل ما جاء في سورة البقرة: (قال إني جاعلك للناس إماما. قال ومن ذريتي. قال لا ينال عهدي الظالمين) البقرة: ١٢٤.

وقد تعني المجتمع الأمة، كما يمكن أن تتلخص الأمة في إنسان فرد مثل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أي أنه يتلخص في مجرد احتمال حدوث تغيير في المستقبل، مازال في حيز القوة، تحمله فكرة في رحم الزمن يمثلها هذا "الإنسان"^(١).

وبما أن الحركة تتطابق مع مفهوم التغير والتطور، اتخذت عنصرا جوهريا في التعريف عند علماء الاجتماع. وعليه، فالإسلام لم يعتبر الدم أو العرق أو الولاء أو الأرض وغير ذلك مما تواضع عليه البشر في عرف إجتماعهم البشري الرابط الأساس والأقدس بين أفراد الإنسانية، بل هو "المسير" نحو "هدف"؛ فالأمة تعني الحركة من نقطة إلى نقطة أخرى، ويشترك أفرادها في الوجهة وفي القبلية والهدف، وهذا عين تعريف الحركة التاريخية القائمة على أساس:

أ/ حركة مستمرة.

ب/ إنتاج دائم لأسبابها.

ج/ غايتها (تحديد الاتجاه).^(٢)

1- علي شريعتي: الأمة والإمامة، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت ٢٠٠٧، ص ٣٣.

2- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص ١٧.

لأن السكون يؤدي إلى الانعدام، وعدم الإنتاج يؤدي إلى الركود، معناه أن هذا المجتمع فقد مبررات وجوده حيث يصاب العقل والقلب واليد بالشلل التام، وقد ينتج أيضا عدم وجود غاية أو هدف واضح الملامح؛ فنتج الفوضى والاضطراب اللذان يؤديان إلى التفسخ والانحلال فالانعدام!..

والحركة المحصورة بين نقطتي (أ) و(ب) مشروطة ب (منطق) معين يمكن أن نطلق عليه اصطلاحا (الأيدولوجيا) أو (الفكرانية) أو (العقيدة) أو (الضابط)، هذا من طرف (أ)، بينما من حيث (المنتهى) أو (الغاية) و(الهدف) و(المقصد)؛ فالنقطة (ب) مربوطة ومشروطة بـ(حاجة) تمثل في فكرة مثل: الشيوعية أو الديمقراطية أو الإسلام، أو الحق والخير والجمال، أو الجنة والنار، كما يمكن أن نطلق عليها الإصطلاح القرآني (الوعد) و(الوعيد) هذا من طرف (ب).

ففعالية العمل الإنساني تكون مرتبطة ومشروطة بمقدار تأثير الأفكار والغايات التي تريد الوصول إليها والمبادئ التي يؤمن بها، وهذه هي الطاقة الحيوية والقوة الروحية المتمثلة في خط متطابق مع العمل المثمر الفعال، الهادف إلى ما هو أعلى، المحلق فوق ما هو أدنى.

إذن الحركة الهادفة تدل على وجود التزام يحدد في صورة (واجب) أو مسؤولية من أجل الوصول إلى (الحق) أو الكمال المطلق؛ فهدف الإنسان ليس الوجود بل الصيرورة، وفي المحصلة نجد:

١/ الصيرورة: باتجاه الكمالات المطلقة.

٢/ المسير (الحركة) باتجاه القيم المتعالية.

هنا نصل إلى نقطة الانتهاء، إذ المجتمع الذي يسير في هذا الخط وبهذه السرعة يكون قد دخل التاريخ الذي اصطلحنا عليه سابقا في الصورة الجبرية التالية:

التاريخ = حركة الإنسان x معامل الزمن.

في هذه الأثناء يمكن صنع الحضارة التي تتكون من جانب (مادي) مدني، ومن جانب (معنوي) ثقافي، كلاهما مضروب في المعامل العقدي (الدين) أو (العقيدة)..

هنا يتكون لدينا ناتج حضارة = الإنسان + تراب + وقت.

والملاحظ دائماً هو أننا نجد الإنسان في جميع الحالات هو محور الحدث ونقطة الارتكاز، فمن دونه لا معنى للوجود ولا للأشياء، لأنه مركب معقد يحمل في طياته جميع المؤهلات والاستعدادات للصعود كما يمتلك جميع أسباب ودوافع الرزوح إلى أسفل سافلين، وذلك بسبب اكتسابه حرية الاختيار والحركة (الإرادة).

وبهذا نكون في الأخير قد أتينا على مفهوم الحركة الإنسانية والصيرورة التاريخية، لكن الجانب الأهم في الدراسة هو كيفية تكون شبكة العلاقات الاجتماعية التي عرفناها في بداية الموضوع على أنها: مجموع المنتج الثقافي في صورة سلوك، ومعرفة كيفية تفسخها عند فقدان مبررات وجودها (الغاية) من الوجود...

القسم الثالث

(الإسقاط)

المبحث الأول

المتغيرات السياسية في الساحة الدولية

إن المتتبع للأحداث الدولية الراهنة، سيجد معالم عهد قديم بدأت في الإدبار والتولي أمام معطيات عهد جديد بدأت معالمه تلوح في الأفق وتبدو للعيان.

إن العهد الحديث الذي مد شبكة الهوائيات المقنعة في العالم وفجر الذرة واستعمل الطاقة النووية في مشاريعه الحيوية، واستعمل تكنولوجيا الحاسوب في تخزين الأسرار الدولية ومد الاتصالات بشبكة الألياف البصرية، إن هذا كله ليدل دلالة صريحة على الانقلاب الذي أحدثته التطور العلمي في تاريخ البشرية والذي بدأ يذق أبواب عهد جديد لا نعرف اسمه بعد!،،.

هذا العصر الذي نتقلب في فلك أحداثه صباح مساء، هو عصر الصاروخ الكوني الذي سيحمل الإنسان إلى ما وراء المجموعة الشمسية، بل نستطيع أن نلقي عليه إسم "جيل الصورة" على هذا العهد، لأن وسائل الإعلام تغيرت بسبب تطور تكنولوجيا السمع - البصري والاتصال عبر السواتل، إن هذه التكنولوجيا هي التي رافقت الإنسان المعاصر في قفزاته العملاقة نحو الفضاء الخارجي ابتداء من أول محاولة قام بها يوري غاغارين^(١) وانتهاء بالطائرات الفضائية مثل "تشالنجر" و"ديسكوفريه".

أصبح عالم اليوم أشبه ما يكون بقرية، بسبب وسائل الإعلام والمواصلات؛ ففي مجال الإعلام وفرت التكنولوجيا عالية الجودة - خاصة بعد إيجاد تكنولوجيا الصورة ثلاثية الأبعاد - ربط الإنسانية كافة من مختلف أصقاع الأرض بها من وسائل الضغط السيكولوجي المكون من سنن الإعلام المعروفة ألا وهي الكلمة والصورة والخبر، بل حتى الأغاني

١- يوري غاغارين، رائد فضاء سوفياتي ولد في عام ١٩٣٤، يعتبر أول إنسان يتمكن من الطيران إلى الفضاء الخارجي والدوران حول الأرض في عام ١٩٦١ على متن مركبة الفضاء السوفياتية فوستك ١، توفي في ٢٧ مارس ١٩٦٨ في حادث طيران.

والفكاهات صارت مادة إعلامية توظف كأداة لصناعة المشاعر وتكوين الأفكار وتوجيه الرأي العام إلى غايات مرسومة ووفق خطط مدروسة سلفا ببراعة فائقة.

أما في مجال المواصلات؛ فقد تم الربط بين أقاصي المعمورة بالتكنولوجيا المستعملة في مجال الطيران وكذلك البحرية، حتى غدا التنقل من نقطة (أ) إلى نقطة (ب) يسيرا قد لا يستغرق في بعض الأحيان سوى دقائق معدودة ضف إلى ذلك توفر البريد الإلكتروني بفضل تطور تكنولوجيا البرمجيات الحاسوبية، كما لا ننسى تقدم فيزياء الأجسام الصلبة وفيزياء السوائل والتي بدأت تجد تطبيقاتها إلى التطبيق الميداني بفضل العالم الجزائري "بنات" الذي يعمل في أحد مخابر اليابان، إذ استطاع أن يغير المفاهيم الفيزيائية الكلاسيكية والحديثة - أي فيزياء نيوتن وأينشتاين -، وهكذا صار أمر التنقل البشري وتبادل الأخبار والمعلومات هينا لكل من أراد، وكذا الأمر بالنسبة لتغيير المواقع السياسية من نقطة إلى أخرى من العالم، وقديما صدق الصينيون عندما قالوا: "صورة خير من ألف كلمة".

إذن عالم اليوم يختصر الطريق ويختزل التاريخ ويعيش تحت قانون إجتماعي وتاريخي جديد هو "قانون السرعة" في جميع أوجه النشاط البشري، وبهذا أضحت الإنسانية تعيش موجة شعور واحد بفعل وحدة المصير المشترك الناتج عن وحدة المصالح العامة، وهكذا بدأت حركة تاريخية كونية جديدة تمتد على المستوى السانكروني وعلى المستوى الدياكروني لصيرورة التاريخ والحضارة. وهذا كله - أي النشاط الشري - يشبه في "عملية الفعالية" تفاعلات الكيمياء التي تحدث بين المواد سواء التي كانت في الحالة الطبيعية أو تلك التي تكون في حالة اصطناعية، التي تحكمها قوانين على مستوى الذرات والجزيئات؛ فكذا (معادلة الفعالية الإنسانية) تحكمها قوانين وضوابط دقيقة، وعلى أساسها نعرف درجة الروابط التي تصل بين أجزاء المركبات من سياسة واقتصاد وثقافة إلى غير ذلك من أوجه النشاط الإنساني...

إذن أساس التعامل الإنساني سواء على المستوى الفردي أو الإجتماعي أو الدولي هو (الحاجة) وبلغة السياسة (المصالح المشتركة)، ولذا يجب أن يكون هناك تناسب طردي بين الطاقة البشرية الهائلة والوظائف الموجودة بمعنى آخر لابد من وجود تناسب بين (الحاجة) و(الوظيفة).

إن شعوب العالم تعيش عصر التكتلات الأيديولوجية وتكتلات الكارتل، وهذا من خلال التطورات العظمى التي حدثت في تاريخنا المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية والتي أعقبها تغيير العواصم السياسية من محور باريس - لندن ليتسع أكثر ويشمل الإنسانية بأجمعها فنتج لنا محور جديد هو: "موسكو - واشنطن"، وهكذا تغيرت موازين القوى والاستراتيجيات الحربية في العالم وفق الخارطة الجيو سياسية الجديدة التي تم رسم حدودها في اجتماع يالطة^(١). وهذا كله تحت إلحاح وتأثير فكرة الحاجة، خاصة بعد وضع "مشروع مارشال"^(٢) الذي نتج عنه هو بدوره كرد فعل منظمة (الكومكون)^(٣) بعبارة أخرى أوضح تغيير صورة الأرض ولكن ليس وفق صورة الأرض تلك التي رسمها لنا ابن حوقل أو الإدريسي ولا حتى تلك التي سبقتها نعتي بها جغرافية بطليموس.

.. الحاجة ولدت فكرة التخصص..

الحاجة دفعت إلى ميلاد فكرة التخصص التي دخلت حيز التاريخ منذ سبعة آلاف سنة بسبب ظهور فن الزراعة ونمو هذه الأخيرة نموا متصاعدا مما أدى إلى تغير الأوضاع الاجتماعية والمدنية للإنسان. ومن النتائج المترتبة على الزراعة إحداث ما يسمى في علم الاجتماع (تقسيم العمل)، والذي أدى بدوره إلى (التخصص المهني)، ومن ثم غير هذا المفهوم الجديد في (عالم الأفكار)؛ فنتج بذلك (نهج جديد) في التفكير والتخطيط العملي (المنهج التجريبي) بمعنى مقالة جديدة في المنهج، ومن ثم التأثير في عالم (الأشخاص) الذي غير هو الآخر في (شبكة العلاقات الاجتماعية)، وهذه الصورة نراها بجلاء في أطوار الحضارة الغربية، إذ نتج (المذهب النفعي) الذي أدى إلى التأثير في عالم الأشياء في هيئة: السيطرة على الطبيعة ومحاولة التحكم في سننها بفضل الفلسفة الوضعية وفيزياء

1- مؤتمر يالطا عقد من ٤ إلى ١١ فبراير ١٩٤٥ في مدينة يالطا على البحر الأسود بحضور ستالين، روزفلت، تشرشل، ناقش المؤتمر كيفية تقسيم ألمانيا ومحكمة قادتها النازيين.

2- مشروع مارشال: مشروع اقتصادي لإعادة تعمير أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وضعه وزير الخارجية الأمريكية جورج مارشال وأعلنه بنفسه عام ١٩٤٧.

3- كوميكون: منظمة اقتصادية تأسست في عام ١٩٤٩، تضم الدول الاشتراكية التالية: الاتحاد السوفياتي، ألمانيا الديمقراطية، المجر، بلغاريا، رومانيا، تشيكوسلوفاكيا، بولونيا، كوبا، فيتنام ومنغوليا.

الميكانيكا، واستغلال الخيرات والثروات إلى أقصى حد ممكن وصيغ الحياة بالصيغة الأوروبية؛ فتغيرت ملامح العالم!...

نستطيع وضع منحني بيانيا، سلم السينات (محور س) الأفقي يمثل (حركة الزمن التاريخي) بينما سلم العينات (محور ع) العمودي يمثل (تنامي القيم الإنسانية) بينما (نقاط الانعطاف) تمثل (صيرورة المفاهيم سلبا وإيجابا).

إذا تتبعنا نتائج المنحنى البياني: وجدنا أن فكرة التخصص على مستوى الفرد في المجتمع، هي مرآة تعكس صورة النمو الفكري في ذلك المجتمع، أي أن تلك المجتمعات هي نفسها أفراد من نوع خاص. وعليه؛ فالتكتلات البشرية الموجودة في العالم، كل منها تمثل حاجة معينة من الحاجات التي تقتضيها الحياة الإنسانية اليوم، والحاجات التي اضطرت الإنسان إلى (التخصص) منذ عهد الزراعة معظمها كانت حاجات مادية أي حاجات تخص (عالم الأشياء).. وبتعبير آخر؛ فإن العصر الزراعي كان يمثل مرحلة من مراحل الفكر الإنساني والتي لم يشر إليها أغست كونت⁽¹⁾ في فلسفته الوضعية، أما اليوم أصبحت الحاجات تفرض فكرة (التخصص) على التكتلات البشرية لحاجة (معنوية) وإن لم نقل بالضبط (أيدولوجية)، وهذا معناه أن نقطة الانعطاف في الخط البياني يمثل تغير وجهة الفكرة من (عالم الأشياء) إلى (عالم الأشخاص) بمعنى آخر تغير وجه الثقافة بسبب تغير حاجة الإنسان، أي تغير في فكر وسلوك الإنسان.

نستنتج من هذا تعبير الإنسانية عن حاجاتها (المادية) و(الروحية) في (دساتير) و(مؤتمرات) دولية والتي بسببها تحدد الرسوم البيانية لحياتنا السياسية وتوضع السيناريوهات المستقبلية، وهذا كله يعد نوعا ونمطا من السلوك والفعل الأخلاقي الذي يسود مجتمعات العالم ويؤثر في (شبكة العلاقات الاجتماعية). وقد عبرت الشعوب عن هذه (الحاجة) في عناوين سياسية متنوعة مثل: (الديمقراطية) وهذا منذ عهد الثورة الفرنسية ومبادئها الثلاثة، والتي بموجبها نشأت فكرة (الحريات الفردية) وهكذا واكبت هذه الفكرة (عصر النهضة

1- أوغست كونت: ١٧٩٨-١٨٥٧، عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي، أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن يعتبر المؤسس للفلسفة الوضعية.

الأوروبية) في تاريخها الحديث إلى غاية تاريخنا المعاصر، والسبب في ذلك راجع إلى الإفلاس الروحي الذي أصاب منظومة القيم الإنسانية في مقتل..

.. ليس للدين بعد اجتماعي في حياة الأوروبيين..

لهذا نجد الكثير من علماء الغرب يردون على الغرب، وينذرون بسقوط الحضارة الغربية الوثنية في مضمونها القيمي ويعزون السبب إلى الفراغ الروحي الناتج عن الفكر العلماني المعادي للدين المسيحي، وهذا ما زاد في شرح حضارة الغرب.

ومن النتائج التطبيقية والمترتبة عن انتهاج هذه الفلسفة العلمانية هو اعتبار الديمقراطية القاعدة الفكرية للحركة السياسية في خط العلمانية الليبرالية؛ فاعتبرت الدين قضية ذات بعد مغلق الحدود لا يتعد مستوى الدائرة الفردية للشخص ولا يتجاوزها إلى الدائرة الاجتماعية، ومن ثم ينتفي البعد الاجتماعي للدين في حياة الجماهير الأوروبية.

إلا أن فضائح الرشوة والхиانة المالية مثل: فضيحة إيران -غايت^(١)، وواتر -غايت^(٢)، ليعبران حقا عن إفلاس (المذهب الديمقراطي)، وانخفاض قيمة الدولار والتضخم المالي للبورصة في البنك الدولي لدليل آخر على العجز الذي أصاب التفكير الديمقراطي، كما لا يجب أن ننسى الحرب الأمريكية الأخيرة على العراق والتي فضحت عقم الإستراتيجية الدولية لأمريكا من خلال قصة (قنينة المارد النائم) للملف النووي العراقي، والذي لم يصل بالمتبعين في هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي إلى أن ما في الوثائق السرية لأجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية حول النشاط النووي العراقي لا يعدو أن يكون سوى كذبة من كذب الجان على الكاهن والعراف ليضل ويضل، وهذا دليل ثالث على

1- إيران غايت: صفقة أسلحة سرية عقدتها الولايات المتحدة مع إيران سنة ١٩٨٥ في عهد الرئيس ريغان، لتزويدها بثلاثة آلاف صاروخ تاو المضاد للدروع، وصواريخ هوك أرض - جو، واستعمال أموال الصفقة لتمويل حركات الكونترا المناوئة للنظام الشيوعي في نيكاراغوا.

2- فضيحة ووترغيت: هي أكبر فضيحة سياسية في تاريخ الولايات المتحدة في عهد الرئيس نيكسون، حيث نصبت أجهزة تنصت وتجسس بمقر الحزب الديمقراطي في عام ١٩٧٢، اتهم فيها الرئيس الأمريكي وجرت محاكمته بعد استقالته في عام ١٩٧٤.

الخلل التوازني الذي تعرفه المجتمعات الغربية بسبب فساد سياسة حكوماتها وخاصة المجتمع الأمريكي، ولذا كانت الحرب على العراق أو ما صارت تعرف في الأدبيات العسكرية بإصطلاح (الحرب الإستباقية) على الإرهاب الدولي بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ميلادية.

وهكذا ظهر التكتل الأوروبي في صورتين، الأولى: في شكل السوق الأوروبية المشتركة، والثانية: في شكل الحلف الأطلسي والذي صار بعد الحرب الأمريكية الأخيرة محل إعادة النظر من طرف فرنسا وألمانيا وروسيا خاصة بعد أن خرقت الولايات المتحدة التقاليد والأعراف الدولية بل أنها ذهبت إلى أكثر من ذلك لما اصطنعت دولا جديدة من أوروبا الشرقية القديمة ومن بعض الدول الآسيوية ودول أمريكا اللاتينية كبديل عن دول الحلف التقليديين الذين وصفهم ممثل خارجية الولايات المتحدة بإسم (القارة العجوز)^(١) وهكذا تغيرت الرهانات الجيو استراتيجية الدولية بسبب مطمح أمريكا في تقديم نفسها في صورة الإمبراطورية الرومانية العسكرية وهذا وفق السيناريوهات المستقبلية التي وضعتها مخابر البنتاغون وعبر عنها كتاب فوكو ياما الشهير (نهاية التاريخ)^(٢).

ونجد في الطرف المقابل من العالم، أنه كانت هناك نزعة جديدة مع مطلع القرن العشرين منذ ثورة أكتوبر العظمى عام ١٩١٧، وهي فكرة (الإشتراكية) والتي طبعت فلسفتها بعض ملامح هذا القرن بطابعها في الميدان القومي والدولي كما لا ننسى أيضا أن الحركة الفكرية والأدبية التي عرفتها روسيا القيصرية في نهاية القرن التاسع عشر كان لها دور كبير فيما بعد إذ بفضل أعمال بوشكين وتشيفخوف وتولستوي ومكسيم غوركي وغيرهم ظهرت (الواقعية)

-
- 1- القارة العجوز: هو مصطلح يطلق على قارة أوروبا، لكثرة عدد كبار السن فيها، بسبب قدم حضارات القارة كالإغريقية والرومانية والبيزنطية، ولأنها جزء من العالم القديم بالأصل آسيا وأوروبا وأفريقيا.
 - 2- فوكو ياما - نهاية التاريخ: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، كتاب فلسفي اجتماعي من تأليف السياسي والفيلسوف الأمريكي فرانسيس فوكو ياما، ولد المؤلف في عام ١٩٥٢، يعمل حاليا بالإضافة إلى التدريس بالجامعة في هيئة تخطيط السياسات بوزارة الخارجية الأمريكية وفي معهد السياسة الخارجية.

وتيار الوعي، و(الفلسفة العبثية)^(١) أيام الحرب الأهلية الإسبانية^(٢) التي ساهم في إذكاء أتونها أدباء وفنانون أمثال أرنست هيمنغواي وبيكاسو، و(الوجودية)^(٣) فيما بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبا على يد الفيلسوف الفرنسي جون بول سارتر، والملاحظة التي نسجلها أن فكرة الاشتراكية وفق المذهب الديالكتيكي لهيغل تعتبر نقیضا لأطروحة الديمقراطية التي زرعت بذورها الأولى مع أفكار إنجلز الصناعية وظهور البرجوازية الجديدة كبديل عن نظام الإقطاع القديم التي ساد ردحا من الزمن في أوروبا إلى غاية الثورة الفرنسية التي سحبت البساط من تحت قدمي النظام القديم وأتاح الفرصة لتنامي الرأسمالية الأوروبية الجديدة بفضل ظهور عهد جديد هو عهد (الثورة الصناعية)^(٤) التي غيرت الكثير من المفاهيم حول الطبيعة والإنسان، قلنا إذن أن النظرية الاشتراكية التي وضع أسسها كارل ماركس وفريدريك أنجلز لم تجد القبول والتطبيق في البلدان الصناعية الأوروبية الأكثر تطورا، وإنما في الحلقة الأضعف من النظام الرأسمالي العالمي وهي روسيا القيصرية، نظرا لظروف القهر التي كانت تعانيه الشعوب والقوميات المنضوية تحت السيطرة الروسية، واستبداد السلطة والاقطاع والكنيسة، بالإضافة إلى الإرث الفكري والنضالي والعمل الدؤوب للحركات الثورية وتضحياتها الجسام، وإلى نجاح فلاديمير لينين في تطوير النظرية الماركسية.

1- الفلسفة العبثية: تيار فكري أدبي يرى أن الإنسان ضائع لم يعد لسلوكه معنى في الحياة المعاصرة - وأن مجهوداته لإدراك معنى الكون دائما ما تنتهي بالفشل الحتمي، ولذلك هي عبثية، ذلك لأن هذا المعنى المنشود غير موجود.

2- الحرب الأهلية الإسبانية: كانت حربا بين الجمهوريين الموالين للديمقراطية من الشعب الإسباني وكبار قادة الجيش بزعامة الجنرال فرانكو المعروف بفاشيته، استمرت من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩، سقط خلالها آلاف المواطنين قتلى وامتلاّت السجون، كان نتيجتها أن حكم فرانكو إسبانيا طيلة ست وثلاثين سنة حتى وفاته عام ١٩٧٥.

3- الوجودية: تيار فلسفي يميل إلى الحرية التامة في التفكير بدون قيود، ويؤكد على تفرد الإنسان وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجه، أشهر من يمثلها جون بول سارتر والرفيقة سيمون دي بوفوار.

4- الثورة الصناعية: هي تعويض العمل اليدوي بالمكننة. إن البلدان الأوروبية شهدت خلال القرن الثامن عشر نهضة علمية أدت إلى اختراعات واكتشافات مهمة كانت السبب في قيام الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر.

لقد كان الإنسان محل اهتمام ماركس إذ لم ينظر إلى غيره، وأولى مشكلات الأرض عنايته الفائقة ولم تكن السماء تعنيه في شيء إلا بالقدر الذي يجعل من السماء أداة لاستغلال الإنسان واستعماله، بدل تقدير مكانته واحترامه. فالماركسية انشغلت باستغلال الإنسان من قبل الإنسان وبتوظيف الدين كما يوظف المال والعمل لقهر الإنسان وسحقه. من هنا جاء رفضها لاستعمال الدين في تبرير القهر وتسويغه، ما دفع ماركس لاعتباره بهذا المعنى أفيونا يعمي الإنسان عن التفكير في مصيره، وفي رفض قبول استعماله كآلة أو كشيء. وهذا ما كانت الكنيسة تفعله^(١).

لم يعن ماركس كما يتوهم بعض المتأسلمين بهذه المقولة الإسلام بل كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم محل تقدير منه -أي ماركس- لمكانته كنبى وصاحب رسالة وأنه رسول من السماء إلى الأرض، بما تحتمله هذه الإشارة من معنى، لا يخرج عن سياق الفكر الماركسي، فهو عني بها الدين كفكرة تقوم على وضع في شرط غيره وفي حكمه وتحت سيطرته، وتتهمه بالعجز والقصور وإن ما يصدر عنه هو حكم سابق لا دخل له فيه، ما يعني أنه آلة تمشي على الأرض دون إرادة أو تفكير. لقد سبق أبو بكر الرازي (٢٥٠هـ - ٣١٥هـ) ماركس إلى هذا بعدة قرون، حيث كشف عن هذا الشطط والتمادي في استعمال الدين أو تأويلات الدين ونصوصه السلفية المفرطة في تأويلاتها كأفيون لتنويم الناس وتحذيرهم حتى لا تتكشف حقيقة ما يذهبون إليه، مما لا علاقة له بالدين في الأصل أي ما لا علاقة له بالقرآن والسنة.

ومر على ميلاد (البيان الشيوعي) مائة وتسع وستون سنة كاملة، ويحتل الفكر الاشتراكي مساحة واسعة من الخارطة الجيو-سياسية وكان له أثر ووقع في المجال السياسي والاقتصادي والعسكري والعلمي، إذ أعتبر (قيمة) من القيم العليا التي تسد (حاجة) من حاجات الإنسانية (الضرورية)، لكن سنة ١٩٩١ تعد سنة نكسة بالنسبة للفكر الاشتراكي؛ حيث تم بأمر من الرئيس السوفييتي السابق بوريس يلتسين حل الاتحاد السوفييتي.

1- К.Маркс и Ф.Энгельс Полное собрание сочинения изд.прогрес Москва , 1965. т.15.стр.253.

بل إن فكرة (التقارب) و(الإنفتاح) على الغرب التي دعى إليها الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشيف والحركة الطلابية في العاصمة الصينية (ربيع بكين)^(١)، لدليلان آخران على تقهقر وعجز الرؤية الإشتراكية عن مواكبة الأحداث وتلبية حاجات الإنسانية الصميمة والتي تعتبر المفاعل الحقيقي لإدراة عجلة الحضارة.

بمعنى آخر إن التطورات (المشهودة) على مستوى أوروبا الشرقية ابتداء بتحطيم (جدار برلين)^(٢)، أي توحيد القطاع الشرقي والقطاع الغربي في إطار رؤيا جغرافية جديدة للقارة الأوروبية، وبذلك يعاد تشكيل أوروبا جوستينيان الأول^(٣) تحت راية كنيسة واحدة، وكذلك التطور الحادث في الاتحاد السوفياتي الممثل في سقوط (الشيوعية) كأيدولوجيا وكواجهة دولية وانكشاف ضعف فعاليتها في البنية التحتية، حتى غدت المطالبة للتخلص منها حاجة ومطلبا جماهيريا وهذا يعني إفلاس الفكرة الشيوعية وفشلها في حل مشكلة الإنسان والمتمثلة في الحاجات الحيوية للشعب على مستوى البنية التحتية، بمعنى آخر أن الشيوعية لم تصل إلى درجة تحولها إلى فلسفة جديدة لحياة لتماماً المجال الروحي للإنسان، مجال القيم والأخلاق.

وهذا كله نتج عن الخلل الحاصل على المستوى الفوقي للدولة، بسبب توجيه كل الإمكانيات الاقتصادية إلى مجال التسليح والسباق التكنولوجي في هذا المضمار بين كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية، على حساب الاحتياج الداخلي للشعب الذي فقد في تركيبته الاجتماعية عنصر (الأمن) الغذائي و(الاستقرار) النفسي إذ أضحى الإنسان يعيش على أعصابه بسبب الحرب الباردة بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي...

1- ربيع بكين: أو أحداث ساحة تيانانمن، هي عبارة عن مظاهرات طلابية حدثت في جمهورية الصين الشعبية بين ١٥ أبريل ١٩٨٩ و ٠٤ جوان من نفس السنة، تطالب بالديمقراطية والإصلاح ومزيدا من الحقوق، على غرار ما قام به غورباتشوف. تم قمع هذه الاحتجاجات بقوة سقط على إثرها عدد غير قليل من الجيش والمتظاهرين.

2- جدار برلين: هو جدار طويل يفصل بين شطري مدينة برلين، بدأ بناؤه في عام ١٩٦١ للفصل بين الألمانيتين الديمقراطية والغربية، تم هدمه في نوفمبر ١٩٨٩.

3- جوستينيان الأول: امبراطور روماني شرقي (بيزنطي) اشتهر باصلاحه الرمز القانوني المسمى باسمه قانون جستينيان، والتوسع العسكري لأراضي الإمبراطورية. حكم خلال الفترة ٥٢٧م حتى وفاته ٥٦٥م.

لذا كان لزاما على الدولة التحرك على مستوى البنية التحتية أي القاعدة والقيام بنهضة إصلاحية وقائية للحفاظ على التوازن بين البنيتين، وللاحتفاظ بالمكانة المرموقة والمؤثرة في الساحة الدولية وبالموقع الاستراتيجي الكبير كقوة ثانية في العالم وهكذا سقط الحزب الشيوعي أمام مصلحة الدولة، وذلك راجع بسبب أن الدولة ناموس كوني وحاجة فطرية وضرورة لأي شكل من أشكال الاجتماع البشري.

وبما أن (الاشتراكية) كفكرة لا تعبر عن أزمة حضارة الغرب النابعة من العمق من الإنسان، بمعنى آخر ليس هناك فلسفة جديدة توظف الحياة الإنسانية وتعطيها بعدا غائيا يملأ روح الإنسان الظامئة...

.. الحلقة المفقودة هاجس الغرب..

بسبب الصراع القائم بين المعسكرين وزيادة حدة التوتر على الساحة الدولية، وتصاعد الحساسية السياسية على مستوى الحرب الباردة ظهرت فكرة ثالثة أبدت دورا لا يقل أهمية عن دور الفكرتين السابقتين، للدلالة كحاجة من حاجات الإنسانية ألا وهي فكرة (السلم العالمي) التي دخلت هي الأخرى كقوة ثالثة على مسرح الأحداث الدولية.

لكن هاجس الخوف من إفلاس هذه الفكرة الثالثة، نجد له صورا تطبيقية على مستوى المجال الإنساني؛ فهذه مؤتمرات تعقد من أجل إعلان عن اتحاد بين دول آسيوية وأخرى إفريقية وأخرى أمريكية، وهذه ملتقيات تتحدث عن مشروع حرب النجوم الأمريكي، وما يمكنه أن يخلفه من أضرار للإنسانية وهذه تخوفات واستطلاعات على قدرات دول العالم الثالث بما فيها من دول العالمين العربي والإسلامي، خاصة فيما يتعلق بمجال البحث في العلوم النووية والكيميائية، وهذه أفلام تدور أحداثها عن حرب كونية ثالثة تدبر رعاها الأسلحة النووية والبكتريولوجية والتكنولوجية الرقمية، وهذه مشاريع تعرض في اجتماعات العملاقين من أجل التقليل من الترسانة العسكرية غير التقليدية (قمة ماستريخت)^(١) للمحافظة على

1 - قمة ماستريخت (ماستريخت): هي القمة التي ضمت رؤساء الدول الأوروبية وأعلنوا عن تأسيس الاتحاد الأوروبي في مدينة ماستريخت الهولندية في ديسمبر ١٩٩١.

التوازن العسكري والسلم العالمي... وما سياسة الأساطيل العسكرية إلا دليلاً آخر على خواء فكرة السلم العالمي من جوهرها. لقد جاء في مقال للدكتور فهمي هويدي بعنوان:

"الإنسان والطبيعة، قراءة إسلامية في ثقب الأوزون"، نشرته جريدة النصر بتاريخ ١٥ ماي ١٩٨٩ ما يلي:

"أصبح الثقب المرصود في طبقة الأوزون هما عالميا، منذ تبين أنه باب لخطر جديد يهدد البشرية بآثار.. لا تفوقها سوى النتائج المتوقعة من حرب نووية عالمية تأتي على حضارة الإنسان وتبيد سكان هذا الكوكب.

"وهذه العبارة منقولة من بيان تورنتو^(١) في كندا الذي صدر قبل عامين، في أعقاب مناقشات مكثفة جرت بين ٣٢٥ من العلماء يمثلون ٤٨ دولة".

لذا نجد ازدياد مخاوف البشرية ومحاولة إقامة حوار فكري بعيد عن عمليات الإسقاط الأيديولوجي القائم على قدم وساق بين الدول القوية والتي في طريق النمو، وهذا بسبب الإشكال "الإيكولوجي" الجديد الذي أعطى مقياسا جديدا لتفهم البنيات الاقتصادية والاجتماعية كنوع من السلوكات الإنسانية.

وهذه النتيجة تدل على إفلاس فكرة السلم العالمي بسبب الإسقاطات السياسية، وهذا بسبب ما تحويه النتيجة من مركبات فلو محصنا النظر لوجدنا أن هذه النتيجة ما هي إلا (مركبة) لمجالين هما: (عالم الشيئية) و(عالم الفكر)؛ فعالم الشيئية أمام هذه الإشكالية الجديدة يفرض نموذجا جديدا يجب التفكير فيه لحل مشكلة الإنسان التي فاقت الأبعاد الجغرافية والعرقية والمذهبية وغدت (مشكلة كونية)...

وعلى مستوى عالم الفكر نجده يؤكد تعسف النظرة الغربية التي تحدد علاقة الإنسان بالطبيعة على أنها صراع الإنسان من أجل قهر الطبيعة والسيطرة عليها بل الكون كله ليغدو تحت سلطته، وفي الوقت نفسه باب أفق فكري جديد لتصحيح موقف الإنسان من الطبيعة، بمعنى أصبحت المشكلة "مشكلة أخلاقية وفكرية"...

١- بيان تورنتو: بيان أصدره قادة مجموعة ال ٢٠، اجتمعوا في المدينة الكندية المشهورة بعد تدارسهم للأوضاع الاقتصادية في العالم، من أجل تجاوز الأزمات والركود الاقتصادي في سنة ٢٠١٠.

ولذا قامت الأدلة الصارخة بإفلاس كلا المذهبين (الرأسمالي والشيوعي) أمام الفكرة الجديدة وهي فكرة (الإيكولوجيا) وفي الحقيقة ما هي سوى رجعة بالإنسان الغربي إلى نفسه ليعيد ترتيب وضع سلم تقدمه الحضاري.

هذا هو واقع العالم اليوم الذي تتمخض فيه الإنسانية بين المد والجزر، الواقع الذي استنفذ الطاقات الروحية للإنسان فنجد أن المنحنى البياني يبين اتجاه سهم القيم الروحية أمام التزايد المتعاضم للقوة الغريزية.

لكن هذا الرسم البياني لمنحنى الحضارة قد بدأ في تغيير اتجاهه أمام الإشكالية الإيكولوجية الجديدة؟..

أي أننا أمام مشكلة (تنمية الإنسان) وليس (تنمية الإنتاج المادي والطبيعي)؛ فهل البشرية في حاجة إلى رسالة سماوية ودين سماوي يعطي للبعد العقدي الواجب تواجده في حياة الإنسان مكانته الواجبة؟...

المبحث الثاني

النظام الدولي: الأطروحة

من خلال سردنا في الفصل السابق لأحداث السياسة العالمية على الساحة الدولية، ورؤيتنا لإرتباط الأحداث ببعضها ارتباطاً عضوياً يؤثر كل جزء منها في بقية الأجزاء الأخرى ومن خلال معطيات التطور الحادث في دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي والمعبرة عن انهيار (النزعة المادية) في المجتمع الشيوعي لإنهيار الأساس المادي للفلسفة الشيوعية، وموجة الخوف من (الغيب) - المستقبل - التي اكتسحت الحضارة الغربية بعد الحرب العالمية الثانية بسبب السباق نحو التسلح وظاهرة التلوث البيئي، كل هذا يجعل من المناخ العالمي أن تتطلع الإنسانية إلى مذهب جديد أو إلى حل جديد يكون أساسه الفلسفي قائماً على عقيدة جديدة، وهذا من شأنه أن يغير موازين القوى الدولية، ويفتح المجال أمام الرؤية (الإسلامية) المؤسسة لتحل محل هذه الدعوات المنهارة.

نود أن نقدم لهذه الدراسة بمخطط بياني يكون كمفتاح تستعمله آليات حركة التاريخ الإسلامي لظاهرة (تغير موازين القوى)، وهذا كالآتي:

١/ النقطة الأولى الدالة على مستوى الارتفاع تعبر عن القرن الذهبي للإسلام والمسلمين، وهو عهد النبوة والخلافة الراشدة، ثم بدأ العالم الإسلامي في الانحدار بداية بموقعة صفين^(١) التي كانت من نتائجها ظاهرة الانقسام ونشوء الفرق الإسلامية والأحزاب السياسية.

٢/ ثم تراوح خط المنحنى بين الارتفاع والهبوط حسب السنين والحوادث التي مر بها العالم الإسلامي، ونلاحظ من خلال المنحنى نوعاً من الاستقرار يدوم إلى غاية زمن الحروب

١- موقعة صفين: هي معركة وقعت بين جيش الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجيش معاوية بن أبي سفيان في شهر صفر سنة ٣٧ هـ، بعد موقعة الجمل بسنة تقريباً على الحدود السورية-العراقية، وانتهت بعملية التحكيم.

الصليبية^(١) وإلى غاية غزو التتار المغول لعاصمة الخلافة العباسية (بغداد) ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، حيث ينحدر الخط البياني وقد قتل الخليفة العباسي المستعصم بالله، وأحرقت (المكتبة) ميراث الأمة الإسلامية وأذلت أشد الذل.

٣/ لكن هذا التاريخ الذي نزل بالمسلمين إلى مستوى الحضيض، ما مضى زمن غير يسير حتى ارتفع خط حركة التاريخ بظهور (دولة الموحدين)، ولكن بسبب الدسائس والاتفاقات السرية أدت إلى ظاهرة الانزلاق في خط الحركة التاريخية الجديدة، وذلك بإنهزام جيش المسلمين في موقعة (حصن العقاب)^(٢) التي كانت تمثل فيها بعد ظاهرة (السقوط الحر) على المستوى العمودي لحركة الإنسان المسلم ذات الامتداد الأفقي لزاوية الرؤية.

٤/ وبعد ذلك بقي سير تاريخ العالم الإسلامي في تذبذب واضح خاصة بعد ظهور دويلات الطوائف في الأندلس ودول المغرب الإسلامي إلى أن جاء القرن ١٤ الهجري، حيث كانت الواقعة الكبرى بسبب ظهور الإستعمار الأوروبي الحديث والذي ما هو في حقيقة الأمر سوى الصليبية بإسم جديد وقناع جديد.

والواقعة الكبرى تتمثل في يوم احتل اليهود فلسطين بموجب وعد بلفور المشؤوم (١٩١٧)، ولم يحرك المسلمون ساكنا، وهذا بعد الوقعة الأولى والتي كانت في الحرب العالمية الأولى حيث انهزمت الدولة العثمانية (١٩١٨)، وقسمت تركتها بين الدول الإستعمارية الكبرى آنذاك وخاصة فرنسا وبريطانيا، وفي الأخير خرج العرب من هذه الحرب بخفي حنين، لا ناقة لهم ولا جمل، أو كما يقال: (لا في العير ولا في النفير).

٥/ ثم ظهور موجات التحرر في العالم العربي والإسلامي، ثم انحدار بسبب الإستعمار الجديد الفتاك "الإستعمار الإقتصادي" الذي أفرز مفهوم (التخلف) و(التبعية) وكذلك

1- الحروب الصليبية: تسمية تطلق على مجموعة الحملات والحروب التي قام بها الأوروبيون من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (١٠٩٦-١٢٩١)، وكانت حملات دينية وتحت شعار الصليب، كان هدفها الأساسي السيطرة على بيت المقدس.

2- موقعة حصن العقاب: معركة حاسمة وقعت عام ١٢١٢م، انهزم فيها المسلمون الموحدون فيها هزيمة ساحقة، وتم على إثرها استرجاع بقية أراضي الأندلس، ولم يتبق للمسلمين إلا مدينة غرناطة والتي سقطت عام ١٤٩٢م.

"الإستعمار الفكري" والذي أفرز مفهوم (الإستقطاب الفكري) و(الإنسلاخ الثقافي) وأيضا مفهوم (غياب الهوية التاريخية) وفق منطق (الهيمنة) في مقابل مصطلح (العصرية) و(المدنية).
٦/ ثم في النقطة الأخيرة نلاحظ بداية (نهوض جديد) في العالم الإسلامي خاصة في نهاية الثمانينيات ولعل السبب الأول والمباشر هو: (إفلاس الأيديولوجيات المعاصرة).

ثانياً: فلسفة الحدث

١/ ظاهرة (المد والجزر) أو الصعود والهبوط (القوة والتدافع) تدل على منعطفات تاريخية، وكل نقطة انعطف تحمل صفات وصور الواقع الجديد الناتج عن تغيير سهم الاتجاه في حركة التاريخ.

٢/ ظاهرة الانهزام في تاريخ الأمة الإسلامية المتكررة تدل على وجود سنن وآليات تخضع لها حركة التاريخ؛ فالنجاح أو الفشل لا يكون أي منهما إلا بتوفر الأسباب وبلغة أصول الفقه "يدور الحكم مع العلة وجوداً وعدماً".

٣/ تغير الأحوال من جيل إلى جيل يدل على وجود عمر أو قل مرحلة تاريخية معينة لكل منعطف في الحركة التاريخية، وهذا بحسب الغاية أو الدور الذي يقوم به جيل ما، أما الجيل الذي يفقد دوره يفقد مبررات وجوده الحقيقية.

وعلى هذا، فكل ما لاحظناه من خلال معطيات المنحنى البياني لحركة التاريخ تدل على وجود (الأسباب) و(الكيفيات) لكل حادثة تاريخية، أي أن ما أصاب الأمة الإسلامية من انهزومات أو انتصارات لم يكن إلا حسب سننية تاريخية تجري على كافة الأمم، فالظلم مثلاً يؤدي إلى الاضطراب وفساد الأحوال، وعليه لابد من فقه التاريخ والاستفادة من الأخطاء السابقة حتى يمكن رسم مشروع المستقبل بالنسبة للعالم الإسلامي، والذي يعيش عصر الصراع الأيديولوجي ولكن تحت اسم صراع المصالح والبقاء للأقوى بحسب منظور الغرب الذي يلغي الآخر من أجل البقاء، بقاء "الأنا".

٤/ من خلال المعطيات البيانية لاحظنا موجات التحرر المعاصرة، المواكبة لإحتدام الصدام بين القطبين (المعسكر الاشتراكي) و(المعسكر الغربي)، وهذا في الحقيقة ما هو إلا لعبة أمم جديدة، من أجل إقحام العالم الإسلامي في مجال الأيديولوجيات الحديثة من خلال النقاط الآتية:

أ/ حاجة العالم الإسلامي للدعم الدولي في ساحة الصراع، بين القوى الكبرى لسد حاجاته الاقتصادية والعسكرية والسياسية؛ فجعل هذا الموقف من العالم الإسلامي خطا لامتداد الشيوعية في مساحة جغرافيا الأمة الإسلامية، بسبب اعتبار حكومات الدول العربية والإسلامية إتباع الاتحاد السوفياتي هو الحل الوحيد للتخلص من الضغوط الأمريكية والأوروبية الغربية.

ب/ وقوع بعض الدول العربية والإسلامية تحت وطأة السياسة الإمبريالية الغربية من خلال التعامل في مجال الاقتصاد والسياسة والدفاع، حيث انتشرت الكثير من القواعد العسكرية الأمريكية في منطقة الخليج والجزيرة العربية (في الدمام، خميس مشيط، تبوك، الرياض، المحرق.. الخ).

ج/ ظهور حركة عدم الانحياز كقوة ثالثة بين القطبين من أجل تحقيق الاستقلال والسيادة والنمو الاقتصادي بعيدا عن التجاذبات الدولية.

النتيجة: "ظاهرة الإنشطار في العالم الثالث"

وبهذا انشطر العالم الثالث إلى شقين هما:

١/ شق وقع تحت عملية الإرهاب ومنطق القوة من خلال التهديد بالمقاطعة الاقتصادية والسياسية؛ فكانت النتيجة أن أضحت سوقا لترويج الإنتاج الغربي وما هو في حقيقة الأمر سوى ترويجا لمفاهيم الغرب ونظراته للحياة على أساس المادة والإنتاج.

٢/ أما الشق الثاني فقد خاض تجربة النهج الاشتراكي في التسيير وتقاسم الثروة والعدالة الاجتماعية، لكن الظروف الدولية وما اتسمت به من الحرب الباردة والمنظمات الدولية ذات الصلة المباشرة بالصهيونية والإمبريالية الغربية أجهضت هذه التجربة وحالت بينها وبين نجاحها بكافة السبل والوسائل.

هذه هي ظاهرة الإستعمار على المستوى الأيديولوجي في العالم الثالث ومنه العالم الاسلامي، وهذا معناه أن الإنسان المسلم لا يجب أن يبقى في صورة عاجزة عن الحركة، بل على العكس من ذلك لابد أن يتفاعل مع الفكرة القرآنية، وهكذا ليخرج من قيد (الإستاتيكا)

وليتفاعل وفق مبدأ (الديناميكا) وهذا يؤدي بالضرورة إلى التواصل الثقافي والفكري بين الأجيال المسلمة لحفظ (الهوية) الأصيلة من (الطمس) والاستلاب.

لذا يجب وضع صورة للعالم الإسلامي (صورة مستقبلية مستشرفة) من خلال تفسير كوني للأحداث التاريخية والسياسية الراهنة، لمعرفة مكانة العالم الإسلامي وسط القوى المتصارعة، وهذا بما عندنا من المعطيات التالية:

- ١/ تفكك المعسكر الاشتراكي، وعودة دول أوروبا الشرقية إلى النظام الليبرالي الرأسمالي.
- ٢/ انتهاء الحرب الباردة، وظهور الاتجاه نحو القطب الواحد وهو "المشروع الأمريكي الجديد" للحفاظ على بنيته الداخلية، ولكن هذا الاتجاه لم يكتب له النجاح لوجود أكثر من قوة دولية مناهضة لذلك وتسعى إلى عالم متعدد الأقطاب (روسيا الاتحادية، الصين الشعبية، جمهورية جنوب إفريقيا، فنزويلا، إيران)
- ٣/ الناحية الروحية للحضارة الغربية أرض خصبة والأدلة على ذلك: إفلاس الأيديولوجيات المعاصرة وإثبات عجزها في حل مشكلة الإنسان وإعطائها بعدا غائيا.

الغد: إستراتيجيات المشروع

- ١/ بما أن الساحة الإسلامية والعربية لها ارتباط وثيق من حيث المكانة الجيو-سياسية في العالم، أضحت المسألة مسألة تأثير بردود الأفعال والمنعكسات الناتجة عن الأحداث العالمية سلبا وإيجابا.

- ٢/ يتحتم على الدول الإسلامية متابعة الأحداث المتنوعة وخاصة ذات الحجم السياسي، وهذا يجعلها تقف أمام موضوع تأثيرها على قضايا المسلمين الحيوية إلى آفاق جديدة وأبعاد واسعة:

أ/ تحول الوجود الإسلامي إلى واقع متحرك عملي يهدف إلى تحقيق الأهداف الكبرى من خلال جعل الإسلام في موضع التكامل في وجوده الثقافي وامتداده الحضاري، وهذا يحتم على العملية الإسلامية الخروج من زاوية الاستغراق والتفوق في الدوائر المغلقة، ويدفعها للبحث عن السبل العملية الكفيلة التي تخرجها من عمليات الاحباط بفعل الحيرة بين الهدف الكبير

والإمكان المحدود، أي للخروج من دائرة الإحباط الفكري والعمل، بمعنى آخر التخلص من "النفس الإنهزامية"، هذا من جهة ومن جهة ثانية التخلص من سجن الرؤية الحاملة المقدسة والممجدة للماضي بمفهوم سلبي للتاريخ الإسلامي كأنه صورة مقربة لعالم المثل الخالص.

ب/ الدول الإسلامية يجب أن تكون في مستوى المرحلة الراهنة وتستوعب الحدث العالمي حتى لا تقع في فخ التهم، وهذا من خلال استيعاب الطاقات الموجودة وتوظيفها في مجالاتها عن طريق إنشاء المؤسسات الكفيلة بالمشاركة الفعالة في تطوير المجتمع المدني في البلاد العربية والإسلامية وذلك بإنشاء مراكز للدراسات الإستراتيجية والأبحاث المتخصصة إلى جانب الموارد البشرية التي يجب استغلالها في دعم نظمها السياسية من أجل ترشيدها ودعمها في عملية المواجهة في ساحة الصراع الدولي.

ج/ لابد من الانفتاح على الواقع الإنساني المتحرك في أكثر من دائرة، حتى يتسنى للدول الإسلامية كشف ثغرات التسيير على كافة الأجهزة الرسمية من خلال معالجة الأمر بما يجب أن يكون، والابتعاد عن المزايدة الإعلامية والحزبية في مثل هذه القضايا حتى لا تضيق الحقوق وتنسى الواجبات اتجاه الأمة، وذلك كي يتسنى كشف الغطاء وإسقاط التحديات الضاغطة وفك دائرة الإحباط الفكري والعمل.

وبهذا قد يمكن إحداث خلخلة أو ثقب لزعزعة هيمنة النظام العالمي القائم وتقديم البديل الممكن لبناء حضارة إنسانية فاضلة.

المبحث الثالث

الإعلام بين التركيب والتوجيه الأيديولوجي

مدخل الدراسة:

قال المؤرخ السينمائي الفرنسي الراحل جورج سادول Georges Sadoul⁽¹⁾ في إحدى محاضراته عن سينما العالم: إن الأمم لو أدركت مدى أهمية صناعة الفيلم السينمائي لدى ظهور الفن السابع لأول مرة منذ قرن تقريبا لأعطت الأولوية القصوى لها، ولما أخذ اكتشاف البترول المكانة الأولى آنذاك عند الدول الصناعية. ويضيف في السياق نفسه ما معناه: إن الأمم لو أدركت منذ البداية الدور الهام الذي تلعبه السينما في التطور والتقدم لأصبحت الصناعة السينمائية أكثر تقدما وتطورا مما عليه الآن في الولايات المتحدة واليابان والاتحاد السوفياتي وأوروبا.

بهذه العبارة البسيطة في مفرداتها أشار المؤرخ السينمائي جورج سادول إلى الدور الخطير الذي تؤديه لغة الصورة والحركة، هذه اللغة المتكونة من اللون والصوت والتي يستطيع أي إنسان أن يستوعبها مهما كان مستواه التعليمي.

قبل ظهور السينما كان المؤرخون وعلماء الاجتماع والدراسات الإنسانية يرجعون أي تقدم حضاري لدى أمة من الأمم، إلى الاهتمام الذي توليه هذه الأمة اتجاه التراث الإنساني في جميع المجالات باعتباره رصيذا ضخما للتجربة الإنسانية عبر العصور؛ فترجم هذا التراث إلى لغتها وتجسد بعده الغائي على بساط الواقع الذي يخضع للتجربة والبرهان والاستنتاج، ولكن العالم الغربي تفتن إلى خطورة وسائل الإعلام؛ فسبق غيره إلى هذا المضمار وتوسع في فرض سطوته على الرقعة الترابية للعالم من خلال شبكاته الفضائية الإقليمية والدولية، وبهذه الطريقة استطاع أن يخترق الحدود السياسية لدول العالم الثالث بما فيها دول العالمين العربي والإسلامي،

1- جورج سادول هو مؤرخ للسينما الفرنسية بصورة خاصة، ومن بين أهم ما ألف في هذا المضمار كتاب "حوليات السينما الفرنسية" Croniques du cinéma Français نشر سنة ١٩٧٩ بفرنسا وهو من جزئين.

وهكذا دخلت هذه الأخيرة في دائرة الاستلاب الإعلامي والذوبان في قيم وثقافات أجنبية موجهة من طرف منهج محدد وغاية أيديولوجية مرسومة...

في البدء لم تولي السلطات المسؤولة اهتماما بالصناعة السينمائية ولم تقدم يد المساعدة لأولئك المخترعين لآلات وأجهزة التصوير ومواد السيليلوز؛ فعانوا أشد المعاناة من أجل إخراج الفن السابع من رحم الظلمة إلى عالم النور في بداية هذا القرن - سواء في أوروبا أو في الولايات المتحدة -، وهذا الإهمال راجع إلى أمرين هما:

١/ عدم إدراك أهمية السينما وجهل بميكانيزماتها الموجهة للرأي العام، وهذا قبل اكتشاف سنن الخطاب السينمائي من طرف علماء اللسان وخاصة الأمريكيين مثل ناعوم تشومسكي^(١) الذي كان مختصا في علوم الاتصال، إذ يعتبر أول من قدم مقارنة بين مجال البحوث اللسانية والنظريات الانصالية.

٢/ الانشغال بأمور أخرى مثل: اكتشاف البترول، والتسابق على استعمار الشعوب، والسباق نحو التسليح من أجل تحقيق قاعدة استراتيجية وهي قاعدة توازن الرعب الإستراتيجي.

فلما أدركت الدول العظمى أهمية السينما عملت على ترقيتها من خلال:

- ١/ مد يد العون لرواد هذا الفن وإفساح المجال لهم.
- ٢/ تأسيس مدارس ومعاهد لها إطاراتها وهياكلها القاعدية وميزانيتها الخاصة.
- ٣/ تحويلها إلى صناعة وطنية تقوم الحكومة بحمايتها وترقيتها ومراقبتها من حيث الإنتاج، مثلها مثل صناعة الأسلحة والمواد الغذائية والألبسة... إلخ.

ومن ثم أضحت الصناعة السينمائية أداة استعمار جديد وفعال بفضل الأدوات التي تستعملها في التركيب وفي الإخراج مثل: اللون والصوت والحركة، لدغدغة عواطف المتفرجين وتحريك عواطفهم واقحامهم في بوتقة القصة أو الفيلم أو المسرحية لتحقيق مبدأ

١ - ناعوم تشومسكي: فيلسوف وعالم لسانيات، ولد سنة ١٩٢٨ في ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة، له أكثر من ١٠٠ كتاب، يعتبر من أشهر الشخصيات العالمية المعادية للسياسة العدوانية والهيمنة الأمريكية.

التطهير من خلال تنامي الحدث الدرامي، وبذلك العمل على توجيه الجمهور وإيصال مختلف الأيديولوجيات إلى الشعوب وادخالهم في دائرة الاستعمار الفكري والثقافي من خلال آلية السلب الحضاري بفضل عمليات الكف والحرمان التي تمارسها الصناعة السينمائية على حواس المتفرج بل وعلى نفسه، وهكذا دخلنا إلى مجال صراع جديد من ألوان الصراع الأيديولوجي لم نكن على استعداد لمواجهة، إنه صراع وجود لا صراع حدود.

وسائل الاتصال شبكات للاستعمار:

بعد المدخل التمهيدي الذي قدمنا به لهذه الدراسة والتي تبحث في مجال الإعلام وينقسم البحث بدوره إلى ثلاثة نقاط رئيسة:

١/ خريطة المجال الفضائي.

٢/ تقنيات الإعلام في خدمة الأيديولوجيا.

٣/ الحاجة إلى بديل إعلامي.

ولنبداً بالنقطة الأولى: خريطة المجال الفضائي

"تكنولوجيا التوابع الاتصالية تسبق فهم الإنسان وقدرته على استثمارها استثماراً بناءً."
"ليست التكنولوجيا خيراً أم شراً، إنما الإنسان في استخداماته لها هو الذي يجعلها هذا أو ذاك"

(من مقررات مؤتمر لتوابع الاتصال)

ليس الفضاء الخارجي للكرة الأرضية حكراً على دول بعينها من دون أخرى، هذا ما جاء في قرار الأمم المتحدة رقم ١٧٢١ عام ١٩٦٢ الذي نص على حرية الفضاء الخارجي وعلى إباحته لدول العالم جميعاً من دون تمييز؛ فكيف بدأت القصة إذن!...
بدأت القصة من خلال ظهور فكرة شبكة تلفزيونية موحدة:

١/ شبكة تلفزيون أوروبا الغربية (الأوروبيون):

نشأت هذه الشبكة بناءً على اقتراح من رئيس راديو سويسرا عام ١٩٤٨، وتأسست شبكة تلفزيون أوروبا الغربية لتربط عدداً من المحطات التلفزيونية بتلك المنطقة، وتكمن وظيفتها

الأساسية في التنسيق بين محطات تلفزيون دول أوروبا الغربية، وتضمنت خطة أربع مقترحات أساسية:

١/ تبادل الأفلام من مختلف الأنواع.

٢/ تقديم بث حي عن الأحداث الأساسية في مختلف الدول.

٣/ تبادل الأخبار.

٤/ حل حقوق المؤلف في جميع أنحاء العالم.

وبذلك لم دخل الأوروبيون الميدان العملي إلا سنة ١٩٥٤ م، ومبدأ العمل كان يقضي بتقديم المحطات الأعضاء أفضل برامجها إلى مقر الشبكة، لتعرضها على الأعضاء لتختار منها كل محطة ما تريده، والهدف من هذا هو: تحسين مستوى البرامج التي تعرضها الدول الأعضاء، ويكمن نجاح هذه الشبكة في كونها لا تلزم المحطات الأعضاء فيها بقبول أي برنامج، لأن الاختيار قائم على أساس الحرية في اقتناء البرامج، ونتيجة لهذا أصبح اتحاد إذاعات الدول الأوروبية الغربية يرأس تخطيط أكبر عملية توزيع وتنسيق للبرامج في مجال الاتصال.

والرابط الذي يصل بين الدول الأعضاء هو شبكة الميكرويف والكابلات الأرضية والبحرية، وكانت أول تجربة لتبادل الأخبار اليومية في شبكة الأوروبيون في أكتوبر ١٩٥٨ أي بعد مرور عشر سنوات من إنشاء الشبكة، واشتركت فيها خمس خدمات إذاعية هي البريطانية والهولندية والبلجيكية والإيطالية والفرنسية، وبدأ التبادل الرسمي والمنظم للأخبار في ٢٥ مايو ١٩٦١ م. وتعتبر بروكسل مسؤولة عن التخطيط الفني وتوجيه بث الأوروبيون، أما النشاطات الإدارية تتم بالمقر بجنيف.

وقد بلغ عدد الأعضاء في الشبكة في أوائل عام ١٩٦٤ م ٢٩ عضوا من جميع أنحاء العالم، من بينها شبكات التلفزيون الأمريكية مثل أن بي سي، وسي بي سي، وأي بي سي، وهيئة الإذاعة اليابانية وهيئة إذاعة البرازيل. وتضم شبكة الأوروبيون حاليا ٥٦ منظمة إذاعية في القارات الخمس، أما التمويل يتم بمشاركة الأعضاء في التكلفة، لأن المبدأ المعمول به هو أن

تستعمل المنظمات الإذاعية الأكبر التكاليف الأكبر، أما المنظمات الإذاعية الأصغر وحديثة الظهور تتحمل التكاليف الأقل، والمنظمات الإذاعية الآتية أعضاء في شبكة الأروفيزيون: الدانمارك، الجزائر، بولندا، بلجيكا، فرنسا، ألمانيا الاتحادية، اليونان، إيرلندا، إيطاليا، الأردن، موناكو، لكسمبورغ، النرويج، هولندا، السويد، سويسرا، البرتغال، إسبانيا، إنجلترا، يوغسلافيا، تونس، والكيان الصهيوني.

٢ / شبكة تلفزيون أوروبا الشرقية:

إن النجاح الذي عرفته الأروفيزيون في الإرسال الإقليمي، أدى بدول أوروبا الشرقية آنذاك إلى التفكير في محاولة القيام بتجربة مماثلة داخل حدودها، وفي سنة ١٩٦٠ نشرت أكاديمية العلوم السوفياتية مقالات مضمونها أن العلماء السوفيات يخططون لإستخدام التتابعات الاتصالية لأغراض الراديو. وفي العام نفسه قرر المجلس الإداري للمنظمة الدولية للراديو والتلفزيون تأسيس الأنترفيزيون كشبكة مركزية غير تجارية تربط أنظمة الاتصال التلفزيوني في الدول الاشتراكية، وتطور طرق تبادل البرامج أما قبل هذا التاريخ كانت دول أوروبا الشرقية تتبادل البرامج على أساس ثنائي وثلاثي.

وأنشئت الشبكة كنظام جديد لتبادل البرامج بين الدول الاشتراكية في أوروبا، وكان مقرها الإداري ببودابست عاصمة المجر، ولكن مركز التنسيق والمركز الفني نقلا إلى براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا، تحت إشراف المنظمة الدولية للراديو والتلفزيون التي أصبحت تصب فيها برامج دول أوروبا الشرقية لتوفرها للدول الأعضاء، منهم: الفيتنام، كوريا الشمالية، ألبانيا والعراق.

أما الأهداف الرئيسة التي أعلنت عنها الأنترفيزيون هي:

- ١ / الاتصال الحي للبرامج.
- ٢ / تقديم برامج ترفيهية.
- ٣ / تقديم الأحداث الرياضية الرئيسة، القطرية والدولية.
- ٤ / البرامج الفنية للمؤلفين الكلاسيكيين والمعاصرين في الدول الأعضاء.

٥/ تقديم برامج تتناول الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية للدول الأعضاء.

وذكرت شبكة الأنترفيزيون أن العضوية فيها مفتوحة لجميع المنظمات التليفزيونية، شريطة الخضوع للقوانين الداخلية للشبكة. وفي سنة ١٩٦٤ كان كل أعضاء الأنترفيزيون بإمكانهم الاتصال مباشرة بالكابلات والميكرويف؛ إذ في ٠٦ أغسطس ١٩٦١ م شاهد المواطن السوفيياتي على شاشات التليفزيون أول نظرة لرائد فضاء سفينة فوستوك - (أي الشرق) - رقم ٢، وهي تدور حول الأرض، وفي العام التالي أي ١٩٦٢ حقق الاتحاد السوفيياتي إنجازا بارزا آخر في الاتصال بعيد المدى وذلك بتلقي إشارات من صاروخ فضائي منطلق نحو كوكب المريخ، وتلقت الشبكة صورا من سفن الفضاء المتعددة والمسماة بإسم فوستوك التي أطلقت في بواكير عام ١٩٦٠ م.

ونقلت عنها هذه الصور شبكة تلفزيون أوروبا الغربية (الأوروفيزيون)، وهكذا لما أصبحت حاجة كل من الشبكتين واضحة في الحصول على أخبار الأوروفيزيون أو الأنترفيزيون، وضعت وصلات الميكرويف مع أوروبا الغربية سنة ١٩٦١ م، بربط ليننجراد بهلسنكي (فلندا) وفيما بعد وضع خط أكبر من وارسو (بولندا) إلى برلين الغربية، وكان أول تبادل رسمي بين الشبكتين سنة ١٩٦٥ م.

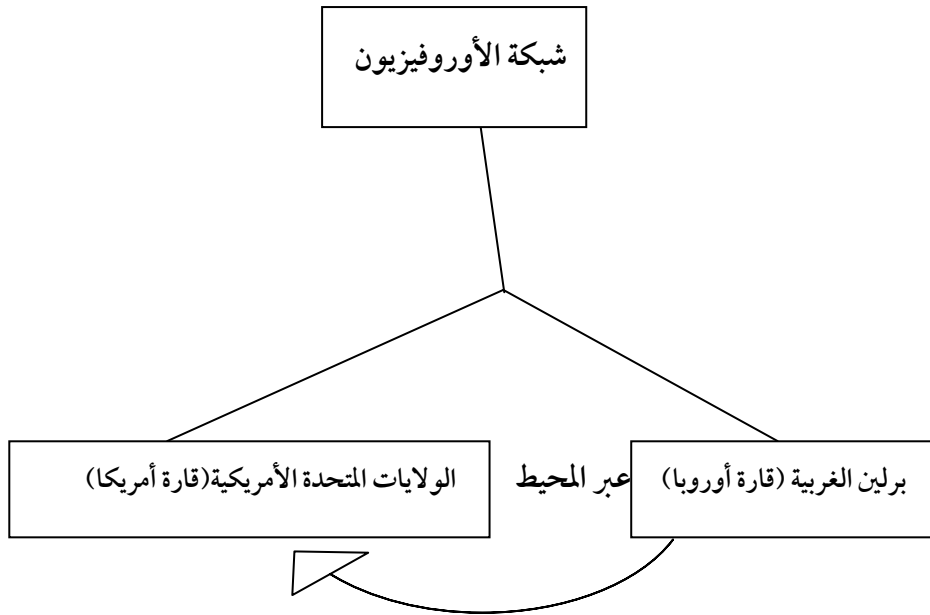
ثم تطور الاتصال تدريجيا بفضل تقدم علوم وأبحاث الفضاء؛ فدخل القمر الصناعي تاريخ البشرية، وهذا ابتداء من تاريخ إنشاء هيئة اتصالات التوابع Communication Satellite Consortium، واسمها المختصر هو كومسات Comsat وذلك في ٠١ فبراير ١٩٦٣ م.

وفي عام ١٩٦٤ م أجريت مباحثات مع ممثلين لدول أجنبية أسفرت عن عقد سلسلة من الاتفاقيات في ٢٤ يوليو ١٩٦٤ م تم التصديق عليها في ٢٠ أغسطس من العام نفسه، وتوجت هذه الاتفاقيات بتأسيس مجمع توابع الاتصالات الدولي International Telecommunication Satellite Consortium واسمه المختصر هو أنتلسات Intelsat، وتعين على الحكومات الأجنبية والهيآت المعنية أن تساهم بحصة إضافية لرأس المال قدرها

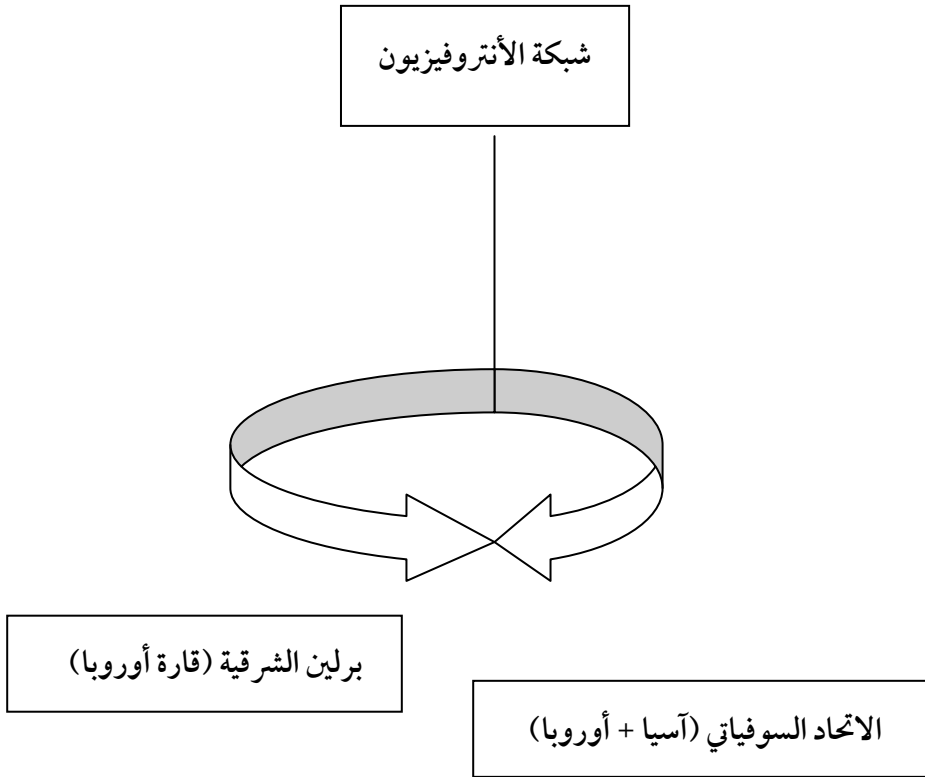
٢٠٠ مليون دولار وهو نصيب مشاركتها في تأسيس نظام التتابع الاتصالية على نطاق الكرة الأرضية. وكان أول قمر أطلقه المجمع هو إيرلي بيرد Early Bird في ٠٦ أبريل ١٩٦٥ م، ولقد شاهد ما يقرب من ٣٠٠ مليون شخص في ١٧ دولة على جانبي الأطلنطي أول إذاعة تليفزيونية عامة عبر إيرلي بيرد وذلك في ٠٢ مايو ١٩٦٥ م.

وفي ديسمبر ١٩٦٥ م بلغ عدد مجمع أنتلسات ثمان وأربعون ٤٨ دولة من مختلف القارات من بينها الدول العربية الآتية: الجزائر، العراق، الأردن، الكويت، لبنان، ليبيا، المملكة العربية السعودية، السودان، سوريا، تونس، مصر واليمن. وفي عام ١٩٦٧ م ارتفعت العضوية إلى ٥٦ ست وخمسين دولة من بينها المغرب، وفي ديسمبر ١٩٧١ م تم تبادل المواد الملونة بين الشبكتين.

ومن خلال العرض التاريخي يمكننا رسم مخطط المجال الفضائي بصورة تقريبية كالآتي:



شكل ٠١ يمثل الامتداد الجغرافي لشبكة الأوروفيزيون لأوروبا الغربية



شكل ٢ يبين التوزيع الجغرافي لشبكة الأنترفزيون لدول أوروبا الشرقية عبر القارة الأوروبية

والمعادلة الجبرية لهذه الخريطة النفسية للتوزيع الجغرافي لمناطق النفوذ الإعلامي بين القطبين هي:

بما أن شبكة (الأوروفزيون) هي شبكة تلفزيون أوروبا الغربية
وبما أن شبكة (الأنترفيزيون) هي شبكة تلفزيون أوروبا الشرقية
إذن شبكة (الأوروفزيون) = النظام الغربي (الرأسمالي)
شبكة (الأنترفيزيون) = النظام الشرقي (الاشتراكي)

ومن ثمة فالمجال الفضائي = يمثل مقدار الامتداد الكوني للمساحة الأيديولوجية

بمعنى آخر أن المجال الفضائي لكلا الشبكتين هو المظلة الواقية للمعسكرين، وهكذا تغيرت مصطلحات الحرب الباردة وانتقل الصراع من المجال الأرضي إلى المجال الفضائي من صراع الأحلاف العسكرية والتوسع على أكبر رقعة جغرافية إلى صراع حول الخطوط الوهمية لمدارات الفضاء الوهمية، ومن صراع على نقاط حدود طبيعية وسياسية إلى صراع على نقاط حدود فضائية تتمثل في مقاطع الأقواس المقدرة بالزوايا المثلثية والدرجات المثوية، وبذلك اتخذ الصراع بين المشاريع الدولية ذات الصبغة الاستراتيجية صفة الكونية.

لهذا لما نوقش مشروع توزيع حصص استخدام الأقمار الصناعية الفضائية في المؤتمر الدولي الذي أشرف عليه الاتحاد الدولي للاتصالات عن بعد، من ٢٩ أوت إلى ٥ أكتوبر ١٩٨٦ م (الجزائر)، فتح موضوع إتاحة الفرصة لكل الدول لاستخدام منصف وعادل للمدار الأرضي الثابت في نطاق موجات محددة.

والأقمار الاصطناعية التي تستخدم المدار الأرضي الثابت إنما تحلق في مسار محدد وسرعة محددة يتيحان لكل منها البقاء مسلطا في ثبات على بقعة واحدة محددة من سطح الأرض فيما تدور الأرض، وبهذا الصدد قال أحد المشاركين الأمريكيين: أشعر في الوقت الحاضر بتفاوت حيل نجاح المؤتمر وأعتقد أن الكل على اتفاق أنه إذا أمكن وضع مشروع توزيع حصص ناجح فإن المؤتمر سيكون ناجحا وأن القضايا الأخرى ومعظمها إجرائي ستحل.

وأضاف اتفاق المندوبين في الجلسة الأولى للمؤتمر التي عقدت عام ١٩٨٦ م على وجوب ألا ينطبق التخطيط الدولي إلا على بعض الموجات المحددة والأقمار الاصطناعية الثابتة، أي الخاصة بالاتصالات والتي تعمل من مدار أرضي ثابت يعلو عن خط الاستواء مسافة ٣٨٥٠٠ كيلومتر وتخدم نقاطا محددة على سطح الأرض.

وقال السيد بروفي الذي ترأس الوفد الأمريكي أنه يتوقع أن يلقى المشروع الأمريكي تأييدا واسعا ويستند هذا المشروع إلى فكرة التراكب المشترك لمقاطع الأقواس.

والمرحلة الأولى في تطبيق هذا المشروع تنطوي على استعمال تقنية برجة الحاسوب لتحديد مقاطع الأقواس المشتركة في مدار واحد بين مجموعة من البلدان لها احتياجات متماثلة، وفي إمكان الأقمار الصناعية الموجودة ضمن مقاطع الأقواس هذه، العمل في انسجام مع بعضها

البعض لتباين المناطق التي تخدمها على الأرض، وسيكون في إمكان البلدان التي تشترك في استخدام قوس محدد سلفاً أن تركز أقمارها الاصطناعية في مواقع مختلفة من المدار إنما ضمن مقطع القوس المحدد بحيث يمكن أن تكون هذه متباعدة بمقدار قليل جداً يبلغ حتى الدرجتين.

أما الجلسة الثانية للمؤتمر بحثت قضية تحسين إجراءات التنسيق متعدد الأطراف، الأمر الذي من شأنه أن يوفر للبلدان النامية ومجموعات الدول التابعة لإقليم فرعي استخدام القوس المداري المعني وتسهيل أنظمة الاتصالات اللاسلكية المعتمدة حالياً لجعلها أقل تعقيداً وأكثر يسراً المستخدم فيها.

هكذا جرّد المكان وحل محله عالم السينات والعينات والدرجات المؤوية والأقواس المدارية والزوايا المثلثية، إنها عملية تجريد المجسّدات وتمثيلها في مصطلحات مجردة عن لغة المكان والزمان، ألسنا أمام مرحلة جديدة من مراحل الصراع الفكري المستغل لتقنيات التكنولوجيا المعاصرة.

في ختام هذا المبحث الذي تعرضنا فيه إلى مسألة المجال الفضائي وكيفية السبل الناجعة للتقسيم العادل لخصصه على الدول المتقدمة وتلك التي تبحث لنفسها عن موضع قدم في عالم الكبار، لنا سؤال ملح وهو: ما هو البديل الإعلامي الذي يمكن أن يقدمه العالم العربي والعالم الإسلامي من أجل تقسيم عادل للمجال الفضائي.

خاصة ونحن أمام معطيات التكنولوجيا المعاصرة التي تعد في ذات الوقت تحدياً في وجه العالمين العربي والإسلامي، إذ صار مفروضاً عليهما استيعاب خصائص المرحلة القادمة، خاصة ونحن أمام صراع حضاري جديد، صراع أيديولوجي آلت له التكنولوجيا المعاصرة، لغته السينات والعينات، لغة التجريد التي تضعك أمام المشكلة في أبسط صورها الممكنة مسقطة بذلك من الحساب خصائص المكان الذي اندثرت معالمه أمام هندسة الفضاء المعاصرة.

إذن ضمير الإنسان المسلم أمام التقنية المعاصرة وجهها لوجه على خط التماس.. وهذا يلزم الخطاب الإسلامي بأن يرتفع بمستواه إلى مستوى لغة حضارة الغرب، بل ويتفوق عليها في

المعركة المصرية والتي هي معركة وجود لا معركة حدود في أعلى مستوياتها الأيديولوجية والعقائدية.

حتى تكتمل تلك العلاقة الجدلية بين الرسالة والوسيلة.

النقطة الثانية: تقنيات الإعلام في خدمة الأيديولوجيا

إن حديثنا في هذه النقطة عن تقنيات الإعلام ومدى خدمتها للأيديولوجيات المختلفة، يجعلنا بالضرورة نعرج على كرونولوجيا تقدم بعض وسائل الاتصال مثل الراديو والرادار اللذين يعتبران الأداة الفاعلة للاتصال، كما يتوجب علينا أن نفرق بين نوعين من التقنية الإعلامية، النوع الأول: تقنية مادية تعتمد الراديو والتلفاز والمسرح والمجلة والجريدة والسينما من غير أن ننسى دور الكمبيوتر في هذا المجال.

أما النوع الثاني: فهو تقنية قائمة على أساس فلسفي معين سلفا، موظفة في ذلك معطيات علم النفس (الآليات النفسية) وأيضا مفاهيم علم وظائف الأعضاء. ولنبدأ بالنوع الأول: "التقنية المادية"

من الأدوات المستعملة في هذه التقنية "المذياع" أو ما يعرف بـ "الراديو".

إذا فتحت جهاز الراديو، وأدركت الإبرة يمينا أم يسارا، التقطت موجات صوتية لإذاعات مختلفة، وهكذا يمكنك سماع آخر الأنباء أو التحقيقات الصحفية، أو نشرات الأحوال الجوية، أو إرسال المكالمات الهاتفية من منطقة إلى أخرى في شكل موجات راديوية، كما يمكن نقل الصور كذلك في شكل موجات ذات التردد العالي؛ فيلتقطها الهوائي ويحوّلها إلى شاشة التلفاز.

أما كيفية إرسال الموجات الصوتية واستقبالها فهي كالآتي:

تقوم الهوائيات بنقل الموجات المتوسطة من منطقة إلى منطقة على سطح الأرض، أما الموجات الطويلة فيعكسها الجو المؤين، بينما الموجات ما فوق التردد العالي تخترق الجو المؤين حتى تلتقطها الأقمار الصناعية؛ فتعكسها نحو الأرض.

ولقد استغلت الحكومات هذه الاختراعات العلمية والفهم الدقيق لطبيعة المادة وقوانينها الضابطة لها، لتوجه من خلالها الرأي العام للجماهير وتبث سياساتها على أكبر رقعة جغرافية من الأرض.

كانت البداية أثناء الحرب العالمية الثانية وفيما بعدها، وكانت الموجة القصيرة هي مطية الاتصال الإذاعي بدول أجنبية ومواطنين أجانب، وحتى عام ١٩٣٠ كان الإتحاد السوفياتي هو الدولة الوحيدة التي استغلت الطاقة السياسية للإذاعات الدولية وكانت تذيع بخمسين ٥٠ لغة ولهجة، وكانت ألمانيا هي الدولة الثانية التي أنشأت إذاعة دولية على الموجة القصيرة باللغتين الإنجليزية والألمانية موجهة إلى أمريكا الشمالية عام ١٩٣٣، وأعقبها إيطاليا عام ١٩٣٥ باللغة العربية (أول إذاعة دولية باللغة العربية) موجهة إلى الدول العربية في شمال أفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط خاصة، وجاءت اليابان بعد ذلك وأخذت توجه إذاعاتها باليابانية والإنجليزية إلى هاواي والساحل الغربي للأمريكتين.

عند نشوب الحرب الكونية الثانية، كان أكثر من خمس وعشرين ٢٥ دولة توجه إذاعات الجماهير خارجية بهدف الدعاية السياسية والحرب النفسية، ومن هذه الدول: ألمانيا، النمسا، بلجيكا، بلغاريا، الصين، الدانمارك، فنلندا، فرنسا، هنغاريا، إيطاليا، اليابان، هولندا، النرويج، بولندا، البرتغال، إسبانيا، رومانيا، سويسرا، تركيا، السويد، بريطانيا، يوغسلافيا، والإتحاد السوفياتي.

وقرب نهاية هذه الحرب ارتفع العدد إلى خمس وخمسين ٥٥ دولة تمارس البث الإذاعي الدولي، وبلغ العدد الإجمالي للساعات المذاعة أسبوعيا ٤٢٧٥ ساعة/ الأسبوع.

وعقب الحرب مباشرة، أخذت الإذاعات الدولية في التناقص، ولكن لم يأت عام ١٩٥٠ حتى كان عدد الدول الإجمالي قد ارتفع إلى اثنين وستين ٦٢ دولة، تذيع برامجها مدة تفوق ٦٥٠٠ ساعة/ الأسبوع وبجميع اللغات الكبرى وغيرها من اللهجات المحلية والقومية، وكانت حصة الأسد فيها للإتحاد السوفياتي وبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا. كما يجدر بنا أن نشير إلى أن الدول حديثة الاستقلال أولت أهمية بالغة للإذاعة الدولية بإعتبارها مسألة كرامة وتعبير عن الوجود ضمن الزخم العالمي والصراع الأيديولوجي.

أما الإستخدام السياسي للراديو كان كالآتي:

ما يزال الراديو بالنسبة لثلي ٣/٢ سكان العالم هو أهم جهاز إعلامي، لقد جعلت منه ثورة الترانزستور جهازا لا نظير له في كل مكان من العالم، وتضاعف عدد أجهزة الاستقبال

مرات عديدة ؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر: ارتفع عدد الأجهزة من مليون جهاز راديو عام ١٩٥٥ إلى ما يزيد على ٣٥ مليون جهاز راديو عام ١٩٧٨ في الهند، أما في الكتلة الاشتراكية ارتفع عدد الأجهزة من ٢٠ مليون جهاز عام ١٩٥٥ إلى ١٠٧ مليون جهاز عام ١٩٧٨ م، وقس على هذا النحو في دول إفريقيا وأمريكا اللاتينية.

التطور الهائل في علم الإلكترونيك أدى إلى حدوث إنفجار اتصالي له قدرة عالية على نقل الأفكار والإعلام والثقافات إلى ملايين الناس في الآن، قاضيا بذلك على الحواجز السياسية ومسألة الحدود المزعومة بين الشعوب، وهذا من خلال الموجة الراديوية القصيرة.

لقد كان الاتحاد السوفياتي هو أول من استخدم الراديو للأغراض السياسية، ذلك عندما أذاع الطراد أورورا رسائل من لينين إلى مواطني روسيا صبيحة استيلاء البولشفيك على السلطة يوم ٠٧ نوفمبر ١٩١٧ م، وبث الروس رسائلهم الأيديولوجية إلى الخارج بالراديو مبررين صلحهم المنفرد مع ألمانيا، ومؤازرين تروتسكي في مناوراتهم أثناء مفاوضات معاهدة بريست - ليتوفيسك Brest-litovsk^(١) وفي عام ١٩٢٢ أنشأ لينين أقوى محطة إذاعية عرفها العالم إذ ذاك، وكان - أي لينين - يصف الراديو بأنه: "جريدة بلا ورق، ولا تعرف شيئا اسمه الحدود".

وفيما بين الحربين، اتسع نطاق الاستخدام السياسي للراديو، وفي حرب عام ١٩٢٣ عند احتلال منطقة الرور اشتبكت فرنسا وألمانيا في حرب كلامية عبر موجات الراديو، ووجه الروس دعايتهم الثورية إلى إقليم بساربيا الروماني مما دفع بوخاريسست إلى إجراء عملية تشويش على الإذاعة وكان الأول في هذا المجال.

فقدت المحور: ألمانيا، إيطاليا واليابان كانت سريعة الاستغلال للفرص التي أتاحتها الراديو، سواء في التلقين السياسي في الداخل، أو لشن الحرب النفسية فيما وراء البحار، وكانت في ذلك تمهد الأرضية لشن الحرب العالمية الثانية.

١ - معاهدة سلام وقعت في ٠٣ مارس ١٩١٨ في جمهورية روسيا البيضاء، بين روسيا الاتحادية الاشتراكية ودول المحور وعلى رأسها ألمانيا، لتخرج روسيا من الحرب العالمية الأولى، وأكدت على استقلال فنلندا وأستونيا ولاتفيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء وليتوانيا.

أما دول الحلف كانت بطيئة في النزول إلى هذا الميدان، في حين كانت روسيا تذيع عام ١٩٣٧ بسبع ٠٧ لغات، وروما بست عشرة ١٦ لغة، وبرلين بست ٠٦ لغات، أما بريطانيا كانت قانعة بالإذاعة وحيدة اللغة، ألا وهي اللغة الإنجليزية.

والميزة التي تتميز بها إذاعة الاتحاد السوفياتي، أنها إذاعة موجهة على أساس أيديولوجي معين، وهو الدعوة إلى الشيوعية والثورة على المجتمعات الطبقيّة الرأسمالية، والإذاعة الألمانية كذلك كانت قائمة على أساس الفلسفة النازية الممجدة للعنصر الجرمانى ومعادية للسامية، في حين كانت إذاعات دول الحلف غير متجانسة النهج، وهذا لأنها كانت تعتبر الحرية الفردية هي حجر الزاوية والقاعدة الأساس في العمل، وكانت النزعة النفعية البراغمية والذرائعية لها الدور الأكبر في توجيه الإذاعة الدولية، ولا يمكن للإذاعة الأوروبية التقدم إلا في إطار التنافس الحر بين الإذاعات والفائز من يقدم أحسن البرامج للمستمعين.

وهذا رسم بياني يمثل لنا الأدوار التاريخية التي مرت بها الإذاعة الدولية خلال خدمتها للحاجة السياسية:

السنة	الدولة	تفسير المعطيات البيانية
١٩١٧	الاتحاد السوفياتي	استعمل الموجات الراديوية لأول مرة لبث أفكاره للعالم الخارجي
١٩٢٢	الاتحاد السوفياتي	أنشأ لينين أقوى محطة إذاعية آنذاك في العالم من سنة ١٩٢٢ والنشاط الإذاعي في نمو مستمر، خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية
١٩٤٨	// // //	الفترة ما بين ١٩٤٨ - ١٩٥٠، عرف النشاط الإذاعي بعض الركود بسبب تناقص الإذاعات الدولية، بمعنى آخر تناقص حدة الحرب الباردة بين المعسكرين الشيوعي والغربي.
١٩٥٠	// // //	من سنة ١٩٥٠ إلى ١٩٦٩ عاد الاتحاد السوفياتي إلى نشاطه الإذاعي بسبب رجوع بؤادر الحرب الباردة بين

<p>العالمين الاشتراكي والعالم الغربي الرأسمالي.</p> <p>خاصة في شهر أغسطس من عام ١٩٦٤ عندما انظم إلى راديو موسكو صوت راديو السلام والتقدم الموجه للإذاعات الغربية المضادة للإتحاد السوفياتي.</p> <p>الفترة ما بين ١٩٦٩ - ١٩٧٣، مارس فيها عملية التشويش على إذاعات أوروبا الغربية، وفي عشية مؤتمر الأمن الأوروبي بجنيف من عام ١٩٧٣ خفت حدة التشويش، وهذا بسبب الحرب التي وقعت بين العرب وإسرائيل ١٩٦٧-١٩٧٣، ابتداء من سنة ١٩٧٣ أوقف الاتحاد السوفياتي حدة التشويش باستثناء إذاعات الصين وألبانيا وراديو الحرية (الولايات المتحدة الأمريكية) والكيان الصهيوني.</p> <p>كذلك بسبب تغير موقف الاتحاد السوفياتي من السياسة الدولية، ومحاولته التفتح على الغرب خاصة بعد اتفاقية كامب ديفيد بين مصر والكيان الصهيوني، إذ في عام ١٩٧٨ ارتفع عدد أجهزة الاستقبال في الاتحاد السوفياتي إلى ١٠٧ مليون جهاز راديو، وهذا يدل على رغبة شعوب الاتحاد السوفياتي في التعرف على ما يجري حولها في العالم، ومع مرور الزمن وزيادة الأزمات الداخلية في روسيا والتغيرات الكبيرة التي شهدتها على يد الرئيس غورباتشوف^(١) (البرسترويكا) في سنة ١٩٨٩ م وأحداث استقلال ليتوانيا ولاتفيا وأستونيا وغيرها من</p>	<p>// // //</p> <p>// // //</p>	<p>١٩٦٩</p> <p>١٩٧٣</p>
---	---------------------------------	-------------------------

١- غورباتشوف: شغل منصب رئيس الدولة في الإتحاد السوفياتي ولد في ١٩٣١، وزعيم الحزب الشيوعي بين عامي ١٩٨٥-١٩٩١، اشتهر بدعوته لإعادة البناء أو البرسترويكا. شارك في إنهاء الحرب الباردة مع الرئيس الأمريكي ريغان.

الجمهوريات السوفياتية السابقة عن الاتحاد السوفياتي (الحكومة المركزية) لخبر دليل على ما نقول... ولقارئ الأحداث أن يحلل ويناقش ضمن معطيات التاريخ والسياسة (الحاجة) والدين (المعتقد) والمال.		
---	--	--

الجدول (أ) خاص بالاتحاد السوفياتي

السنة	الدولة	تفسير المعطيات البيانية
١٩٤٢	الولايات المتحدة الأمريكية	أثناء الحرب العالمية الثانية، بدأت نشاطها الإذاعي الرسمي في فبراير ١٩٤٢ على الموجة القصيرة، وذلك بهدف التشويش على اتصالات اليابان اللاسلكية وفك شفرة التواصل من أجل معرفة ما تحمله الرسائل المرمزة.
١٩٤٨	// // //	بعد الحرب، أرادت الولايات المتحدة إيقاف صوت أمريكا، إذ اعتبرت أن الإذاعة كانت وليدة ظروف الحرب، لأن الفلسفة الأمريكية تجاه الإعلام معروفة، إذ ترى الحرية حجر الزاوية في العمل، ولذا ترى المنحني البياني في انخفاض لسنة ١٩٤٨. ولكن من العام نفسه رجعت الخلافات السياسية إلى الساحة الدولية، واشتدت الحرب الباردة بين الكتلتين المتنافستين، وهكذا كتب لصوت أمريكا البقاء.
١٩٥٠	// // //	في أبريل ١٩٥٠ وجه الرئيس ترومان ^(١) حملته الكبرى

١- الرئيس ترومان: هاري ترومان رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ولد سنة ١٨٨٤ وتوفي في سنة ١٩٧٢، أشرف على إنهاء الحرب العالمية الثانية واستسلام ألمانيا واليابان، وأمر بقصف هيروشيما وناغازاكي بالقنابل النووية في أوت ١٩٤٥، وعمل على إنشاء حلف الأطلسي.

<p>وهكذا غدا الإعلام إحدى أدوات الإدارة الأمريكية، وهكذا قام صوت أمريكا بتعريفه للمجتمع الأمريكي من خلال مؤسساته وثقافته وسياسته القومية يشرحها ويوضحها.</p> <p>لم تعرف تقدما ملحوظا في هذا المجال إلا سنة ١٩٥٣ عندما أنشأت راديو التحرير، ثم عدلت إسمه عام ١٩٥٩، وأصبح يعرف بـ "راديو الحرية" وكان يبث إذاعاته من محطتي إرسال في "لامبرت هايم" بألمانيا الغربية قوة كل منهما ١٠ ك وات. وهذه النشأة كانت في جو مكفهر متصاعد التوترات، شديد الحرج، ولذا كانت الإذاعتان موجّهتان إلى شعوب الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية لخلق موجات التوتر وبؤر التمزق داخل الأنظمة الشيوعية.</p> <p>وبموت ستالين عام ١٩٥٣، خفت لهجة الإذاعتين التين كانتا تمتازان بالإثارة والتهيج وتحريك الشارع الشعبي، واتجهت اتجاها عقلانيا وهذا بحسب المرحلة الراهنة، ولذا بقي نشاط إذاعة راديو الحرية في تذبذب بين صعود وهبوط، خاصة عندما افتضح سر ميزانية الإذاعة عام ١٩٦٠، إذ كانت ضمن ميزانية وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.</p> <p>وفي عام ١٩٦٧، عرفت الإذاعة الدولية الأمريكية انحسارا في الساحة الدولية بسبب الحرب (العربية - الإسرائيلية) وبسبب الموقف الأمريكي الإمبريالي المضاد لحركات التحرر الدولية، وهكذا اندحرت الإذاعة الغربية برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية</p>	<p>// // //</p>	<p>١٩٥٠ - ١٩٦٧</p>
--	-----------------	--------------------

<p>أمام عملية الهجوم الإعلامي الذي مارسه الدول العربية إلى جانب الاتحاد السوفياتي، ومن خلال عمليات التشويش الراديوي سنة ١٩٦٧ - ١٩٧٣، وكذلك عملية التشويش التي قامت بها مصر ضد إسرائيل.</p> <p>لذا خضعت الإذاعة الأمريكية منذ تاريخ (١٩٧١ - ١٩٧٣) لفحص دقيق من جانب الكونغرس الأمريكي، وقدم مرسوما بتاريخ ١٩٧٣ وهو العام الذي توقف فيه الاتحاد السوفياتي عن ممارسة عمليات التشويش ضد أجهزة دول أوروبا الغربية بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية، وفي هذا العام أيضا استعملت أمريكا الأقمار الصناعية للتجسس على الجيوش العربية وتحركاتها، وبذلك دخلت البشرية عهدا جديدا هو عهد الصورة القمرية الهوائية والإلكترونية، ومن ثم بقي سهم التقدم في الخط البياني للمنحنى متصاعدا على المستوى الأفقي أي على مستوى الكم، أما كيف فهو من خصائص الدوائر المركزية.</p> <p>وما إن جاءت سنة ١٩٩٠ حتى زال الصراع الأيديولوجي، ولكن عام ١٩٩١ شهد سطوة النفوذ الإعلامي الأمريكي خاصة أثناء حرب الخليج وهذا في إطار المشروع العالمي الجديد وسياسة القطب الواحد.</p>	<p>/// ///</p>	<p>١٩٩٠ - ١٩٧٣</p>
--	----------------	--------------------

الجدول (ب) خاص بالولايات المتحدة الأمريكية

وبعد،

ماذا يمكن للإعلام الغربي أن يقدمه للبشرية من بدائل بعد انتهاء موجة الخوف من الحرب الكونية الثالثة؟

إذ ماذا بعد سنوات المتاجرة بعواطف البشرية من خلال نماذج الخوف والرعب والإرهاب والموت واليأس والمخدرات والمنظمات السرية؟..

ماذا بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وعودة بلدان أوروبا الشرقية إلى النظام الاقتصادي الليبرالي؟

هل يستطيع الإعلام الغربي أن يقدم للناس الحب والأمن والخير للإنسانية؟
إن عدسات التصوير الغربية وأقلام المخرجين السينمائيين تتجه نحو موضوع آخر جديد، تريد أن تجعله المادة الإعلامية الجديدة المثيرة، وهذا الموضوع هو "الأصولية الإسلامية" وظاهرة "العنف" أو ما يعرف بـ(إسلام فوبيا).

لقد صنعت دوائر المخابرات الأمريكية المنظمات الارهابية التكفيرية ودعمتها ودربتها ودفعتها إلى ارتكاب الجرائم وتكفير المعارضين والمختلفين معهم عقيدياً وتفسيقهم وتبديعهم، لغرض تفتيت المجتمعات العربية الاسلامية من الداخل، وإقامة كيانات طائفية عرقية متصارعة، تمنح الشرعية لقيام الكيان الصهيوني على أساس ديني في المنطقة العربية، بالإضافة إلى تشويه صورة الدين الإسلامي دين التسامح والسلام والتعاون في نظر الأوربيين، وهذا ما اعترفت به وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة هيلاري كلينتون من أنهم صنعوا المنظمة الإرهابية داعش ومن قبلها القاعدة.

ولكن لا يكون هذا إلا بعد وضع السيناريو الجيد المحبك وتحديد أدوار شخصياته البطولية، لأن أكبر خطر بالنسبة للمشروع الأمريكي هو فهم الناس المتزايد للدين الإسلامي باعتباره دين التسامح والاعتراف بالآخر واحترامه.

هذا الخوف الذي يحمله الغرب بيده اليمنى، في حين يحمل باليد الأخرى آلة الدمار والخراب لدليل على إفلاس المحتوى الداخلي لفلسفة الحضارة العلمانية الحديثة، وفشلها في حل مشكلة الإنسان المتمثلة في الفراغ الروحي الذي تعانيه حضارة الغرب.

إن المجتمع الغربي يعيش في دوامة هستيريا الأمراض العقلية والجنون والانهيار العصبي وحالات الانتحار، وهذا الواقع الاجتماعي هو غير ما تظهر به تصريحات السياسة والحكام الغربيين.

هذا كله يدل على حاجة ماسة لإعلام موضوعي وحيادي، يخرج الإنسان من قوقعة الخوف ومن شرقة اليأس التي تلفه ليوصله إلى السعادة الحقيقية من خلال إرشاده إلى طريق الإيمان.

إن سعي أوروبا مجتمعة لإيجاد برنامج تلفزيوني موحد لسد حاجات شعوبها الأكبر دليل على الإفلاس الجذري الذي مس أسس الأيديولوجيات الحديثة وقواعد الفلسفة الوضعية البديلة عن الدين حياة الإنسان.

إن الواقع بصوره المتراكمة هذه، يضاعف من مسؤولية الدول الإسلامية لتكون في المستوى وتقديم البديل، إذ الكل يتجه نحو إيجاد أيديولوجيا جديدة تقوم على أساس عقائدي متين. إذ الإنسانية في حاجة إلى دين سماوي تستقيم بها خطاها، والإسلام هو الدين الذي ينتشل البشرية من المصير المشؤوم.

أما النوع الثاني من تقنيات الإعلام؛ فهو النوع القائم على أساس فلسفي معين، مستخدمة - أي تقنيات الإعلام - في ذلك معطيات علم النفس (الآليات النفسية) وعلم وظائف الأعضاء، لنفهم مدى تأثير الإعلام في البنى الاجتماعية على مستوى الفكرة والشخص - أي شبكة العلاقات الاجتماعية -.

لعل المدخل التقني يفيدنا في فهم التكنولوجيا المعاصرة وكيف استطاعت أن تسيطر على مجال النفس الإنسانية التي كانت إلى وقت قريب، محل شك وريب عند البعض من مثقفينا ومتدينينا بسبب مسألة مدى إمكانية اعتبار مجال النفس والاجتماع والتاريخ والأدب علما مثل العلوم المادية الأخرى.

ومن زاوية أخرى، نتمكن من معرفة خصائص مجتمعاتنا العربية والإسلامية الراهنة وأمراضها واستعداداتها لحمل أمراض جديدة، لعلها تكون خطوة من أجل إرساء قواعد إعلام عربي وإسلامي خاصة وهي تعيش حالة تكالب ومحاولات إدماج ومسح لهويتها

وخصوصياتها الثقافية والحضارية بشتى الوسائل ومختلف الأساليب والمناهج البحثية الأكاديمية، خاصة تلك المتعلقة بالمنهج الحفري والتفكيكي الصادرين عن المدرسة الفرنسية، وذلك كله في إطار الصراع الأيديولوجي، صراع أفكار أو بمعنى آخر صراع حضاري.

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة هو الآتي:

١/ التعريف بالمصطلح.

٢/ موضوع الإعلام.

٣/ المنهج والأسلوب.

٤/ نموذج الدراسة.

أولاً: التعريف:

هناك جملة من المصطلحات في المجال الإعلامي، وكل فئة من هذه الإصطلاحات تخص أحد المجالات الإعلامية المتخصصة، وابتداء في هذه الدراسة يجب وضع التعريفات لبعض المصطلحات المرتبطة بموضوع الدراسة.

١/ تعريف (التحليل) Analysis: التحليل هو عملية ملازمة للفكر الإنساني لأنها مرتبطة بطبيعة تكوينه، وهي إحدى صفاته، تستهدف إدراك العلاقة بين الأجزاء المركبة للكل، ومن خلال عزل العناصر البسيطة بعضها عن بعض ومعرفة خصائصها وسماتها وطبيعة العلاقة القائمة بينها^(١).

والعلاقة تبدأ بين متغيرين أو أكثر^(٢)، وبإدراك هذا الاتصال، يمكن معرفة (العلة) و(المعلول) أو لنقل (السبب) و(المسبب)، بمعنى آخر: "التحليل هو عملية عقلية ملازمة للفكر الإنساني، تستهدف إدراك العلاقة بين متغيرين أو أكثر بالاعتماد على أساس مبدأ السببية ومبدأ التأثير المتبادل"^(٣).

١- محمد عبد الحميد، تحليل المحتوى في بحوث الإعلام، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر ١٩٧٩، ص ١٣.

٢- نفس المرجع، ص ٨٢.

٣- نفسه، أنظر هامش صفحة ٢٣٨.

٢/ تعريف (المحتوى) Content: المحتوى في عرف علوم الاتصال هو المادة الاتصالية بين الأفراد المتمثلة في الكلام أو الكتابة أو الإشارة في شكل صور سلوكية مختلفة.

بهذا التعريف نفهم بعد المادة الاتصالية بين الأفراد، إذ هي قائمة على أساس (الحاجة) و(الضرورة) من أجل إكمال وجوه النقص الموجودة في المجتمع في كافة مجالاته المختلفة.

ومن نقطة الابتداء هذه تحدد الحاجات والأهداف في صورة سلوك تحكمه قيم وأعراف وتقاليد إجتماعية والتي تكون في الأخير الموروث الثقافي الذي يميز هذا المجتمع أو بالأحرى الموروث الثقافي الذي يطبع سلوك الفرد ويكون شبكة علاقاته الإجتماعية في حدود المميز الإجتماعي الخاص به.

٣/ تعريف (العملية الإعلامية): العملية الإعلامية هي ظاهرة إجتماعية متحركة غير ثابتة متفاعلة فيما بينها، تسعى لكشف الارتباطات العضوية بين مختلف العلاقات الاتصالية بين الأفراد (المرسل / المستقبل) لأن التغير أو عدم الثبات يدل على الحركة ؛ فالتغير (س) مثلاً له أكثر من قيمة على مجال التطبيق، وتعدد قيم (س) تعني حركة هذا العنصر في اتجاه ما، وعلاقة (س) بغيره تعني مدى التفاعل من خلال التأثير والتأثر بين هذه المتغيرات أو العناصر.

وفي الأخير، من خلال معرفة المتغير والقيمة أو القيم المختلفة لهذا العنصر والاتجاه لحركته، نكون قد عرفنا عدد العلاقات بالعناصر الأخرى أو بالأحرى شبكة العلاقات.

هنا تدخل فائدة (التحليل) ل (المحتوى) أو (الفحوى) الإتصالي أو الخطابي بين أفراد المجتمع، لأنه وكما مر معنا سابقاً في تعريف التحليل أنه: عملية عقلية تستهدف إدراك السبب والنتاج والعلاقة القائمة بينهما على أي أساس تكونت وإلى ماذا ستصير؟...

أما الآن نمر إلى موضوع الإعلام بعدما فرغنا من وظيفة التعريف.

ثانياً: الموضوع Object:

عند تعريف العملية الإعلامية بأنها ظاهرة إجتماعية متحركة غير ثابتة، إذن على أساس هذا التقديم التعريفي يمكن معرفة موضوع الإعلام: هو المجتمع الإنساني المتحرك لمعرفة طبيعة العلاقات بين أفرادها، وحقيقة السلوك الإجتماعي هل هي قائمة على أساس الدوافع أم الأسباب أم الأهداف أم مجتمعة كلها أم بعضها؟

لأن المجتمع حركته نابعة من الإنسان، وعلاقاته تخضع للقيم الخلقية، وبالتالي فأحكامه قيمة، وهذا ناتج عن الأسباب والدوافع والأهداف الحقيقية المحركة للسلوك، كما يجب التذكير أن هذه الحركة متعددة الاتجاهات بتعدد المتغيرات، ومن ثمة دوائر الاتصال ومجموع العلاقات تتعدد تبعاً.

وبعد معرفة الظاهرة الاجتماعية وخصوصيتها المنفردة بها عن الظاهرة الطبيعية، يمكن معرفة الصعوبات القائمة في وجه رجل الإعلام، ولكن مع تقدم العلم وارتفاع مستوى التقانة (التكنولوجية) الاتصالية، أصبح من الميسور لرجل الإعلام أن يخضع إحدى الدوائر الاجتماعية للاختبار مستعينا في ذلك بمعطيات العلوم التالية:

١/ علم النفس الذي يهتم بالبعد الفردي.

٢/ علم الاجتماع المهتم بالبعد الاجتماعي.

٣/ علم وظائف الأعضاء المهتم بالسلوك الفيزيولوجي وعلاقته بالجانب النفسي وبالمؤثرات السمعية والبصرية على الحملة العصبية ومن ثمة التأثير على الإدراك والقرار.

وبعد هذا التعريف الإجرائي المختصر لموضوع الإعلام ندخل إلى مجال التعرف على المنهج والأسلوب المتبع في العمل الإعلامي.

ثالثاً: المنهج والأسلوب:

إن العمل الإعلامي باعتباره عملية بحث في الوسط الاجتماعي، تتصدره مشكلة تحديد موقعه من المناهج والأدوات البحثية، وهذا المشكل القائم موجود في البحوث العربية حيث الخلاف مركز حول اعتبار الإعلام (طريقة) Method أم (أسلوباً) Technique؟

لكن الدراسات والبحوث الغربية لا يوجد عندها هذا التعارض القائم، لأنها من حيث التطبيق لا تهتم إلا بالأسلوب Technique، وهذا للإستعمال الوظيفي النفعي، وهذا راجع للتركيبة العقلية التي بنيت عليها الذهنية الأوروبية - الغربية؛ فعرفت بالعقل العملي أو التطبيقي وبالبراجماتي في أمريكا أو بالأمبريقي.

لذا نشهد مدى التقدم المهول في الوسائل والآلات التطبيقية عند الإنسان الغربي بل يمكن أن نطلق على حضارته أنها حضارة الوسائل، لأن السؤال المطروح دائماً في ذهن الأوروبي هو: كيف؟

فإذا قمنا بعملية مقارنة بين التقدم التقني في الوسائل الإعلامية بين رجل الإعلام العربي والمسلم ورجل الإعلام الغربي والأمريكي، بكل سهولة يمكننا أن ندرك البون الشاسع بينهما، بل في بعض الأحيان لا مجال للمقارنة، وهذا شيء بديهي بحكم التخلف العلمي والهيمنة الأيديولوجية والاستلاب الثقافي والسياسي الذي مورس على العالم الإسلامي من خلال آليتين إثنين وهما: الإستعمار الأوروبي المباشر للشعوب العربية والإسلامية، ومن خلال أجهزة حكومات في كثير الأحيان حبلها السري موصول بالإملاءات الغربية مما يشوش الرؤية عن إدراك مكان القوة والضعف الحقيقية وهذه ثنائية الأثافي.

ولذا يبقى الباحث العربي والمسلم دائماً، رهين التعريفات الكلاسيكية، والبحث عما إذا كان الإعلام كباقي العلوم الأمبريقية - التجريبية الأخرى، أم ليس علماً بعد؟ نقطة الاستفهام هذه، لازمة تتابع الفكر العربي والإسلامي المعاصرين دائماً. من خلال التعريف السابق لموضوع الإعلام والمساحة التي يتحرك فيها، بكل سهولة نقول بأنه - أي الإعلام - يعتمد مناهج علم الاجتماع وعلم النفس وعلم وظائف الأعضاء، ولهذا نجده يعتمد الإحصاء والإستقراء والمقارنة.

أما الجانب الأسلوبى هو الأهم في هذه الدراسة ويتلخص كالآتي:

١/ من (المرسل) Who Sender:

أ/ تحديد النوايا والأهداف

ب/ تحديد الاتجاهات

ج/ الكشف عن السمات الشخصية والاجتماعية.

٢/ ماذا (المحتوى) What:

أ/ الكشف عن وظائف الاتصال

ب/ الكشف عن السياسات والأهداف

ج/ الكشف عن الأنماط والمعايير الاتصالية

د/ الكشف عن مراكز الاهتمام

هـ/ الكشف عن مراكز تدفق المعلومات.

٣/ لمن (المستقبل Whom):

أ/ دراسة الأنماط الثقافية والفكرية والعقدية

ب/ دراسة التغير في هذه الأنماط

ج/ دراسة طرق تحقيق الغايات والأهداف.

أما تفسير المعطيات يكون من خلال:

١/ التفسير على أساس الدوافع Motives^(١):

يعنى هذا النموذج بتفسير سلوك الفرد داخل المجتمع، أو السلوك الإجتماعي من خلال الأهداف والنوايا؛ فالنية مرتبطة بالضمير ولا يمكن مشاهدتها، لكن الهدف يمكن أن يعرف من خلال السلوك، وبالتالي حسب نوعية الحاجة يتحدد الهدف والنية والوسيلة.

وهنا يمكن تحديد الفئات الاجتماعية الخاضعة لهذا المعيار كالآتي:

أ/ فئة الموضوع Subject Matter: تفيد في الكشف عن مراكز الاهتمام في المجتمع.

ب/ فئة الاتجاه Trend & Attitude & Direction: وهي ثلاث مجموعات: مجموعة (المؤيد) Favorable، و(المعارض) Unfavorable، و(المحايد) Neutral.

ومجموعة المؤيد تصنف إلى: ١/ الاتجاه الإيجابي المطلق.

٢/ الاتجاه الإيجابي النسبي.

٣/ الاتجاه الإيجابي المتوازن.

ومجموعة المعارض تصنف إلى:

١/ الاتجاه السلبي المطلق.

٢/ الاتجاه السلبي النسبي.

٣/ الاتجاه السلبي الصفري الذي لا يبدي أي جانب سواء كان بالسلب أم بالإيجاب.

١- محمد عبد الحميد، مرجع سابق، صص ٢٤٠ - ٢٤١.

ج/ فئة الأهداف Goals: تهدف إلى تحديد السمات للأشخاص والمجتمعات ومن خلالها يمكن الكشف عن مراكز التوجيه الحقيقية في المجتمع أي الفاعل Actor الحقيقي، والكشف عن الصفوة وصانعي القرار.

٢/ التفسير على أساس الأسباب Causes^(١)؛

معرفة السبب الأولي، تؤدي إلى معرفة طبيعة السلوك، وبالتالي يمكن كشف دوافع الفرد وأهدافه. والأسباب هي الظروف والملايسات المحيطة بالإنسان أو الحدث، والتفسير على هذا الأساس يعطي إمكانية التنبؤ أو معرفة إلى ماذا سيصير عليه الأمر.

وبما أن النتائج تتفاوت في ارتباطها بالوقائع والأحداث كأسباب، يمكن تفسير سبب القوة والشدة، أو الضعف والانعدام في ردود الأفعال والسلوك بصفة عامة.

٣/ التفسير على أساس الوظائف Functions^(٢)؛

التفسير على أساس الوظائف يؤدي إلى الكشف عن إمكانية الفرد في الإطار الاجتماعي العام والدور الذي يلعبه في النسق العام للحركة الاجتماعية، وبالتالي يمكن تحديد (الوسيلة) و(الاتجاه) و(الوظيفة).

رابعاً: نموذج تطبيقي للدراسة: (حرب الخليج ١٩٩١)

إن المتقضي لصورة العالم الإسلامي اليوم، يراه في موج من الاضطرابات بين القيم العقديّة والاعتبارات السياسية والضرورات الاقتصادية، ولو تصفحنا الخارطة الجيو - إعلامية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط نجد ما يلي:

١/ إمتداد خيوط شبكة إعلامية كبيرة في أوروبا بأكملها تسير وفق السياسة الأمريكية الجديدة والمتمثلة في المشروع العالمي الجديد، أي عهد ما بعد مشروع مارشال.

٢/ وقوع الشمال الإفريقي الذي ينتمي إلى العالم الإسلامي تحت (عملية تسليط الضوء) عليه، و(استقطاب الانتباه وعملية الإدراك) بواسطة مد الإعلام الغربي خيوط شبكته

1- نفسه، صص ٢٤١ - ٢٤٢.

2- محمد عبد الحميد، صص ٢٤٢ - ٢٤٣.

الأخطبوطية على فضاء الشمال الإفريقي. وهذا ما كشفته حرب الخليج في شهر يناير ١٩٩١ م عند أول يوم لإندلاع الحرب، حيث قالت وكالات الأنباء الغربية بأنه تم القضاء على العراق ثم بدأ التراجع.

وهذا ما يفسر التبعية المطلقة لإعلامنا لأنه لا يملك الخبر لأنه لا يملك المصدر ولا الوسيلة لجمع الخبر ومن ثم تحليله.

ونستنتج من هذا أن عملية الحصار الإعلامي هذه عن طريق مد شبكة الأقمار الصناعية والهوائيات على فضاء الشمال الإفريقي، هي (عملية خلق محيط معين) يحاصر العقل العربي ويجعله في شبه عزلة عن العالم الآخر؛ وفي حالة شروء وذهول فلا يتأثر إلا بما تفرزه الهوائيات من أنزيات تعتبر عامل توجيه لعقل مسلم شمال أفريقيا، وهذا بالفعل ما أفرزته حرب الخليج عن طريق شبكة cnn الأمريكية التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون.

بمعنى آخر، أنه واقع تحت عملية دراسة أفكاره وتوجيهه حسب إرادة المنوم (عملية إحاء) من أجل (إشراط) السلوك فيما بعد، وهنا لابد من سؤالين، أو بالأحرى لابد من سؤال يتعلق بعنصرين هما: (الكيفية) والآخر (السببية)، وإذا تمكنا من حل العنصر الأول (الكيفية) لأمكنا من حل العنصر الثاني (السببية).

أ/ العنصر الأول: نبحت من خلاله كيفية تطبيق شبكة الإعلام الغربي خطتها في محاربة فكرة ما، تظهر على تضاريس الخارطة السياسية للشمال الإفريقي، وفي حصارها وعزلها عن بقية العالم.

في البداية نقول: أن الخطط المعتمدة هي خطط "علم النفس الإكلينيكي"، التي تدرس السلوك الإنساني تحت ظروف معينة. نحن إذن أمام دراسة كيفية استعمال "الآليات النفسية" وتوظيفها عن طريق توجيه تأثيراتها إلى الجمهور عن طريق استقطاب انتباهه بحركات الضوء والظلام، شدة الإنارة وضعفها، والصوت من خلال رفع نبرة الصوت وخفضها، والحركة نقصد بها التشويش، الإشاعة والتضليل.

إذ عند تحليل عنصر الكيفية إلى مركباته البسيطة، نجد أنها تتلخص في: "الحرمان" و"الكف" اللذين يسلطان على دائرة المعنى بالأمر، والمثال الذي اخترناه هو "حرب الخليج" والتي مرت بثلاث مراحل وهي:

المرحلة الأولى: تهيئة الرأي العام لحرب الخليج عن طريق التحدث عن القدرات العسكرية للعراق، وقوته التدميرية المتمثلة في الأسلحة الكيماوية والنووية، والمدفع العملاق... إلخ، من الأسباب المختلفة من أجل إضفاء الشرعية على حرب أمريكية في منطقة الشرق الأوسط وفق إستراتيجية الدومينو.

المرحلة الثانية: هي الدخول في الحرب بعد إيجاد المبرر السياسي والمتمثل في نقطتين هما: النقطة الأولى: العراق كقوة إقليمية في منطقة الخليج يهدد السلام في منطقة الشرق الأوسط، ولا بد من وجود التوازن الاستراتيجي العسكري.

أما النقطة الثانية؛ فهي احتلال العراق للكويت كان السبب المباشر، حيث وصف باللاإنساني والاعتداء على السكان وترويعهم، ومن ثم تابعت قرارات الأمم المتحدة لإدانة العراق عن طريق الحصار الاقتصادي وإخضاع العراق عن طريق التصفية العسكرية، وانتهاك سيادته من خلال لجان التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل، ومنع الدواء والغذاء عن شعبه مما أدى إلى وفاة مليون طفل وانتشار الأمراض.

المرحلة الثالثة: إندلاع الحرب وتوظيف شبكة الإعلام الغربي لهذا الغرض، وتحت مراقبة البنتاغون الأمريكي، والوحيد الذي سمح له بنقل الأخبار عن كذب هو شبكة CNN.

الأهداف:

١/ من أجل تحقيق نظرية أو قاعدة التوازن الإستراتيجي في منطقة الشرق الأوسط، يقضي بعدم وجود أية قوة إقليمية، معناه حماية أمن الكيان الصهيوني وبقائه القوة الضاربة في الشرق الأوسط.

٢/ تدمير العراق تحت عنوان: من أجل السلام في الشرق الأوسط، هو عملية يراد من ورائها تمرير المشروع الدولي الجديد في طبيعته الأمريكية، والقائم على فلسفة القطب الواحد من حيث التوجيه السياسي، بدل وجود قطب ثان معارض والمتمثل سابقا في الاتحاد السوفياتي.

٣/ وجود نظام دولي جديد، معناه وجود قيم كونية جديدة تستمد مفاهيمها من الديمقراطية المزعومة، حقوق الإنسان، الليبرالية، التعددية والتسامح، من أجل تكريس النظام System الجديد وفق أطروحة نهاية التاريخ لفوكو ياما..

وهذا بعد تحطيم مبدأ الثنائية Dualité الذي ظل قائماً لأربعة عقود خلت على مسرح السياسة العالمية، إذن القضية لعبة أعم جديدة.

إن محاصرة الإعلام الغربي للعالم الإسلامي وعزله عن منطقة الصراع أيام حرب الخليج كان بمثابة عملية "حرمان" أشاعت الفوضى في النفوس والقلق إلى درجة الهوس، كما أشاعت الحيرة والذهول واليأس. لأن الذي يملك الخبر ووسائل نقله دائماً هو الغرب، ولا يسمح بتمرير إلا ما يريد، هنا تفقد الحقيقة معناها وتضيع في عالم الفوضى والإشاعة والتوجيه.

قاعدة: الإشاعة = الأهمية x الغموض

عملية الحرمان هذه، أدت إلى كف جميع الأنشطة العقلية والحيوية التي بإمكانها مساعدة العراق وفك الحصار المضروب عليه وتوسيع دائرة الصراع التي يخشى الغرب عواقبها، كل هذا من أجل تثبيت فكرة اللافعالية في النفوس، وتهيئة العقول والضماير لتقبل النظام الدولي الجديد من زاوية الاستسلام للأقوى ولا جدوى من المقاومة..

وفق هذه الإستراتيجية، واصلت شبكة الهوائيات عملية إفراز أنزيمات جديدة تصبها في القالب الفكري لعقل سكان الشمال الأفريقي، بعد محاصرته من كل الجوانب طبعاً، بل وصلت إلى حد إحلال القطيعة بينه وبين دول مشرقية عربية مسلمة مثل: مصر والسعودية وسوريا بسبب مواقف ساستها، وهذا يعتبر من الوجهة الإستراتيجية أن أمريكا استفادت من تجربة كامب ديفيد الأولى والتي لم تؤثر إلا على مصر من خلال عزلها عن العالم العربي، ولكن هذه المرة ازدادت مساحة بقعة الزيت التي سكبتها الولايات المتحدة، ومن ثم تحقق هدفا تكتيكياً على المدى القريب وهو تقسيم الساحة السياسية العربية على نفسها شطرين، مما يحقق فيما بعد عملية جلد الذات بدل الانتباه للأهداف الحقيقية من وراء كل هذه الحركة المشوشة لآلية الانتباه عند الإنسان العربي. وهكذا مرة أخرى كرست عملية التجزئة في العالم العربي والإسلامي، وتأكيد الوحدة في الغرب الأوروبي - الأمريكي، وبالضرورة ستكون هناك أفعال وسلوكات مشروطة يقوم بها الإنسان العربي والمسلم وسط ذلك المحيط الذي نسجت أطرافه هناك، تحت مرأى ومسمع من الدوائر المختصة بفرن السيناريوهات المستقبلية.

وذلك من أجل تأكيد عدم جدوى عمل الفكر القومي العربي بمختلف أطيافه وأيضا عدم فعالية الخطاب الديني التقليدي، لأن هذا النوع من الخطابات مناهض بما يملكه من القيم الحضارية لقيم الغرب الكونية الوضعية، ولتوضيح الصورة إليك بمثالين:

الصورة الأولى: وقوف علماء الدين وزعماء التيار القومي العربي في كل من الجزائر وتونس والسودان واليمن إلى جانب العراق ودعمه بالوسائل الممكنة وإحباط الأهداف الحقيقية لأنها معركة حضارية.

الصورة الثانية: في الطرف المقابل، صدور فتاوى ومن مواقع مسؤولة، تقول أن من قاتل مع العراق ومات لم يمت مسلما لأن النظام العراقي ليس نظاما إسلاميا بل هو نظام بعثي.

فالتضاد والتعارض والتباين بين الموقفين يؤدي إلى تمييع القضية، ووقوع الإسلاميين والقوميين في حلبة صراع موهومة بسبب أن كل من الطرفين المضاد والمناصر تميز خطاب كل منهما بصبغة الوثوقية والمطلقية بحيث لا يمكن أن يشك في مصدريتهما لأنهما يستمدان شرعية التشريع والافتاء وإصدار الحكم من مصدر واحد وهو الكتاب والسنة، وهذا كله من أجل تغطية القضية الرئيسة هي الغرب والمشروع الجديد، وتمهيشها عن ساحة الصراع الدولي ومجال الرؤية الإستراتيجية للخارطة السياسية.

أما الجمهور المتتبع للأحداث أثناء الحرب، هو في درجة المنفعل والمتعاطف مع طرف يمثل عنده المثال والقُدوة والأنموذج (الشخصية الكاريزماتية)، وبالتالي فالجمهور سيكون في مرتبة الحكم أو الحاكم على ما يحدث بدافع العاطفة والانفعال، بمعنى قارئ في درجة الصفر غير مدرك للعبة الأيديولوجيا التي تريد توريط كافة القوى القومية والإسلامية سواء العربية منها أو تلك المنتمية للعالم الإسلامي أو حتى التي كانت في وقت الصراع ما بين الكتلتين الشرقية والغربية تحسب على ما يعرف بمنظمة دول عدم الإنحياز التي كانت تريد أن تكون قوة ثالثة في العالم، من أجل أن تورط كل هذه القوى في صراع على مستوى رفيع جدا وفق نظرية الدومينو حتى يتسنى إعادة تشكيل الخارطة من جديد ولكن وفق التصور الأمريكي.

ويمكن أن نمثل لهذا التحليل بخطاطة نفسية توضح المفاهيم الإستراتيجية الجديدة:

نعلم من طريق علم وظائف الأعضاء، أننا إذا سلطنا حزمة ضوئية شديدة على العين سوف تقوم العين باستقبال هذه الحزمة الضوئية ثم نقلها إلى المراكز العصبية الخاصة بالرؤية؛ فتترجمها ثم تكون هناك عملية رد فعل انعكاس.

لكن الصورة الأقرب للمثال هي:

الأقمار الصناعية (منبه) أي (مثير)

شبكة الهوائيات (مستقبل)

الشمال الأفريقي (موضوع التأثير) (استجابة وتنفيذ)

هكذا تصنع الأفكار والمشاعر تحت آلات إلكترونية، أي هناك جسم من عظم وعصب في قبضة آلة من حديد؛ فالتلفاز ما هو في الحقيقة إلا آلة تقوم بعملية (التنبيه) للمتفرج؛ فيجعله في حالة (استعداد) ليقوم بعملية (استقبال) المؤثرات والإحساءات، وعن طريق اللون والصوت والحركة يتكون (الانطباع) في الذهن؛ فيكون في أول الأمر عملية (تأثر) وبعد عملية (تكرار) الفعل بانتظام وعن طريق (الإيحاء المكرر) يتولد (الاقتناع) الذي يؤدي بدوره إلى (الإيحاء) بفعل أو سلوك (مشروط)، هذه هي (الاستجابة الشرطية)، وفي الأخير أصبح الإعلام صانع الانطباع والاقتناع وموجه حركة التاريخ ومقرر المصير..

بهذه الآلية النفسية، يحدث الخير والشر الذي أوحته الأقمار الصناعية إلى عقل العالم العربي والإسلامي من أجل إحداث حالة تعفن مرضي في دائرة الأفكار وهي المعنية بالأمر في نهاية المطاف.

مثال آخر: ظاهرة انتشار الهوائيات في الجزائر

١/ لو تتبعنا الأمر، نجد أن أول من اقتنى الهوائيات هم أفراد ينتمون إلى فئة المترفين المرتبطين من حيث الانتماء الفكري بالغرب؛ فأرادوا من خلال هذه الهوائيات الإبقاء على هذا الاتصال وهم في الجزائر، وبذلك أنشأوا رئة ثانية للأيدولوجيا الغربية للتنفس من خلالها في المجتمع الجزائري؛ فتستنشق هواء النقي (الأوكسجين)، وتنفض فيه زفير الغرب (ثاني أوكسيد الكربون)، وكذلك تمرير الأفكار والمفاهيم عن طريق الصورة المشكلة بالصوت والحركة واللون.

٢/ هذه الفئة أدت إلى وجود عدم التوازن في البنى الاجتماعية؛ فحطمت بنى قديمة وأنشأت بنى إجتماعية جديدة عن طريق توريد الهوائيات إلى الجزائر من خلال فئة المترفين والمحسوبين على الفرنكوفونية كثقافة وقيم.

٣/ زيادة على إحداث تغيير في البنى الاجتماعية، قد تم إحداث فوضى في الجانب الإقتصادي للفرد والمجتمع على حد سواء، إذ الاستيراد يتم بالعملية الصعبة ومن جانب آخر فالمال الموجه إلى هذا النوع من الاستهلاك هو جهد غير مستثمر كان من المفروض أن يوجه لحل أزمة البلاد الإقتصادية. بل حتى الأفراد محدودي الدخل يقتنون هذا النوع من الحاجيات الكاذبة، وإن دل الأمر على شيء فإنما يدل على دائرة الاستقطاب التي وقع فيها هؤلاء، لأن النفس تبحث دائما عن الجديد ومولعة بتقليد الأقوى الذي ترى فيه الأنموذج والمثال والقدوة.

٤/ الظاهرة تدل على مدى فلاح الغرب في إحداث بنيات جديدة في البنية الفكرية، لأن عملية الإستهلاك هذه تدل على استهلاك للمفاهيم والقيم الغربية، إذ المقتني لجهاز الهوائي وقع له تغير في سلوكياته اليومية، من خلال مشطة الشعر ونوعية اللباس وطريقة الأكل والمشي والكلام...

٥/ الصورة تصل عن طريق الصوت الذي يحمل اللغة التي هي في الحقيقة هيكل المفاهيم والقيم والأفكار الغربية - أي الجانب الثقافي - إذ ظهرت في استعمالات الأفراد اليومية كلمات ومصطلحات جديدة بدأت تطفو على السطح مقابل غياب مصطلحات أخرى، بل الأدهى من ذلك هو استعمال اللغة الأجنبية بدل اللغة العربية - التي ينص الدستور على أنها اللغة الرسمية للدولة الجزائرية -.

٦/ عن طريق اللون والحركة يتم نقل السلوك والتقاليد ومظاهر الحضارة الغربية والمتمثلة في: هندسة البناء وهياكل السيارات وطبيعة الطرق المعبدة وكيفية بناء المدن مثل جعل دار البلدية أو الولاية هي مركز المدينة بدل المسجد الذي كان في السابق - كما جاء في مخططات مشروع ألف قرية وقرية للرئيس الراحل هواري بومدين - يعد نقطة المركز التي تلتقي عندها جميع نهايات الخطوط الموجه شعاعها نحو المركز.

الهدف: تقليص فعالية الخطاب الوطني، هذا الخطاب الذي مازال يعتمد الطرق التقليدية التي تعتبر عبثاً أمام هذا المارد الغربي... ومن ثمة يضع الجهد وربما تتقزز النفس وتصل إلى درجة الشعور بتفاهة العمل وعدم جدواه، لأن العدو أقوى منه لتمكنه من نفوس الجماهير بسيطرته على منافذ الحس المعرفية: (السمع) و(البصر) و(الفؤاد).

هذه هي عملية تلوين الأفكار التي لا تملك قوة الدفاع عن نفسها، وبالتالي ليست لها سلطة الرقابة التي تفرضها على كل ما ينقل أو يهرب عبر النواقل التلفزيونية. هكذا تمت عملية تشويه (التصور) للفرد الجزائري، ووقع في المشكل الأخلاقي بمعنى أصبح في حالة استعداد للإصابة بالتعفن، ومن ثمة يصاب الفكر بالشلل، لأنه حصر بين نوعين من (الذهان) Psycose هما: (الحرمان) و(الكف)، ومن خلالهما يتم (إحباط فاعلية الفرد) ومحاولة (المقاومة)، وتكريس عملية الإسقاط والإختزان للعوامل النفسية السلبية فيما وراء الشعور، والاستعداد للإصابة بالمرض (القابلية للإستعمار)^(١).

هذا معناه خلق جو ثقافي - إجتماعي معين يطبع سلوك الفرد ويحدث تغييرات عميقة على المستوى النفسي والعقلي للإنسان.

إذن ثمة علاقة جدلية ثابتة بين الإنسان ومحيطه الإجتماعي، لأن الفرد مقيد إلى حد كبير بالظروف التاريخية والجغرافية لهذا المجتمع، قد يحدث أكبر انحراف على مستوى الدائرة الشخصية.

لذا يعمل الغرب من خلال إعلامه على تكريس عوامل سلبية في تكوين البنية الإجتماعية، لينعكس ذلك بدوره تربوياً على عملية التنشئة الاجتماعية للفرد.

إذن العلاقة معامل جبري، وكما يقول عفيفي: "نحن نربي بتغيير الظروف التي يعيش فيها الفرد، كما أننا نغير البيئة عن طريق تغيير الفرد، ضمن إدراك للعلاقة العضوية بين الفرد والمجال الثقافي"^(٢).

١- علي القرني: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، دار الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، صص ١٢٤-١٢٥-١٢٦.

٢- نفس المرجع، صص ١٢٦-١٢٧، انظر الهامش رقم ٤.

هكذا تغير مفهوم (الحق) و(الواجب) في هذا الوسط الإجتماعي، ويظهر لنا جليا أن مصطلح (التخلف) و(التقدم) و(العنف)، والشعور بـ(النقص) من صنع الغرب؛ فأين هي جدوى الخطاب العربي ثلاثي القوائم سالف الذكر وسط هذا المحيط العفن..

هنا نصل إلى العنصر الثاني (السببية)، أي ما هي الدوافع التي جعلت الغرب يقوم بهذه العملية على مستوى الفكر والنفس؟ والجواب هو:

١/ الغرب بصدد تصدير مشروعه الدولي الجديد؛ فعمل على تهيئة الرأي الدولي العام لتقبل النظام الجديد New System القائم على أساس القطب الواحد.

٢/ تصدير الوسائل والآلات وفائض المنتج الصناعي إلى دول العالم الثالث بما فيها العالم العربي والإسلامي، الهدف منه: جعله سوقا للتجارة الغربية يتم من خلالها تحقيق أمرين إثنين: الأول: تصدير المنتج يفتح سوقا جديدة للتجارة الغربية من أجل ممارسة الهيمنة الداخلية والخارجية في عالم التجارة والاقتصاد، إذ قلة من أصحاب الشركات الكبرى العالمية من أجل الحفاظ على الربح المتعظم يقومون بفتح فروع لشركاتهم خارج دولهم بسبب العمالة الرخيصة مما يقلل من تكاليف الإنتاج، والمحافظة على بيئتهم من التلوث ونظرا لوفرة المواد الأولية الرخيصة ولهذا يسرحون مئات العمال في بلدانهم، إذ كلما تزايد الربح تزايد التسريح، وهذا كله وفق استراتيجية لا أخلاقية لسياسة العولمة الاقتصادية، وهي من منظور علم الاقتصاد السياسي من أجل توجيه اهتمام الفرد نحو كيفية المحافظة على منصب عمله معناه المحافظة على مصدر رزقه؛ فلا عجب إن وجدنا بعد ذلك أن ١/٣ سكان العالم يتمتعون بخيراته فقط، وهذا ما ينذر برجوع ثورات الفقراء على الأغنياء..

الثاني: تصدير القيم الكونية الجديدة من خلال الآلات والوسائل من أجل إلغاء مبدأ التمايز والخصوصية الثقافية والعقائدية والأيدولوجية وبالتالي تسهيل عملية الاستقطاب والاستلاب الفكري، وفي الأخير ضرب القيم الحضارية في مناطق تواردها الذاتي ومحو (الذات) والهوية..

٣/ تحقيق قاعدة التوازن الاستراتيجي من خلال عدم السماح لأي قوة على المستوى الإقليمي بالظهور خاصة إذا كانت من جانب الدول العالم الثالث، تحت عنوان تحقيق

السلم والأمن العالمي وبقاء دولة الكيان الصهيوني كضمان لتحقيق المشروع الجديد. وليس أدل على ذلك من توقيع (وثيقة الأمن مقابل السلام) بين منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة المرحوم ياسر عرفات وإيهود باراك في البيت الأبيض وبرعاية الرئيس الأمريكي بيل كلينتون يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٩٨، وهي الخطوة التي أخرجت المنظمة من دائرة الصراع العربي الإسرائيلي، وتحويل مهمة السلطة الفلسطينية من تحقيق الاستقلال واسترجاع الأراضي المحتلة وعودة اللاجئين إلى مهمة أمنية ضد القوى المناهضة للإحتلال، كما قامت السلطة الصهيونية بضم المزيد من الأراضي في الضفة الغربية وتهديد المسجد الأقصى الشريف.

خاتمة: لماذا الإعلام البديل؟

إن الإنسانية على أبواب الألفية الثالثة، لتدخل مرحلة تاريخية جديدة، حيث الصراع سيزداد حدة، وبلغ مداه، بين القيم الكونية الوضعية الغربية الممثلة في النظام الدولي الجديد، وبين القيم الحضارية العربية الإسلامية والقيم الحضارية الكونفوشية الصينية. إذ نرى أن الأحادية القطبية للعالم وللإنسانية لن يكتب لها النجاح؛ فمبدأ الزوجية مبثوث في أرجاء الكون الفسيح ويعد سنة من سنن الله الكونية في هذا العالم، كما أن الصراع والتصادم سنة تاريخية دورية وهو المعروف في المنطوق القرآني بـ(التدافع) وفي الاصطلاح الفلسفي المنطقي بـ(مبدأ الأضداد).

وبما أن الإعلام يحتل المرتبة الأولى في مجال الصراع الراهن، باعتباره أداة الاجترار الفاعلة في مخططات الحرب السيكلوجية وفي الجراحة النفسية وغسيل الأدمغة وتوجيه الرأي العام، نجد أن الحاجة إلى إعلام بديل ضرورة قصوى وحيوية واستراتيجية لاعتبارات كثيرة نوجزها فيما يلي من النقاط:

١/ من أجل إعادة تشكيل الإنسان في بنيته العقلية والنفسية تشكيلا تجعله محصنا وعارفا لذاته في جذورها التاريخية ورصيدها الحضاري وقيمها الثابتة، وينسحب هذا على كل شرائح المجتمع من أجل تكوين نسيج بشري متجانس في مشاعره وتصورات وحر كته.

٢ / الإعلام البديل له دور في امتصاص الكثير من مظاهر التطرف والغلو والحساس الأعمى، وتفتيق لكثير من الذهنيات الضيقة التي لم تتسع حتى لأبجديات المعرفة الإسلامية والتفكير العلمي الجاد والبناء.

٣ / توفير الجهد على جهات في الهرم الرسمي من أجل استغلال أمثل حتى لا تنشغل بالأمور الثانوية الناتجة أساساً عن غياب منابر الترشيد وتجاهل التحديات الخطيرة التي تعاني منها شرائح إجتماعية واسعة وانعكاساتها السيئة على جانبهم العقلي والسلوكي.

٤ / حضور الإعلام البديل سيحقق التوازن الاستراتيجي في ساحة الإعلام الدولي ويجعله شريكاً لقنوات وشبكات الإعلام الغربي والأمريكي، لذا لابد من تطوير الوسيلة حتى تستطيع تبليغ الرسالة.

المبحث الرابع

فلسفة الإقتصاد الغربي، قراءة في الأصول

مدخل للدراسة:

كانت اليابان تعتبر من أقوى البلدان إقتصاديا حتى الأس القريب، فقد كان الفائض في ميزان مدفوعاتها سنة ١٩٧٠، ٠١ بليون دولار وفي سنة ١٩٨٠، ١٠ بليون دولار وفي سنة ١٩٨٦ أكثر من ٧٠ بليون دولار، وفي الخط الموازي كان العجز بين في ميزان المدفوعات الأمريكية أكثر من ٣٠ بليون دولار، بمعنى أن اليابان مسؤولة عن نحو مليوني أمريكي عاطل آنذاك، كما أن دخل الفرد الياباني بلغ سنة ٢٠٠٠ نحو ٢١٢٠٠ دولار، في حين وصل دخل الفرد الأمريكي نحو ١٧٠٠٠ دولار، ولقد ذكر صحفي وكاتب أمريكي إسمه (مارفن وولف) في كتابه المعنون (المؤامرة اليابانية):

"بأن اليابان تخطط للسيطرة على الإقتصاد العالمي" ويذكر من أسباب التفوق الياباني الإدارة التي يتمتع بها اليابانيون:

١ / التخطيط الإقتصادي للسيطرة على إقتصاد العالم أو كما يسميه الإستبداد الإقتصادي.

٢ / توفير نفقات الدفاع بنحو ٧٠ بليون دولار.

ولكن الذي يهمننا في هذا التصدير هو (البعد الروحي) أو (النسق الحضاري) حتى نتمكن من ضبط (الزمن الحضاري)، الذي نحيا مختلف تمظهراته، وفي هذا الصدد حاول إثنان هما "بل" و"ليدن" من المختصين في شؤون الشرق الأوسط تحليل أوضاع بعض الدول النامية في المنطقة من زاويتين:

(زاوية التحديث) و(زاوية التطور السياسي)، والذي يهمننا هنا هو موضوع التحديث الذي يعرفانه بأنه "العملية التي تزداد فيها قدرة الإنسان على التحكم فيما يحيط به"، ولا شك أن أهم أبعاد التحديث هو الثورة التكنولوجية وما نتج عنها من تطور في الصناعة والزراعة والمواصلات.

ويقترح "بل" و"ليدن" بأن الإنتاج القومي لا يمثل مقياساً أو مؤشراً دقيقاً للتحديث، ولذلك فإنهما يأخذان بمقياس آخر وضعه باحث هو الدكتور موريس ويتكون هذا المقياس من:

١ / متوسط العمر.

٢ / وفيات الأطفال.

٣ / نسبة الأمية.

ومن هذه العناصر الثلاثة يتم الحصول على مقياس "بكلي" والذي تتراوح نسبته ما بين الصفر والمائة (٠ - ١٠٠).

وبعد المقارنة يستنتج بل وليدن بأن موقع الشرق الأوسط في منتصف السبعينيات هو في مؤخرة دول العالم الثالث ويعزيان ذلك إلى عامل الزمن، حيث أن زيادة الدخل طرأت حديثاً على دول الشرق الأوسط، ولكن من وجهة نظر مخالفة ليس هذا هو السبب الفعلي والوحيد إذ أنها أهملت عاملاً رئيساً ألا وهو العامل الإستعماري الأوروبي للمنطقة منذ عهد الإمبراطورية العثمانية (ممتلكات الرجل المريض).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لماذا هذا الفرق الشاسع في الثراء المادي بين الشرق والغرب؟

والجواب على هذا التساؤل الضروري والمنهجي في موضوع يمس طبيعة العلاقات الدولية وطبيعة غلبة حضارة جديدة على حضارة سابقة، لا بد من تفريع الجواب إلى مركبتين وهما:

١ / الأولى، تتعلق بـ (النسق أو البناء الحضاري).

٢ / الثانية، تتعلق بـ (الخلفية الذهنية) للفرد الأوروبي اتجاه الحضارات الإنسانية الأخرى.

من حيث المبدأ، هناك ثلاث قوى تؤثر في الإنسان وهي:

١ / الأساس الغيبي (القوة الروحية).

٢ / الأساس العقلي (القوة العقلانية).

٣ / الأساس التواصل (القوة الغريزية).

إذ الأساس الغيبي هو تعبير عن رابطة روحية تشد الإنسان بخالقه وطاعته له والإلتزام بأوامره، والإنتهاء عن نواهيه، بينما الأساس العقلي فهو تعبير عن حركة التفكير الإنساني وكيفية تدبيره لمعاشه وتسخيره لأنعم الله الموجودة في البر والبحر والسماء بهدف تحقيق الإعمار في الأرض. أما الأساس التواصلية؛ فهو تعبير عن دافع البقاء ووظيفة التناسل لحفظ النوع البشري، هذا على المستوى الأفقي، وعلى المستوى العمودي (من زاوية رؤية حضارية) معناه: المحافظة على العامل الرئيس في البناء الحضاري وهو: الإنسان = اليد + الفكر.

ولكن البناء أو النسق الهيكلي للحضارة الحديثة نجده ذا تراتبية تشكلت كالآتي:

الحضارة الغربية: ١ / الغريزة

٢ / العقل

٣ / الروح

والاستنتاج الذي نسجله هو: أن الحضارة الغربية غيرت من ترتيب العناصر البنائية في سلم القيم لديها؛ حيث استبدلت الروح بالغريزة، وأنزلت الروح في المستوى الثالث، أما العقل فهو الوحيد الذي بقي محافظا على موقعه في سلم القيم، ولهذا السبب نفهم لماذا استطاعت الحضارة الغربية أن تحقق تطورا ملحوظا في الميدان التكنولوجي؛ حيث سخرت طاقات الأرض والفضاء لخدمتها وهذا يعبر عن حالة مرضية أو عن عاهة ذهنية أو خلاا تركيبيا على مستوى الوظيفة الفكرية لدى الفرد الغربي، وهذا الخلل ناتج عن أسباب تاريخية وله مبرراته الإجتماعية، ولكن له دوافع ذاتية ألبست العالم الغربي بها، في الظاهر نجد - أي الخلل - مقترنا بـ (المفهوم) أو (البعد المادي) لمعنى الحضارة.

وبالعودة إلى الجذور التاريخية، نجد إن أولى خطوط الاتصال بين العالم الإسلامي والعالم الأوروبي هي الحروب الصليبية، التي فتحت للشعوب الأوروبية باب الحضارة على مصراعيه، إذ لم يكن لأوروبا العصور الوسطى من الفكر ما يغري العرب أو المسلمين بل على العكس، انتهت هذه الحروب بعد قرنين من الزمان بتأثر الغزاة بحضارة البلاد التي غزوها. فشرعوا بعد هزيمتهم في السير نحو النهضة والإحياء بل واكتشفوا تراثهم اليوناني عبر حضارة المسلمين، وهنا ظهرت روح جديدة في الكيان الأوروبي الذي استغلته الكنيسة

وحجرت على العقل، واتهمت كل اجتهاد أو ابتكار علمي خارج أسس أرسطو وبطليموس بالمروق عن الدين. وهنا دخلت فكرة الزمن الاجتماعية مجال التفاعل الحضاري؛ فاقبَس الغرب من العرب أسس الحضارة والأخذ بأسباب التقدم في كافة الميادين، وازدادت شراسة الاقتباس من المسلمين وذلك وفق خطط مدروسة بين الكنيسة ورجال السياسة في أوروبا والعلماء والهدف من ذلك إحكام السيطرة على العالم الإسلامي ولكن وفق منظور إستراتيجي بعيد المدى، حيث اتضحت معالمه مع بدايات التاريخ الحديث الذي عرف ما أطلق عليه عصر الكشوفات الجغرافية والاستعمار الحديث، هذا العصر الذي عرف لأول مرة في تاريخ أوروبا تحالف الكنيسة والإقطاع والعلم لخدمة مصالح أوروبا التوسعية، حيث تم التواضع على أن يخدم الإقطاع أهداف الكنيسة التنصيرية التي تريد تسيح العالم وأن تساعد الكنيسة الملكية الأوروبية بإعطائها بركتها كي تستطيع جمع المال والرجال والسلاح وكل ما يلزم بهدف إستعمار المزيد من الأراضي لتتوسع بذلك رقعة الإمبراطوريات الحديثة (الإسبانية والبرتغالية)، وتغيير مسار التاريخ عن طريق استثمار معطيات الحضارة الإسلامية خاصة تلك المتعلقة بجغرافية الأرض والملاحة البحرية كما فعل فاسكو دي غاما^(١) البرتغالي الذي استعان بمعرفة الملاح ماجد اليميني إذ من خلاله اكتشف رأس الرجاء الصالح الموصل إلى القارة الهندية وبذلك انتهت وساطة العالم الإسلامي التجارية في العصر الحديث، الذي بدأ يتجه نحو الركود بعد أن توزع إلى دويلات متناحرة فيما بينها، عالم تقلصت قوته الحيوية بسبب الجمود الفكري الذي شلت فعاليته يوم أصدرت فتوى (لقد أغلق باب الإجهاد) وأنه (ليس في الإمكان إبداع خير مما كان)؛ فتحولت روح العلم إلى عالم آخر بدأ في البروز مقابل عالم آخر بدأ يخبط في العتمة والعفاء.

وهنا علينا أن نطبق مبدئين فيزيائيين وهما: (مبدأ الحركة والتغير) مقابل (مبدأ السكون والثبات).

١- فاسكو دي غاما: بحار برتغالي ومكتشف، ولد سنة ١٤٦٩ في البرتغال وتوفي في ٢٤ ديسمبر ١٥٢٤ بالهند. اكتشف سواحل إفريقيا الشرقية واستعان بالملاح أحمد بن ماجد الملقب بشهاب الدين، حتى وصل إلى كالكوته بالهند.

لقد غرق العالم الإسلامي في تلك الفترة في غياهب القوى الخفية، حيث استبدل الأساس الغيبي (الوحي) بالخيال السادج ذلك الظل المشوه للصور المنطبقة على الشبكية، مما أدى إلى قلب للمفاهيم، وهنا برزت ظاهرة مقلوبية الأفكار والقيم والتصورات في المجتمع الإسلامي إلى الوجود.

لقد انحرف خط الحس الحضاري الإسلامي، وأصبح يقوم بالأدوار نفسها تلك التي اشتهرت عن الكنيسة، من رموز وطقوس تعبدية لا تسر فيها روح الدين الحنيف بل بهرجة وزخرفة من الخارج وجوع روحي من الداخل، وكلما توقف (العقل) تعطلت عجلة الزمن الحضاري وهكذا جلجل سلطان الخرافة ليغدو صنما يعبد بيننا (العقل) صار سجيناً في أغلال الكتب لا يتعدى حدودها وهكذا وقعة النكسة الكبرى عندما تعطل دور الفرد المسلم في إدارة عجلة الحضارة الإنسانية.

هذا هو مبدأ الثبات والسكون، والآن علينا بتحليل المبدأ الثاني وهو (الحركة والتغير) دلالة على الشعور بالمشكلة وخطوة نحو النمو.

إن العالم الغربي بعد انتهاء الحروب الصليبية عرف (بادرة حضارة)، لأنها - أي الحروب الصليبية - وضعت الأوروبي أمام مشكلة حقيقية، وهي البحث عن الذات واستكمال الوعي بالوجود وإثبات الأنا هذا أولاً، وللخروج من هذا العائق أضحى الأوروبي يمارس عملية تحصيل معرفي على كافة الأصعدة، وهنا ظهرت الأفكار الجديدة ومعها كانت دلالة الشعور بالمشكلة...

وهنا ندخل لدراسة نفسية لعالم (الأشخاص) ولعالم (الأفكار) والميكانيزمات المتفاعلة فيما بينها، وندلل لهذه الدراسة النفسية لعالم الأشخاص وعالم الأفكار بالنسبة للإنسان الأوروبي بما قاله مونييه Mounier^(١) "يهدف كل عمل إلى أن يصنع في نفس الوقت (إنساناً)

1- إيمانويل مونييه: فيلسوف وكاتب فرنسي من مدينة غرونوبل، ولد عام ١٩٠٥ وتوفي عام ١٩٥٠، حصل على شهادة التبريز في الفلسفة عام ١٩٢٨، وكان متأثراً بأستاذه جاك شوفالييه وكذلك بهنري برغسون وماريتان. أسس عام ١٩٣٢ مجلة إسبري Esprit، وهي المجلة التي جعل مهمتها الأولى فصل القيم الروحية

و(شيئاً)"، وهذا يظهر جلياً في أولئك الألوف من الرجال الذي جاؤوا من أوروبا لمحاربة المسلمين، ولم تكن في أذهانهم صورة صحيحة عن المجتمع الإسلامي وفاعليات الحياة الموجودة فيه، وفتيات الشريعة الإسلامية في تأطير الحياة الإنسانية وفق طبيعة الإنسان وفطرته السليمة، ووفق فكره الحر وإرادته الهادفة إلى الإبداع والخلق والإكتشاف. ولكن لا يجب أن ننسى أن وقود تلك الحرب الصليبية أو الهجمة الأيديولوجية الشرسة كانت تحركها دعوة التبشير المسيحي التي دامت قرنين من الزمان.

إذن كانت هناك حاجة نفسية ودافع ديني وجه هذا الوضع إلى مخرج آخر، وهو أن العقيدة الدينية تمثل ضمير الإنسان والتي تكون وازعاً دينياً يحرضه على العمل من أجل دينه الذي يعتقد وفكرته التي يعتقد... ولكن هذا التأثير في الحروب الصليبية كان على مستويين:

المستوى الأول: المباشر، بحيث دعت الكنيسة ورجال الدين شعوب أوروبا لشن هذه الحملة الشعواء على المسلمين وسمتها (الحرب المقدسة)، وبأنها أمر الله إلى عباده، إذ كان رجل الدين يعتبر ظل الله على أرضه، وكانت لهذا الأخير قداسة مهيمنة ونافذة على سلطان الإمبراطور الديني. ومن المفارقات العجيبة أن هذا الكلام صدر عن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨ هـ) حيث قال: أنا ظل الله في أرضه، أسوسكم بتوقيقه وإرشاده، إذا شاء فتحني فأعطيكم وإن شاء منعني فأحرمكم^(١).

المستوى الثاني: غير المباشر، وهو شعور الإنسان الأوروبي بعقدة الذنب وعقدة العقاب الجسدي، والتي تعذبه أينما توجه إذ كان مفهوم العمل يرادف العبودية والإسترقاق عند قدماء اليونان بسبب تعلقه بعالم المحسوسات، وبعده عن الحياة الروحية التي يتمتع بها الحكماء، كما كانت الأناجيل تعتبر العمل مذلة ومهانة ومشقة في الأصل نظراً لخطيئة الإنسان الأولى، وهذا ما شكل عبر الزمن في المخيال الثقافي والديني الأوروبي هاجس التكفير وعقيدة الفداء والخلاص، ولقد روج البابا قوله:

للمجتمع البرجوازي الهالك لا محالة في نظره-أي مونييه- وإعادة تجسيدها في مجتمع جديد عمالي القاعدة. وترك مجموعة من الكتب أهمها الشخصية والمذاهب الوجودية ودراسة في الطباع.

1- ابن قنبر الدينوري: عيون الأخبار، المجلد الثاني، بيروت ١٩٥٨، ص ١٥٠.

"بأن الحرب المقدسة فرصة لمن أراد أن يتطهر وأراد المغفرة والفوز بالجنة" - هذا ما جاء في معنى تلك الدعاية الإعلامية للحرب الصليبية -.

لكن بعد احتكاك الأوروبيين بحضارة المسلمين وبالنموذج الفريد للإنسان المسلم، تغيرت نظرهم للحياة وأرادوا الارتقاء إلى مستوى الرسالة الإنسانية وهنا جرت سنة التغيير على المجتمعات الأوروبية، وانطلق العقل من عقاله واتهم الكنيسة بالاستبداد والاضطهاد واللاإنسانية وخيانة الرسالة الحضارية وما جاء في تعاليم الإنجيل الحقيقية، ولذا عرفت أوروبا آنذاك أكبر الهزات على مستوى التيارات الفكرية الجديدة والمتمثلة في التيار الرشدي الذي تسرب إلى أوروبا الغربية بواسطة تلاميذ ابن رشد^(١) مما أدى إلى ما يعرف فيما بعد في تاريخ أوروبا الحديث بالإصلاح الكنسي، وهزة أخرى على مستوى الحقائق العلمية فيما يتعلق بالحياة والكون والإنسان مما أدى إلى نسف نظريات أرسطو وبطليموس والتي كانت الكنيسة تعتبرها مقدسة وكل مخالفة لها هي هرطقة وإلحاد، وهزة أخرى كانت على مستوى الحكم والسياسة مما أدى إلى ظهور الثورات الكبرى في أوروبا وانتشار المبادئ الثورية الجديدة وخاصة تلك النابوليونية التي اهتزت لها عروش الملكيات الأوروبية.

وبهذا رسمت ثلاثة خطوط في تاريخ أوروبا الحديث، وهي خط فصل الدين عن العلم (العقل)، وفصل الدين عن النظام السياسي (السياسة) وفصل الدين عن الإنسان (الحياة الفردية والاجتماعية)، بمعنى آخر توجيه مستقبل أوروبا نحو العلمنة في مستقبلها ومصيرها، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن التغيير الذي أحدثه الفرد الأوروبي في ذاته ليس بوصفه فردا ينتمي إلى النوع البشري بل بوصفه كائنا نطلق عليه إنسان الحضارة، ولقد صدق مالك بن نبي عندما قال:

ناتج حضارة = إنسان + تراب + وقت، وهذا الناتج الحضاري ألا يدل على نوعية الميكانيزمات والعلاقات الاجتماعية التي تحكم المجتمع؟ بلى، بل وتدل على أن أصل هذه التفاعلات العضوية في المجتمع هو: أصل ثقافي، لأن نوع التجمع البشري في أي مجتمع لا بد

١ - ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد، ولد سنة ٥٢٠ هجرية وتوفي في عام ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨ م، ولد بقرطبة، فيلسوف وطبيب وفقيه وفلكي وفيزيائي عربي مسلم.

أن يشرط بنوع من الثقافة التي يمكنها أن تؤطر الكيان الإنساني، وهي جملة القواعد الأخلاقية والجمالية والفنية لذلك المجتمع.

إذن، كانت الكنيسة دوما تقف حدا فاصلا ومانعا بين الأفكار وبين الأشخاص بتعاليمها الضالة؛ ففرقت بين عالم الأفكار وعالم الأشخاص، حيث أرادت أن تجعل من حياة الشعوب الأوروبية شبيهة بحالة الغاط في نومه مع أحلامه الوردية، في حين سقف بيته يتداعى بالإنهيار، أو حالة رجل الدين الهندي عندما تعتريه حالة النيرفانا⁽¹⁾، أو كما يصل الصوفي في رحلته من مقام إلى مقام حتى يصل إلى الذروة وهي حالة الكشف والفناء في ذات المعبود.

وعلى هذا كله، ترتب بغض شديد وحقد دفين على المسلمين بسبب الشعور بالنقص، لذا لما ظهر علم النفس الحديث ظهرت فلسفة أيدلر المتمثلة في فلسفة الإرادة المتحدية، والتي سبقتها نظرية تشارلز داروين والقاتلة بالصراع من أجل البقاء، وبعدها فلسفة نيتشه الداعية إلى أن البقاء لا يكون إلا للأقوى.

ومن الأمثلة السابقة نستدل على وجود صفة خلقية أصيلة في سلوك الشخص الأوروبي منذ آلاف السنين، وهي النظرة النفعية والذرائعية للحياة والتي يمكن أن نجعلها مفتاحا لشخصية الأوروبي ولمعرفة أغواره النفسية، ويتضح هذا بصورة جلية من خلال تلك الرحلات المجازفة بحثا عن أراضٍ جديدة وعن كنوز دفينية.

وبعد، ألا يمكن أن تكون النظرية المذكورة سلفا والتي اصطلحنا عليها "الحركة والتغير دلالة على الشعور بالمشكلة وخطوة نحو النمو" مفتاحا للتاريخ الأوروبي الحديث وكذلك للتاريخ الإسلامي والعربي الحديث.. وبذا تتبين لنا الفكرة المسيحية الماكثة في أعماق ضمير الحضارة الأوروبية؛ فطبعت بطابعها رغما عنها، خاصة إذا أدخلنا عامل الزمن التاريخي والزمن النفساني ذلك العامل الروحي الذي امتد على مدى ألفي سنة من تاريخ المسيحية.. إذن الملحمة الحضارية المسجلة في تاريخ حياة أوروبا هي تجسيد لتلك الفكرة المسيحية مضمونا

1 - النيرفانا: مفهوم بوذي يعني حالة الخلو من المعاناة، تعتبر النيرفانا هي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق، فلا يشعر بالمشاعر الخارجية المحيطة به على الإطلاق. أي أنه ينفصل بجسده وذهنه عن العالم الخارجي.

والإنسانية شكلا. وهكذا تولدت الروح الإنتقامية، الروح الإستبدالية، التي تريد الانسلاخ من ميراثها القديم المشؤوم الذي لم تتذكر منه سوى جرعات المرارة.

ونتج من الخلفيات الفكرية الجديدة نزعات جديدة، ومنها النزعة الكمية التي تهتم بفاعلية الشيء وقيمته من الناحية الكمية العددية، ونحن نعلم بأن الشيء الواحد له وجهتان أو قل نزعتان: واحدة كمية والأخرى شاعرية، ولكن اليقظة الغربية حطمت مبدأ الوحدة الإنسانية إلى جزأين، واحد يسمى (المعنوي) والآخر يسمى (الموضوعي)، وكما هو محصل سابقا أن الناحية المعنوية والتي كانت لها خلفية ذهنية بسبب الكنيسة؛ فإن الإنسان الأوروبي رفض هذه النزعة الشاعرية ولم يؤمن إلا بالناحية الكمية العددية وحتى في مجال الأدب والفن، وهنا حدث الطلاق البائن بين القيم الأخلاقية وبين المفاهيم العلمية التي طبعت الحضارة الحديثة.

مثلا نجد فن التصوير في المجتمع الغربي: فن فاضح لأنه يركز الرؤية الجمالية للإنسان في إبراز مفاتن الجسد وعوراته، كما أن مفهوم اللباس أخذ بعدا جديدا في المجتمع الغربي، وهذا ابتداء من لوحات كبار الرسامين الأوروبيين من لوحات رفائيل ومخائيل أنجلو وبرناد شو وليوناردو دا فينشي، وهذا إن دل على شيء إنما يدل دلالة صريحة غير خفية على أزمة أو عقدة الضابط الديني المسيحي، الذي كبل العقل والروح الأوروبيين ردها من الزمن، مثلما جمد الجليد زمنا القارة الأوروبية فلم تعرف تلك المحاولات الأولى في تاريخ الإنسان لبناء الحضارة.

فالفرد الأوروبي كان يريد دائما الإنعتاق والخلاص من عقدة (الكبت) والنقص والقهر الجسدي التي سببها له (رجل الدين) و(صاحب الإقطاع)، لذا فالتوجيه الثقافي في أي مجتمع إما أن يكون مبنيا على أساس أخلاقي أو على أساس جمالي، وهكذا نستطيع معرفة أبعاد المعاملات المتبادلة بين هذا المجتمع وحضارات الإنسانية الأخرى. وكما أن لقطة النقود وجهان، فلهحضارة كذلك وجهان، إذ أي سلوك حضاري إلا ويتضمن أحد المركبين، إما مركب أخلاقي وإما مركب جمالي، إذ يعتبر هذا النمط من السلوك في حياة الإنسان هو لغة التخاطب والاتصال بين شعوب العالم، لأن اللغة البشرية لها هي بدورها وجهان، وجه مادي والمتمثل في جهاز النطق والعوامل الفيزيائية في كيفية حدوثه، ووجه نفسي والمتمثل في عالم الأفكار، ولذا إذا لم تجد الفكرة المفردة التي تعبر عن قيمتها، وبقيت مجردة وفي عالم اللاواقع واللاشعور مع أنها حاضرة في ذهن الشخص، ولكنها لا تستطيع النزول إلى واقع الحياة؛

فهكذا التعاليم المسيحية بقيت مثلاً عليا، ولكنها فقدت أحد وجهيها فنزعت منها مصداقيتها العملية في الحياة اليومية للإنسان، لأنها كانت تثير في نفسية الأوروبي النزعة النفعية ونزعة الاستغلال للغير والخيانة؛ فكفرت أوروبا بالدين كلية لتلغي الفكرة من الحساب ما دامت لم تجد المفردة المقابلة لها في واقع الحياة، وراحت تبحث عن أفكار جديدة تتوفر لها أبجديتها اللازمة لها.. ولقد رمزنا إلى هذا في مطلع البحث عندما قلنا أن النسق أو البناء الحضاري الغربي وفق التراتبية الهرمية التالية:

وهذا يكشف لنا جوع مئات السنين الذي كانت تثن تحت نيره أوروبا وترزح تحت سلطان الجهل.	{	١ / الغريزة
		٢ / العقل
		٣ / الروح

ومن هنا، إذا نظرنا إلى إنطلاقة العالم الغربي الحضارية، نجدها منذ الوهلة الأولى ركزت على مبدئين هما: (المفهوم الكمي) و(المفهوم العقلي)، بينما (المفهوم العقائدي) قد أهمل وهذا راجع لأسباب سنذكرها لاحقا.

ونعني بالمفهوم (الكمي) للحضارة الغربية تلك النزعة النفعية، التي بدأت مع مطلع القرن الخامس عشر وبالتحديد بعد سقوط الخلافة الإسلامية بالأندلس وذلك سنة ١٤٩٢ ميلادية والتي صادفت بالمقابل رحلة كريستوف كولومبس^(١) إلى العالم الجديد "أمريكا" والتي كان وصوله إليها بالخطأ إذ كان في نيته الذهاب إلى الهند مركز التجارة العالمية للحرير والتوابل آنذاك^(٢).

1- كريستوف كولومبس: رحالة إيطالي ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أمريكا)، ولد في عام ١٤٥١ وتوفي في ١٥٠٦.

2- إن بعض الباحثين والمؤرخين يرون بأن كريستوفر كولومبس الإيطالي الأصل، قد يكون اطلع على ما كتبه الجغرافي المسلم الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق صاحب أول مجسم معدني بأبعاد تقريبية للأرض، والذين جعلها هدية للملك النورماندي بصقلية، أن هذا الجغرافي قد أشار في كتابه إلى القارة الأمريكية والتي سمي جزرها الشرقية بالجزر بالمارقة، ولما ترجم هذا الاسم الذي أطلقه الإدريسي إلى اللغة الألمانية صارت تعرف بأمريكا، ولا يجب أن ننسى أن هذه المعلومات الجغرافية التي تحصل عليها الإدريسي سبقت اكتشاف كريستوفر كولومبس بأربعة قرون كاملة.

وهكذا ازدادت شراسة الأطماع الإستعمارية مع الكشوف الجغرافية الحديثة بإسم التبشير المسيحي، ونصبت الكنيسة نفسها في مكان الهادي الذي يدعو البشرية إلى الطريق المستقيم.

هذا غاية التناقض، بل يدل على عقدة قديمة في نفسية الأوروبي، إن أوروبا لما دخلت الحروب الصليبية وجدت نفسها أمام قوم لهم قدما راسخة في العلم، وباعا طويلا في الحضارة، وقارنوا حالهم بحال هؤلاء القوم؛ فلم يجدوا الميزان الذي يقدر وزنهم لأنهم هباءة أو قل قيمة مهملة في حساب الميزان الحضاري والتوازنات الإستراتيجية العالمية... والنتيجة التي خرجوا بها هي أن عناصر الحضارة الإسلامية هي:

١ / الأساس الغيبي (الروح)

٢ / الأساس العقلي (الموضوعية)

٣ / الأساس التواصل (الغريزة)

وبذلك استنتجوا بأن "العلاقة الإجتماعية التي بين الفرد ومجتمعه هي ظل العلاقة الروحية التي بين الله والإنسان"^(١).

ألا يدل هذا الإندفاع باتجاه الحضارة الإسلامية على حاجة عميقة في نفسية الإنسان الأوروبي وفي فكره؟

بل كان هذا التوجه الجديد في حياة شعوب أوروبا فتحا جديدا من فتوح الإنسانية المتوالية، ونحن نعلم بأن السلوك الإنفعالي للإنسان هو مسلك ونمط من تصرفات الإنسان الإنفعالية غير المؤثرة، بحيث إنه - أي الإنفعال - يستعين بوسائل خاصة يسعى بواسطتها إلى أن يخلع بذاته على الموضوع، وكلما زاد الدافع تأثيرا في نفسية الشخص أصبح الموقف أشد

1 - أليس هذا ما صنعه الولايات المتحدة الأمريكية في خمسينيات القرن الماضي، لما هاجر إليها الباحث الأنثروبولوجي "ليني ستروس" - عالم اجتماع فرنسي (١٩٠٨-٢٠٠٩)، يعتبر من أهم البنيويين - وكان هو المؤسس الفعلي لما صار يعرف من بعد بإسم "المحافظون الجدد"، والذين كانوا يرون أن تاريخ الولايات المتحدة وقدرها أن تكون ثورية وإرجاع الشعور الديني للمجتمع الأمريكي من جديد، وهذا ما قام به أتباع وتلاميذو الأنثروبولوجي ليني ستروس من بعد، وهم الذين يقودون الآن البيت الأبيض وفق هذه العقيدة الدينية والتي هي في الأصل خليط من التعاليم اليهودية والمسيحية أو ما يعرف بـ "العقيدة الماكرثية".

إلحاحا، وتحقيق السلوك الإنفعالي مخلصا؛ فهذا أبعد صور الإستجابة القهرية للضغط الخارجية المؤثرة في نفسية الإنسان.

وهنا تظهر قيمة الأفكار في حياة الإنسان وأبعادها النفسية والاجتماعية بل والحضارية، فعندما نرى اليوم مثلا، المرأة الأوروبية تنزل إلى الحقل لتأخذ بيدها قبضة من العشب لأرانبها، وتسقي أزهارها، بينما زوجها قد يكون منشغلا بتصليح سيارته أو يكون جالسا على كرسي ليقراً جريدة أو كتابا مع شيء من القهوة، أو ولدها يلعب ويلهو. هذه الصورة هي وصف لحقيقة "فلسفة المنفعة" المتغلغلة في حياة المجتمع بأسره ولو رجعنا إلى تعاليم المسيحية لعلمنا حقيقة تلك الثورة العارمة، والإنقلاب الكامل على الدين وعلى الإله المعبود، وتغير النظرة الأخلاقية.

جاء في التوراة: "أعبدوا ربكم الإله الأزلي، وهو يبارك خبزكم وماءكم، ويبعد عنكم العلل والأدواء، وسيطيل أعماركم"، وهذا إشارة لحقيقة اليهود وبنائهم النفسي ونظرتهم للحياة المشبعة بالمفاهيم المادية للحياة.

وجاء في الإنجيل: "وأنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وتشربون، ولا تهتموا بذلك، لأن هذه الأشياء يبحث عنها غير المؤمنين". وهناك رجل قسيس اسمه "إيتي" لم يقترف إثم غسل الرجلين خمسين عاما، والأمثلة كثيرة، وعلى رأسها: النظام الإقطاعي الذي جعل من شعوب أوروبا عبيدا وأقنانا مستعبدين من طرف رجال الإقطاع، يباعون مع الأرض إذا بيعت أو يشترون معها إذا أشتريت.

أما رجال الكنيسة يملكون الملايين من الأموال والرياش بينما الشعوب تعيش في فقر مدقع، وأدواء فتاكة، لذا لما نشأت الحروب الصليبية واستفاقت من غفوتها ورأت النور اتجهت نحو العلم؛ فتفتحت الذهن وتفتقت عناصر العبقريّة المكبوتة في لاشعور الإنسان الغربي (الأوروبي)، ولهذا لما خطت - أي أوروبا - خطوات عملاقة في ميدان العلم، أعادت الكيل بمكيالين للكنيسة؛ فعبدت العقل أو قل العلم وكفرت بأي دين ونادت بـ "الإنفصال بين الدين والعلم"؛ فالعلم لها، بينما تعاليم المسيحية طبقت في البلدان المستعمرة كذريعة لتنفيذ الخطط الإستعمارية لإمتصاص الشعوب.

ومن هنا يمكننا أن نقدم ملخصاً لأبعاد الأفكار الرياضية وقيمتها النفسية، في قلب أوضاع مجتمع ما أو حضارة ما.

نرمز للدين عند الأوروبي ب (د).

// للعلم // // // ب (م).

// للحضارة الإسلامية ب (غ).

// للحياة عند الأوروبي ب (ص).

ومن هنا كانت الكنيسة تستعمل الدين كسلطة لإستغلال الشعوب الأوروبية، وحاربت كل فكر حر وامتته بالكفر والخروج عن تعاليم السيد المسيح؛ فانطبعت صورة الحياة في ذهن الأوروبي في شكل "الزهد، التصوف، ذم الحياة، وقهر الجسد، وعدم التفكير في القوت والملبس"، لأن التفكير إذا انطلقت شرارته لا بد للبدن من الفعل والتحرك والإبتكار والتغيير.

لذا كانت القيمة العددية للفكرة (د) = القيمة العددية للفكرة (ص)

إذن المعادلة هي: (الدين) كان مثلاً في (شخص) رجل (الدين)

الحياة ممثلة في حياة (المتدين) البائس في أسهل بالية

إذن (الشخص) = (القاسم المشترك) بين (د) و(ص).

إذن (ش) * (د) = (ش) * (ص)

وعلى هذا فإن ش (د = ص)

ولكن هناك عنصر جديد أضيف إلى قيم حياة الأوروبي وهو (العلم) (م)، لذا عندما نضيف (م) إلى (ص) يصبح عندنا "تركيب جديد" والذي هو: الحضارة الإسلامية (غ).

إذن " (غ) = (ص) + (م) "

فحل المعامل (غ) مكان (ش) وحل المعامل (م) مكان (د)، وهكذا أزيحت الفكرتان الأوليتان (د) و(ش) إذا ما قورنا ب (غ) و(م)، بينما المعاملين الآخرين لم يشخصا في (ذات) بعينها بل بقيا يتميزان بحالة أو صفة (الفكرة المجردة) التي تخضع غيرها ولا تخضع لأحد؛

فلذا لما أزيح رجل الدين (ش، د) من الساحة الواقعية، زال تأثيره من الذهن، بينما (م) و(غ) فقد طبعا بصماتهما الأبدية في تلافيف الذاكرة الأوروبية عبر التاريخ.

وبهذا ظهرت (النظرة الفلسفية الغربية) اتجاه الحياة بكل مقوماتها الأخلاقية والجمالية والمادية وغيرها، إنها سياسة الهروب إلى الأمام ولذا نستطيع الآن وضع النقاط على الحروف المتبقية من السيرة الذاتية الأوروبية.

سنقوم برسم كامل للحضارة الغربية من خلال مقوماتها وفهم نفسية الفرد الأوروبي الذي ثار ثورته الهوجاء، وعرف الحضارة "بأنها تراث الإنسان المادي الذي تضمن كل الإنجازات المادية، ومظاهر التقدم العلمي والتقني وبخاصة وسائل التكوين والإنتاج"، ولكن مشكلته - أي الفرد الأوروبي - مع الكنيسة هي التي حددت (نسيجه الثقافي) الذي يحوي العقائد والأخلاق والأفكار والمشاعر وأنماط السلوك وأشكال التعبير.

وهكذا انطلقت هذه (الفلسفة) في (تحرير) (الفرد) من كل القيود، حتى من (الضوابط الأخلاقية الاجتماعية)، وجعلت كل الوسائل لخدمة (الفرد)، ولذا (الفردانية)^(١) أو (فلسفة الأفراد)، يعني الفرد هو الأساس، ولذا نادى الشعوب الأوروبية بـ (الديمقراطية) التي

1 - الفردية (بالإنجليزية Individualism): هي موقف أخلاقي، فلسفة سياسية، أيديولوجيا، أو النظرة الاجتماعية التي تؤكد على القيمة المعنوية للفرد. تدعو الفردانية إلى ممارسة أهداف الفرد ورغباته لتكون قيمه مستقلة ومعتمداً على نفسه. تعتبر الفردانية إن الدفاع عن مصالح الفرد مسألة جذرية يجب أن تتحقق فوق اعتبارات الدولة والجماعات، في حين يعارضون أي تدخل خارجي على مصلحة الفرد من قبل المجتمع أو المؤسسات مثل الحكومة. وغالباً ما تتناقض الفردية والديكتاتورية أو الجماعية. الفردية تجعل من الفرد مركز اهتمامها ويبدأ ذلك "مع الفرضية الأساسية أن الفرد البشري هو العامل الأولي الأهم في النضال من أجل التحرير." الليبرالية، والوجودية، واللاسلطوية هي أمثلة عن الحركات التي تتخذ من الفرد وحدة مركزية للتحليل. وبالتالي فإن الفردية مشاركة في السعي نحو "حق الفرد في الحرية وتحقيق الذات.

كما تم استخدام الفردية كمصطلح يدل على "نوعية الوجود كفرد: الفردانية" (individuality) المتعلقة بامتلاك "الشخصية الفردية: الفريدة" (quirk) ترتبط الفردية بالفن، والبوهيمية وأنماط الحياة، حيث يوجد ميول نحو الإبداع والتجريب خلافاً للعادات والتقاليد، والأعراف والسلوكيات السائدة. وذلك ينطبق أيضاً على مواقف الفلسفة الإنسانية والأخلاقيات.

تعني حكم الشعب لنفسه بنفسه، وك (بديل لنظام الحق الإلهي الشيوقراطي). ومن أجل تحقيق هذا المفهوم في أرض الواقع كان الصراع الدامي بين الأفراد ليحقق كل واحد ذاته فقط؟ وهنا تنبذ الفضيلة كـ (أساس أخلاقي) و (موجه سلوكي) للإنسان، بل (نزعة التحرر هذه)، نراها جلياً في إختيار (المنهج التجريبي) لتفسير الظواهر الاجتماعية والطبيعية سواء في ميدان الإجتماع أو السياسة أو الأخلاق والإقتصاد والدين أيضاً، والذي يمثل هذه المدرسة هو الفيلسوف الفرنسي (رينيه ديكارت) الذي أسس مدرسة الفلسفة الفرنسية، إنه يعتبر خير مثال ونموذج للدراسة.

إن أساس (الفلسفة الديكارتية) المشروحة في كتابه - أي في كتاب ديكارت - "قواعد في المنهج"، تبدأ بالإعتاق من كل قديم، من كل فكرة مسبقة، ليصل إلى أحكام موضوعية بحسب رأيه، حتى لا يتناقض (الفكر) مع (الواقع). ولكن هذه الفلسفة كانت لها مقدمات تاريخية في حياة النهضة الأوروبية ابتداء من جرأة (كوبرنيك^(١)) لأول مرة على الكنيسة مع صديقه (كبلر^(٢))، وذلك بتصحيح نظرية (بطليموس) القائلة: بثبات الأرض ودوران الشمس والكواكب حولها.

وهكذا كانت الإنتفاضة العلمية الأولى، حتى جاء ديكارت وفي محاولته الفلسفية، (فلسفة الإعتاق) والحرية وتحقيق الوجود الفردي والذاتي وإثباته في الوجود، "تلك المغامرة الجنونية في غابة الشك"، ومنها استطاع أن يهتدي إلى الوسائل الجديدة، محققاً بذلك (نقلة وجدانية وفكرية) في حياة الفرد الأوروبي وذلك قبل أن يحقق (تغيراً وثورة علميين). وبهذه الطريقة

1- نيكولاس كوبرنيكوس (Nicolaus Copernicus) ولد (١٩ فبراير ١٤٧٣ - ٢٤ مايو ١٥٤٣) راهباً وعالمًا رياضياتياً وفيلسوفاً فلكياً وقانونياً وطبيباً وإدارياً ودبلوماسياً وجندياً بولندياً كان أحد أعظم علماء عصره. يعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها في كتابه "حول دوران الأجرام السماوية". وهو مطور نظرية دوران الأرض، ويعتبر مؤسس علم الفلك الحديث الذي ينتمي لعصر النهضة الأوروبية - ١٤٠٠ إلى ١٦٠٠ ميلادية.

2- يوهانز كيبليز Johannes Kepler: (١٥٧١ - ١٦٣٠)، عالم رياضيات وفلكي وفيزيائي ألماني كان أول من وضع قوانين تصف حركة الكواكب بعد اعتماد فكرة الدوران حول الشمس كمركز لمجموعة الكواكب من قبل كوبرنيك وغاليلي.

تكونت اللبنة الأساسية الأولى في عملية التحرر الأوروبي من ميراثه القديم والمستهجى، وبقيت هذه المحاولات في مهد الطفولة حتى جاء (غاليليو^(١)) وقطع (الحبل السري) نهائياً بين (الفكر القديم) الذي يوقر (المدخلات الروحية) وبين (المنهج الجديد) لتفسير الطبيعة وبأسلوبه في تفجير الطاقات الإنسانية والطبيعية، وذلك باعتماده في دراسة (الحركة) و(الحرارة) على نظرية (الميكانيكا) وتأكيد (مادية العالم)، وخضوع حركة الأفلاك والأجسام إلى قانون العطالة (القصور الذاتي)، بعد أن كان القدماء يعتبرونها (عقولا) أو (نفوسا) علوية تؤثر فيها (قوى خفية). ولم يكتف (غاليليو) بهذا؛ فصاغ نظريته الذهنية عن طريق (التجربة الميدانية) في شكل (معادلات رياضية) تعبر عن الوحدة الكمية للشيء، أي لا توجد (مفاهيم قيمية) ولكن (أشياء كمية).

وقد تزداد فكرتنا وضوحاً إذا ما تذكرنا قول "إميل بيريه" في كتابه المعنون إتجاهات الفلسفة المعاصرة ما مفاده: ولكن هناك فكرة أخرى عن المعرفة، وهي مختلفة جداً عن الفكرة الأولى؛ فليست المعرفة (غاية) في ذاتها، وإنما هي (وسيلة تمكننا من السيطرة على الأشياء)؛ فالمعرفة كوسيلة للقدرة هي الشعار الذي أطلقه "فرانسيس بيكون"^(٢) على هذه الفكرة، وقد أخذ عنه "أوجست كونت" فيما بعد.

"(وأصحاب هذه الفكرة يرون أيضاً أن المعرفة نوع من التقدم ولكنه ليس كمال داخلياً، بل امتداد لسيطرنا على الأشياء الخارجية؛ فإن اكتشاف وسيلة فنية لأمر يمكن إثباته في صيغة لغوية، بل يمكن تسجيله لفي أداة مادية)" ويضيف قائلاً: "(ومن اليسير أن نرى التضاد الكبير الذي يوجد بين المعرفة التي تعد (تحويراً) لوجودنا الذاتي، وبين المعرفة التي تعتبر

1- جاليليو جاليلي، (١٥ فبراير ١٥٦٤ - ٨ يناير ١٦٤٢)، (Galileo Galilei) عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، ولد في بيزا في إيطاليا. أبوه هو فينسينزو جاليلي وأمه هي جوليا دي كوزيمو أماناتي. نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فقام أولاً بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، وقام بذلك عن طريق الملاحظة والتجربة.

2- (فرانسيس بيكون) (Francis Bacon) ٢٢ يناير ١٥٦١ - ٩ أبريل ١٦٢٦ م (فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على "الملاحظة والتجريب". من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس.

(نموا) مطردا لقدرتنا على الأشياء؛ ف(المعرفة الأولى) تتصل بأخص مصائرنا الشخصية، و(الثانية) تنصب على وسائلنا في العمل؛ ف(الأولى) تتعلق بجوهرنا الذاتي أي بمصيرنا الشخصي في حين (الثانية) هي التي تهتم بالأمور التي يمكننا اكتسابها؛ فبفضل التقدم الذي يزداد دائما من عتادنا العقلي نجد أن وسائل العمل التي في متناول الإنسان تزداد عددا وقوة، وتكفل للإنسان السيطرة على العالم المادي...)".

".... وفي الواقع حاول مفكرو القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن يمدوا نطاق فكرة (القانون الطبيعي) إلى الإنسان نفسه الذي يعد بدوره (شيئا بين سائر الأشياء)... فالفلسفة هي (إحتجاج مستمر ضد الإستغراق في العادات المادية الجامدة التي تؤدي إليها الصناعة)".

ومع هذا سنزيد في توضيح المسلك المادي الذي طبع الحياة الأوروبية وحضارة الغرب بميسمه، وهذا بانتقالنا إلى تعريف ميدان العمل وفلسفة أوروبا الخاصة به، وكذلك من خلال التطرق إلى عوامل الإنتاج التي تراها.

ثانيا: أصول الإقتصاد الغربي

١/ عناصر الإقتصاد الغربي:

أ/ **العنصر الأول:** كان الشغل قديما يدويا وحرفيا، يهدف إلى إشباع حاجات الفرد في الأسرة والقبيلة، ويتطور المعارف الإنسانية والخبرة، فكر الإقتصاديون في تطوير أساليب العمل ووسائل الإنتاج، بهدف إتقانه وتسهيله واختصار مراحله وإنجازه بوسائل فنية وآلات سريعة الأداء. وبذلك تجاوز الرأسماليون هدف إشباع الحاجات الاستهلاكية إلى الإنتاج الصناعي للحصول على (الفائض).

ونستنتج من هذا:

١/ التخصص ولبد الحاجة:

١-١/ تتجلى هذه الظاهرة بوضوح في أسلوب العمل الجديد الذي يعتمد طريقة تقسيم العمل إلى وحدات جزئية من خلالها يتم تركيب الهيكل العام للشيء، وأوضح (آدم

سميث^(١) حجته عن فائدة تقسيم العمل بمثاله الشهير عن معمل الدبابيس قال: "يسحب السلك رجل واحد، ويعدله آخر، ويقطعه ثالث، ويدببه رابع، ويصقله خامس في أعلاه (... إلخ) وبهذا الشكل ينقسم العمل المهم لصنع دبوس إلى حوالي ١٨ عملية متميزة".

١-٢ / تزايد المهارة والتقانة الآلية والفنية للعامل والإنتاج.

١-٣ / تزايد رأس المال وتراكمه.

١-٤ / تقسيم العمل وفق طبيعة النشاط الإقتصادي (زراعة، صناعة، خدمات... إلخ).

١-٥ / تحويل الإنسان كطاقة مفكرة ومبدعة إلى آلة إنتاج.

ومن هنا طغت (الميكنة) على الإنسان وسلبته إنسانيته لأنه تحول إلى أداة ووسيلة إنتاج لا غير عن طريق الآلية اليومية، وخاصة بعد ظهور "تقسيم العمل" حول الإنسان العامل إلى (كائن) يقضي حاجاته من دون وعي و(كائن) لا يعرف مهنة معينة، بل إن (معرفته) من هذا العمل أصبحت لا تتعد جزءا بسيطا. وفي هذا المقام نسجل شهادة أحد المفكرين الفرنسيين وهو (فريد مان^(٢)) الذي سجل إحدى ملاحظات عامل (متخصص) في لحم جهاز التبريد، جاء في هذه الشهادة:

١- آدم سميث: ولد في ٥ يونيو ١٧٢٣ وتوفي في ١٧ جويلية ١٧٩٠ فيلسوف أخلاقي وعالم اقتصاد اسكتلندي. يُعدّ مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي ومن رواد الاقتصاد السياسي. اشتهر بكتابه الكلاسيكيين: "نظرية الشعور الأخلاقي" (١٧٥٩)، وكتاب "بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها" (١٧٧٦). وهو رائدة آدم سميث ومن أهم آثاره، وهو أول عمل يتناول الاقتصاد الحديث وقد اشتهر اختصاراً، باسم "ثروة الأمم". دعا إلى تعزيز المبادرة الفردية، والمنافسة، وحرية التجارة، بوصفها الوسيلة الفضلى لتحقيق أكبر قدر من الثروة والسعادة.

٢- فريد مان جورج: عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي عرف بدراساته المتخصصة في مجال علم اجتماع العمل، وانتشرت أعماله بعد الحرب العالمية الثانية، كما عرف عنه نقده، اللاذع لحركة الإدارة العلمية التي ظهرت في بريطانيا، منذ بدايات القرن العشرين. وُلد في باريس سنة ١٩٠٢، ودرس في دار المعلمين، وارتبط بالمعارضة، وأصبح أستاذاً في المعهد الوطني للفنون والمهن بعد الحرب العالمية الثانية، ومن ثم معلماً في المدرسة العليا للدراسات. بدأ نشر أعماله عام ١٩٤٦، وتوفي سنة ١٩٧٧. أهم أعماله: أزمة التقدم عام ١٩٣٦، و«مشكلات أمريكا اللاتينية» ١٩٥٦، وسبع دراسات حول الإنسان والتقانة عام ١٩٦٦.

"إني أتمنى شغلا أحس فيه أنني أنجزت شيئا ما وإني أتقنه لأنه عندما يهيا لك كل شيء وعندما تكون جميع الأجزاء متشابهة؛ فإنك لا تحس أنك أنجزت شيئا ذا أهمية. إن الأمر المهم هو تلك الدفعة المتواصلة التي تقوم بها الناقل الآلية، وهي آلة عملاقة لا أستطيع التحكم فيها".

كما يصور لنا (فريد مان) هذه الحالة في مصنع المنتجات الغذائية حيث يقوم العمال ب (العمل المسلسل) يقول: "هذه عاملة ليس لها طيلة اليوم وطيلة الأسبوع لا بل طيلة السنة سوى أن تنصب على كل قارورة شريطا فاقع اللون وطابع المعمل المنتج، ولكنها لا تعمل إلا على إدخال الشريط في طوق القارورة، ويبقى على زميلتها التي توجد في آخر السلسلة أن تلصقه".

فبدل أن يتكيف العمل مع الإنسان وينسجم مع مقاصده، أصبح الإنسان هو الذي يخضع للعمل أو للآلة خضوعا تاما، وبهذه الطريقة إذا العامل محروما من كل تمرين عقلي ومن كل مبادرة شخصية.

٢ / فلسفة الحاجة:

٢-١ / قبلية الوجود المادي: مبدأ أسبقية المادة (الوجود المادي) على الروح (الوجود المعنوي) يعني أن الأمور النفسية الوجدانية ليست لها أصالة، بل هي إنعكاسات الوجود المادي العيني على المخ والأعصاب، ولا تعدو أن تكون وصلا بين (القوى المادية الداخلية) والعالم الخارجي.^(١)

على هذا الأساس يمكن اعتبار الجوانب النفسية (عاملا مساعدا) على حركة التاريخ إذا اتجهت في خط الاتجاه نفسه للقوى المادية للتاريخ. من هنا فالأمور النفسية لا يمكن أن تكون محورا لحركة المجتمع ولا الباعث ولا الهدف للحركة الاجتماعية. بل الرؤية المادية الغربية (الرأسمالية / الاشتراكية) تعتبر القوى المادية هي المحركة للتاريخ، وهي - على الصعيد التقني - النظام الاجتماعي الإنتاجي للمجتمع، أما على - الصعيد الإنساني - فهي الطبقة العاملة.

1 - مرتضى مطهري، المجتمع والتاريخ، تعريب علي آذر شب، القسم الأول، طبعة أولى بيروت، ١٤٠٢ هجري، ص ٧٠.

وهذا (فيورباخ^(١)) يتساءل: "ما هي النظرية؟ وما هو العمل؟ والفرق بينهما؟ ثم يجيب: "كل ما كان محدوداً بذهنه أنا فهو نظري، وما يدور في أذهان الكثيرين فهو عملي..."^(٢).

٢-٢ / الحاجة للمادة: للإنسان في حياته الاجتماعية نوعان من الاحتياجات، المادية: كالطعام والشراب والملبس والسكن، والمعنوية: كالعلم والآداب والفنون... إلخ، لكن بحسب ما تقدم في قبلية الوجود المادي، يرى أصحاب الاتجاه المادي إلى تقدم الاحتياجات المادية وأولويتها على الاحتياجات المعنوية، كما يقرون - أصحاب المذهب - أن الإنسان خلق من نوع واحد فقط من الاحتياجات وهو: المادي، أما النوع الثاني وهو المعنوي، يعتبر ثانوياً وليس إلا وسيلة لسد الاحتياجات المادية، بل تتكيف هذه المعنويات (شكلاً) و(ماهية) تبعاً للجانب المادي.

ومن هنا صار للجانب المادي على الجانب المعنوي أولويات:

أ/ أولوية وجودية، بإعتبار الحاجيات المعنوية إنشاق من الحاجيات المادية وانعكاس لها.

ب/ أولوية ماهوية، باعتبارها - أي الحاجيات المعنوية - متكيفة شكلاً وماهية تبعاً للحاجيات المادية، ولذا يقول (هايمن لوي): الاتجاه المادي للحياة دفع بأبناء البشر إلى أن يصنعوا النظريات حول الكون والحياة والمجتمع والفن والأخلاق وسائر المسائل المعنوية طبقاً لوسائل رفع احتياجاتهم المادية وانطلاقاً من هذا الاتجاه المادي ومن القوة المنتجة^(٣) أخبرني ماذا يأكل حتى أخبرك ماذا يفكر^(٤).

1- فيورباخ: لودفيغ أندرياس فيورباخ فيلسوف ألماني ولد في ٢٨ يوليو ١٨٠٤ في مدينة لاندسهوت بولاية بافاريا الألمانية وتوفي في راينبرغ في ١٣ سبتمبر ١٨٧٢. في البداية كان تلميذاً لهيغل ثم أصبح من أبرز معارضيه. أدى كتابه «أفكار حول الموت والخلود» الذي نشر في عام ١٨٣٠ تحت اسم مستعار إلى فصله من الجامعة. وكانت إحدى الخدمات التي أداها فيورباخ أنه أكد الرابطة بين المثالية والدين. وانتقد بشكل حاد الطبيعة المثالية للجدل الهيغلي. وقد فتح هذا الطريق إلى الاستفادة من المضمون العقلي للفلسفة الهيغلية، وساعد في هذا الصدد على تشكيل الماركسية.

2- مرتضى مطهري المرجع السابق، ص ٧١.

3- مرتضى مطهري، المرجع السابق، ص ٧٣.

4- نفسه.

وعلى هذا الأساس اعتبر أصحاب المدرسة المادية والتجريبية أن الحركة التاريخية تقوم على أساس أصالة العمل وتقدمه على الفكر، ويرون أن العمل مفتاح الفكر ومعياره، وجوهر الإنسان يتمثل في عمله الإنتاجي، والعمل هو الذي يشكل أساس معرفة الإنسان ويصنع وجوده. لذا يقول (أنجلز^(١)):

"العمل خلق الإنسان نفسه" و(هيجل^(٢)) قال: "إن الوجود الحقيقي للإنسان يتمثل في المرحلة الأولى بعمله" أما (ماركس^(٣)) قلب مقولة (كان في البداية الفعل) - أي الروح والكلام المبين لها - إلى مقولة (كان في البداية العمل)^(٤)، وهو المبدأ الفلسفي المعروف بإسم (براكسيس^(٥)).

1- فريدريك إنجلز Friedrich Engels: ولد في ٢٨ نوفمبر ١٨٢٠ وتوفي في ٥ أغسطس ١٨٩٥ كان فيلسوف ورجل صناعة ألماني يُلقَّب بأب النظرية الماركسية إلى جانب كارل ماركس. اشتغل بالصناعة وعلم الاجتماع وكان كاتباً ومنظراً سياسياً وفيلسوفاً. يعتبر أب نظرية الماركسية بالإضافة إلى كارل ماركس نفسه. في عام ١٨٤٥، نشر كتابه حالة الطبقة العاملة في إنجلترا اعتماداً على ملاحظاته وأبحاثه الشخصية. في عام ١٨٤٨، أصدر مع ماركس، بيانها المشهور والمعروف ببيان الحزب الشيوعي، والذي يسمى اختصاراً البيان الشيوعي. فيما بعد، ساعد كارل ماركس ماديا من أجل أن يكتب هذا الأخير كتابه الرأسمال. بعد وفاة ماركس، نشر إنجلز الجزئين الثاني والثالث من هذا الكتاب. إضافة إلى ذلك، نظم إنجلز مختلف تخمينات كارل ماركس، مما أعطى الجزء الرابع من كتاب الرأسمال.

2- جورج فيلهلم فريدريش هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel ولد ٢٧ أغسطس ١٧٧٠ - ١٤ نوفمبر ١٨٣١) فيلسوف ألماني ولد في شتوتغارت، فورتمبيرغ، في المنطقة الجنوبية الغربية من ألمانيا. يعتبر هيغل أحد أهم الفلاسفة الألمان حيث يعتبر أهم مؤسسي المثالية الألمانية في الفلسفة، في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي.

3- كارل هانريك ماركس Karl Marx: كان فيلسوف ألماني، واقتصادي، وعالم اجتماع، ومؤرخ، وصحفي واشتراكي ثوري ٥ مايو ١٨١٨ م - ١٤ مارس ١٨٨٣ م). لعبت أفكاره دوراً هاماً في تأسيس علم الاجتماع وفي تطوير الحركات الاشتراكية. واعتبر ماركس أحد أعظم الاقتصاديين في التاريخ، نشر العديد من الكتب خلال حياته، أهمها بيان الحزب الشيوعي (١٨٤٨)، ورأس المال (١٨٦٧-١٨٩٤).

4- مرتضى مطهري، المرجع السابق، ص ٧٥.

5- براكسيس: الممارسة Praxix، ينطوي مكفهوم الممارسة على معنى المداومة وكثرة الاشتغال بالشيء، وهو في استخدام اللاتيني practice من أصل يوناني، ويعد واحداً من المفاهيم التي شاع استخدامها في مجال الاقتصاد، وغيرها من المجالات والنشاطات العقلية.

ولذا يرى أنصار هذا المذهب أن دوائر العلاقات الإجتماعية تتحدد بهذا المفهوم - أي تتحدد نوعية العلاقات الإجتماعية بحسب العلاقات الإنتاجية - بمعنى أن التأثير طردي.

ب- العنصر الثاني: عوامل الإنتاج

١/ تعريف: "يقصد بعوامل الإنتاج: مجموع العناصر والموارد المادية والبشرية والشروط التي تتطلبها عملية الإنتاج، والتي بدونها لا تتحقق الأهداف المحددة من قبل المخططين لإقتصاد بلد ما".

٢/ العوامل: وتتلخص في الآتي:

١- الموارد الطبيعية: وهي الثروات التي يتم تحويلها من مواد طبيعية إلى منتجات مكيفة بحسب حاجات الإنسان، وقد تكون موجودة على سطح الأرض أو في باطنها كالمساحات الزراعية والمياه الجوفية والثروات الباطنية كالبتروول والغاز والمعادن المختلفة كالذهب واليورانيوم وقد تكون هذه المواد في الجو كالسحاب أو في الفضاء الخارجي كالطاقة الشمسية.

٢- رأس المال: يتألف من السيولة النقدية وكل الأدوات والآلات والمنشآت التجهيزية والهياكل القاعدية الواجب توفرها في العمل بغرض إنجاز العمل وفق ما خطط له وما يرجى من تحقيق النفع من ورائه.

٣- الموارد البشرية: وتتمثل في القوة العاملة من حيث نوعيتها وخبرتها ومؤهلاتها وطاقاتها الإنتاجية وأجورها وأعمارها، ومدى علاقة هذه المعطيات بالعمل من حيث كميته ونوعيته ومواده والمقاصد المرجو تحقيقها.

٤- السياسة الاقتصادية: تتلخص في:

أ) السياسة المالية: من اعتمادات سيولة نقدية وميزانية وضرائب وقروض وضمانات القروض حتى يمكن تحديد نسبة المخاطرة في تحقيق العمل أو المشروع بحسب طبيعته وهدفه.

ب) التجارة الخارجية: تقوم على تشجيع الإستثمار وتقليص الإستهلاك غير النامي وتوفير الأرصدة الأجنبية.

ت) الدخل: يراعى فيه منع الإحتكار والإستغلال وتحسين سياسة الأجور مثلاً هل تقوم على أساس تحديد الأجر بحسب مردودية الإنتاج من الدخل القومي أم من خلال مردودية تصدير الطاقة المستهلكة غير المتجددة كالبترو ل مثلاً، أو من خلال مردودية إقتصاد الصناعة الثقيلة والحربية، إلى غير ذلك من النماذج المختلفة والموجودة عالمياً بحسب ظروف كل بلد وسياسته القومية المتهجة.

ث) التكوين: يتعلق بتوفير اليد الفنية المختصة والقادرة على تحقيق التجاوز النوعي وتلبية متطلبات المجتمع والدولة ومدى فاعليتها وجهوزيتها في مساهمة التقدم التقني العالمي الهائل، حتى لا تكون سياسة التنمية القومية بعيدة عن الراهن الدولي وما يفرضه من تحديات جديدة تتصل في كثير من المسائل بما يتعلق بالأمن الإستراتيجي للأمم، بمعنى لا بد من أن تأكل مما تزرع وتلبس مما تنسج.

وهذه السياسة الإقتصادية أدت إلى تضخم الإنتاج، وزيادة دخل الفرد على حساب العمال الأجراء؛ فزادت الملكية الفردية لوسائل الإنتاج، وتطور الإقتصاد الحر وتعددت الشركات، وأصبحت الوحدات الإقتصادية مستقلة يتخذ أصحابها قراراتهم على أساس قاعدة أو معيار "نمن السوق" مما جعل الإقتصاد الحر ذا طابع عفوي في الظاهر ولكنها محكومة بقوانين دقيقة داخليا.

ولكن الغرب لكي يخرج من هذا المأزق ومن هذه الدائرة المغلقة والحلقة الفارغة، بحث عن أسواق خارجية بمعنى خارج الحدود الأوروبية، وعن مصادر المواد الأولية والثروات الطبيعية، وبهذا ظهرت الحركة الإستعمارية الحديثة إذ ينفت في روعها أسطورة الفلسفة الفردية؛ فأبهدت شعوب بكاملها من أجل تلبية رغبات النزعة الفردية التي بها ومن خلالها أراد الإنسان الأوروبي الإنعتاق من ميراثه القديم والسيطرة على العالم المادي بما فيه من جمادات وكائنات حية، ويصبغ العالم بصبغته المبنية على أساس النظرة النفعية البراغمية للحياة.

ومن ثم تولد البؤس الثقافي والمادي لما يسمى اليوم بـ "العالم الثالث"، وهذا بمحاولة رجل الغرب تدمير ثقافات الشعوب الأخرى وما بقي من ميراث حضاراتها، من أجل إبراز وجوده هو فقط بكل قوة على المسرح الدولي، وفي المقابل تكون (الفقر الروحي) و(الحضاري) الغربي تحت وطأة سنابك خيله لمعالم الحضارات الإنسانية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وعلى غرار ما ذكرنا تكونت (حلقات الفراغ) المغلقة في البناء الحضاري الغربي، الذي لم يعدو حدود التعريف القائل بأنه: "التتاج المادي الإنساني"، وهكذا ازداد (التراكم الكمي) على حساب (التراث الإنسان).

ونستدل على صحة مقولتنا بما ذكره (جان ماري أوزيلاس) في كتابه (الفلسفة والتقنيات) في الصفحة التاسعة والخمسين ما يلي:

"ثم جاء (روجه بيكون) و(رامون لول)، وعندنا أن (لول) هو الرائد البعيد للسبرنتيك. إن كل عمل يستند إلى ممارسة طريقة، وإن (الفن العظيم) الذي يرمي في آخر المطاف إلى تحرير العالم من الناحية العملية، وهنا يستهدف هدي (الكافرين) إنما يستند على جدول (مفاهيم أساسية). وهي لا تغرينا بوضوحها لأننا إبتعدنا بعدا كبيرا عن هذه المقولات.

"ولكن الأمر الذي يؤلف استباقا عبقريا حقا هو أن (رامون لول) يستعين بها من أجل أن يفكر في أن من الجائز أن نحصل بصورة ميكانيكية على جميع علاقات المفاهيم التي تقابل (الحقائق الدينية الأساسية)؛ فهو أول إمرئ يعتبر الفكر تقنية"^(١).

على هذا الأساس يمكننا دراسة (الحركة الإستعمارية في ضوء الأوضاع الإقتصادية)، ولذا يجب أن نفهم قصة (روبنسون كروزيه R. Crusoe) التي عرضت في تلفازنا منذ سنوات وأكثر من مرة، إنه يعبر عن حلم الأوروبي المتغلغل في لا شعوره، وهذا الحلم هو "الرغبة في عالم خال من البشر". وهو أن عائلة (روبنسون) كانت تستقل سفينة ركاب، ولكن بعد تحرك عاصفة هوجاء أغرقت السفينة وطاقمها، ورمت رياح العاصفة عائلة (روبنسون) إلى جزيرة ما.

وبعد مدة، اكتشف السيد (كروزيه) الجزيرة؛ فوجدها خالية من أي تواجد أو أثر يدل على وجود إنساني، وهكذا بعد مدة من الزمن استغل الأرض وزرعها بالقمح، ثم اكتشف الثروة الحيوانية، ثم المطاط وغير ذلك، وهذا إشارة إلى العلم التقني للفرد الأوروبي، وفي استغلاله الجشع لاستنزاف طاقات الأرض، ولا يرى المستعمر الأوروبي نفسه إلا أنه (السيد) وصانع الحضارة.

1- جان ماري أوزيلاس: الفلسفة والتقنيات، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات-بيروت-باريس، الطبعة ١٩٨٣، ص ٥٩.

ونستطيع فهم التطور الصناعي الذي أحدثه رجل الغرب مع مطلع القرن العشرين، خاصة بعد توصله لإختراع آلة الطيران، وفي حقيقة الأمر ما هي سوى وسيلة انعقاد من سلطان الجذب الأرضي، ومحاولة جديدة لعملية التحرر، وذلك (المهاجس) الملازم للرجل الغربي في مراحل تقدمه المتعاقبة.

فالإختراع هذا وهو آلة الطيران ما هو في الحقيقة إلا تعبيراً عن القوة المعاكسة في الاتجاه لتيار الجاذبية الأرضية، والتي من خلالها عبر الأوروبي عن سيطرته على العالم الخارجي، والتحكم في قوانينه، ومن ثمة خوض غمار رحلة جديدة نحو قبة الجوزاء، بحثاً عن عالم يحقق الحلم المارود وهو خال من البشر.

"إنه نوع من السلوك الهروبي الذي يخلص الإنسان من متاعب مواجهة حقائق لا تنسجم مع تكوينه الذاتي والعاطفي والفكري والديني... فإذا لم يتمكن من احتمال هذا التناقض بين عالمه الداخلي والعالم الذي يحيط به؛ فستظهر عليه الأعراض المرضية التي تؤدي في بعض الأحيان إلى انهيار تام في الأعصاب وغير الأعصاب، أو إلى نوع من الشلل العام الذي يعيقه عن القيام بأي عمل منتج أو مثمر بسبب إفراطه في تحسس عبء ثقافة الماضي وتراثه الديني^(١).

بهذا نفهم تلك العمليات الوحشية التي أبادت مئات الملايين من البشر في سبيل تحقيق طموح الإستعمار الغربي في صبغ العالم بصبغة الميكانيكا التي ولع بها أيما ولع. وبإمكاننا أن نطلق على هذه الظاهرة (مقياس نفسي) لخصائص النفسية الأوروبية (النزعة المضادة للبشر) المؤكدة على (النزعة الفردية البراغمية) المتغلغلة في الفلسفة الإقتصادية الإستعمارية الأوروبية.

و"انتشرت أوروبا على السطح العالمي وأصبحت أول حضارة (قومية) تشكل عالمية واسعة، تجاوزت في شموليتها كل الحدود التاريخية للحضارات السابقة. وهي إذ مضت باتجاه العالمية منذ قرن ونصف فإنها لم تحمل فقط إلى العالم اختياراتها البرجوازية بل حملت أيضاً

١- أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، ص ٢٣.

بدائلها المضادة للبرجوازية؛ فأصبحت المعارضة لأوروبا أوروبية الصياغة والمنشأ... نعم قد فرضت أوروبا على العالم، تحت طائلة الموت عجالات النظام الجديد تبني النمط البرجوازي للإنتاج، وفرضت على هذه الأمم أن تدخل الحضارة أو المدنية (المزعومة) إلى بلادها^(١).

وبذلك أصبحنا أمام نتائج تفسر معطيات النفس بخاصيات المكان، أي أن العقدة الإقطاعية والكنيسة القديمة وطبيعة الجغرافية الأوروبية، أفرزت الظاهرة الإستعمارية الأوروبية محددة نظرتها الجديدة إلى العالم بالنسبة للعالم الشرقي أو الغربي (أمريكا)...

ثالثاً: المذهبية الاقتصادية

تفسير المنهج الرأسمالي:

وبهذا يصبح تفسير الغرب الرأسمالي على أساس (مذهبي) بالنسبة لمنهجه الإقتصادي، لا على أساس (علمي) محض، وهذا يتبين كالاتي:

منذ فجر التاريخ العلمي للإقتصاد، عمت الفكر الإقتصادي يومذاك فكرتان:

الأولى: أن الحياة الاقتصادية في أي مجتمع تسير وفقاً لقوى طبيعية محددة، تتحكم في سير الكيان الإقتصادي للمجتمع، كما تسير شتى مناحي الكون طبقاً لقوى الطبيعة المتنوعة.

وواجب العلم إذن تجاه هذه القوى هو اكتشاف القوانين العامة وقواعدها التأسيسية، التي تصلح أن تكون أحد (المعايير المفسرة) لمختلف الظواهر والأحداث الاقتصادية.

الثانية: كما أنه يتوجب من تلك القوانين والنواميس المكتشفة في عالم الإقتصاد، أن تكفل السعادة البشرية إذا نشطت وعملت في دائرة من الحرية لجميع أفراد المجتمع الرأسمالي، حرية التملك والإستغلال والاستهلاك، وذلك بهدف الإرتقاء من مستوى تحقيق الحاجيات إلى مستوى تحقيق التحسينات والكماليات، وهنا يكتمل الدور ويتحقق الرفاه البرجوازي.

وهكذا؛ فالقاعدة التأسيسية التي هي مناط العمل في المذهب قائمة على مفهوم (الحرية التملكية الخاصة)، والتي تسمح الرأسمالية بموجبها غزو جميع عناصر الإنتاج من: الأرض والجو والبحر والآلات والمباني والمعادن، وغير ذلك من ألوان الثروات.

١- نفس المرجع، ص ١٨.

كما يتكفل (القانون الرأسمالي) بتوفير الجو الأمني لحماية الملكية الخاصة، وتمكين المالك من الاحتفاظ بها. وعلى هذا يترتب فسخ المجال أمام المالك لإستغلال ملكيته وإمكاناته على الصفة الرائقة له، والسماح له بتنمية ثروته بمختلف الوسائل والأساليب التي يتمكن منها، وبذا نرى بوعي كامل مدى تغلغل (النظرة الميكيفيلية): "الغاية تبرر الوسيلة".

وبهذا نفهم بكل عمق كيفية حدوث نظامين تشريعيين مستقلين عن بعضهما داخل المجتمع الواحد: نظام الجوار أو ما يعرف بالنطاق الأرضي، ونظام النشاطات المهنية أو الحرفية^(١)، ويصير التخطيط السياسي تابعا للنمو الإجتماعي وخادما له ويقول شارل بيغي^(٢) Ch. Pèguy في هذا المقام: "تسير الحياة الخاصة تحت الحياة العامة؛ فترعاها، وتحملها وتحملها وتغذيها. والحسنات الخاصة تسير تحت الحسنات العامة، والأمر الخاص هو القماش نفسها: بوبليكا publica: المهات العامة ليست سوى جزر صغيرة، أما الخاصة فهي الخضم العميق"^(٣).

إذن (الحركة الإقتصادية الرأسمالية) تجعل الفرد هو المحور الرئيس في العملية الإقتصادية، ومن هنا نستنتج موضوعات ثلاث، تعتبر الخطوات الأولى في حياة الحضارة الغربية:

١- موضوعة رجحان الفعل والعمل؛

استعرنا هذه الموضوعة من فكر روجيه غارودي والتي ذكرها في كتابه (حوار الحضارات)^(٤)، إذ يقول:

1- مارسيل بريلو: علم السياسة، ترجمة محمد برجاي، سلسلة زدني علما، دار منشورات عويدات، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ بيروت - باريس، ص ٤٦.

2- شارل بيغي: كاتب فرنسي (١٨٧٣-١٩١٤)، قتل أثناء معركة في الحرب العالمية الأولى، حيث التحق بصفوف الجيش الفرنسي.

3- مارسيل بريلو: علم السياسة، ص ٤٨.

4- روجيه غارودي: حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، دار عويدات بيروت، ط ٢، ١٩٨٢ ص ٣٩.

"يقول (فاوست) (غوته): "إنما يبدي الإنسان عظمته كلها حين يعمل عملا دائما موصولا. ولقد كانت الثورات البرجوازية (فاوستية) ثورة (كروميل^(١))، ثورة (الإستقلال^(٢)) الأمريكية، ثورة (روبسير^(٣))".

"وأقر المتزمتون، مثل (اليعاقبة)، ديانة العمل، وولدت (الماركسية) في هذه الرقعة الغربية، وكتب (ماركس) رسالته لنيل درجة الدكتوراه: إن (بروموثة) يشغل في (التقويم الفلسفي) المنزلة الأولى بين القديسين والشهداء. وعنده - أي ماركس - أن صورة (بروموثة)، وصورة (فاوست) تغطي إحدهما الأخرى: ويقول (وليينخت): إن (فاوست) هو الأثر الشعاعي الذي كان (ماركس) يفضلُه"، ويضيف غارودي:

"ويدين (ماركس) للفلسفة الألمانية المدرسية، فلسفة (فيخته) و(هيجل)، بهذا الرجحان في تقديم الفعل بوصفه خلق الإنسان، خلقا موصولا. وهو يستخلص قيمة العمل الأولى وتصور المجتمع على اعتباره تنظيما للعمل من الاقتصاد السياسي الإنجليزي لدى (آدم سميث) و(ريكاردو) اللذين لم يريا في الإنسان، إلا الإنسان العامل والمستهلك...

"وعلى هذا فإن تمجيد (العمل وحيد الجانب) هو إذن بآن واحد تقليد برجوازي وتصور اشتراكي...".

نعم لقد صار العمل هو الديانة الجديدة التي احتلت الجغرافيا الأوروبية ومن مظاهر هذا التدين الجديد، إن هذه الفلسفة الحياتية الجديدة وجدت في انكلترا أرضا خصبة للتراكم الرأسمالي، وإن استثمار الراسمائل في إصلاح الزراعة قد بدأ بالذئوع ذئوعا أكبر مما كان عليه في

1- كروميل: أوليغر كروميل ١٥٩٩-١٦٥٨، قاد الثورة التي قام بها الشعب والبرلمان البريطاني ضد الأسرة الملكية، مطالبين باصلاح الأوضاع المزرية التي كانت تعيشها إنجلترا، ومن أسبابها اعتبار الملك لنفسه مفوضا من قبل الإله، إصدار القوانين دون العودة إلى البرلمان، الحكم المطلق، فرض الضرائب المجحفة على الشعب.

2- هي ثورة قامت في المستعمرات البريطانية الثلاثة عشر في أمريكا الشمالية والتي كانت تابعة للإمبراطورية البريطانية خلال السنوات ١٧٧٥-١٧٨٣.

3- هي الثورة الفرنسية التي استمرت من ١٧٨٩ إلى ١٧٩٩، وكانت لها تأثيرات عميقة على العالم الغربي، أسقطت الملكية وأسست الجمهورية وشهدت فترات من العنف والاضطراب السياسي، قامت بإلغاء النظام الاقطاعي، من أشهر قادة الثورة الفرنسية روبسير واليعاقبة.

أيام (تودور)، وإن الشعبية المطردة للشركة المساهمة وازدياد ممارسة البيع المفتوح للحصص (وأحيانا بالميزاد)، كانا يدلان بأن واحد على قيمة الأموال المستثمرة وعلى الرغبة في استثمار الثروات على هذا النحو الجديد، إذن تشكلت الرأسمالية في إنكلترا في وقت مبكر جدا وبما أن العمل هو الديانة الجديدة فقد طرأت تقنيات أساسية جديدة في صناعة النسيج والمناجم والزراعة والصناعة البحرية والحربية. وما زالت تدل على ذلك رواسب المشاغل الحرفية السيسترسية؛ فإن تحويل الأديرة إلى أماكن عادية في وقت جد مبكر بإنكلترا، فصم عرى المجتمع الإقتصادي - التقني السائد في العصر الوسيط وأسهم في تعجيل ظهور الرأسمالية واطرادها؛ فهذا كريستوفر هل Christopher Hill يذكر أن أديرة "الإخوة القاصرين" في لندن تحولت إلى مصانع للأسلحة، وقد ارتفعت انتاجيتها ارتفاعا كبيرا، وإن أملاك دير (سان ألبان) التي كانت تقدر وقت حله بـ(٢٥١٠) ليرات أصبحت تقدر بـ(١٨٠) ضعفا لدى الورثة العلمانيين بعد مرور قرن واحد.... والنتيجة عينها في حقل التعدين؛ فمن الوجوه الثقافية لهذه التحولات زوال حوانيت النساخ الذي يفسر ظهور المطبعة، وقد أفادت من ذلك أيضا تقنيات التسليح والملاحة البحرية، وقد أقلع ملوك إنكلترا عن دفع الرسوم لرومة وأخذوا باستثمار تلك الصناعات، وقد اختصرت الحفلات الدينية وأيام الأعياد بما يقدر بتوفير (٥٠٠٠٠) باون استرليني في كل يوم. ولم يسهم هذا الشعور المعادي للكاتوليكية في دعم قانون الفائدة القاسي فقط، بل في تقوية أواصر البيئة النفعية للحياة بالمعنى الدقيق.^(١)

ولكي نفهم أسباب هذا التحول الفكري والعقائدي والثقافي الذي مس منظومة المعرفة الأوروبية لا بد من التطرق إلى القوانين الإقتصادية العلمية المنقسمة إلى فئتين:

إحدهما: (القوانين الطبيعية التي تنبثق ضرورتها من الطبيعة نفسها) لا من الإرادة الإنسانية، مثل (قانون التحديد الكلي) القائل: "إن كل إنتاج كان يتوقف على الأرض وما تشتمل عليه من مواد أولية محدودة طبقا للكمية المحدودة للأرض وموادها الأولية".

١- جان ماري أوزياس: الفلسفة والتقنيات، صص ١٠٠ - ١٠٣ ولزبد من الاطلاع انظر موريس دوب: دراسات في نمو الرأسمالية، ترجمة رؤوف عباس حامد، لندن ١٩٧٤، وكرستوفر هل: المتطهرون والثورة Puritanism and Revolution، 1958.

أو قانون (الغلة المتزايدة) القائل: "إن كل زيادة في الإنتاج تعوض على المنتج تعويضا أكبر نسبيا مما زاده في الإنفاق، حتى تبلغ الزيادة إلى درجة خاصة؛ فتخضع عندئذ ل(قانون معاكس)، وهو (قانون الغلة المتناقصة) والذي ينص على أن الزيادة في الغلة تبدأ في التناقص النسبي عند درجة معينة".

وهذه القوانين جرت على سنة سائر القوانين الطبيعية والسنن الكونية التي تكشف عنها العلوم الطبيعية وجانبها الموضوعي، ولذا لا تحمل شيئا من الطابع المذهبي الذي يسود نواحي الحياة الإنسانية، الإجتماعية منها والفكرية، بل هي متوافقة معها - أي القوانين الطبيعية - في شأن الأبعاد الزمكانية، ما دامت الطبيعة هي (موضوع الإنتاج المتعلق بها في كل زمان ومكان).

ثانيهما: (القوانين العلمية)

تتضمن القوانين العلمية للإقتصاد السياسي قوانين للحياة الإقتصادية ذات الصلة بإرادة الإنسان نفسه، وهذا لأنها - أي الحياة الإقتصادية - ما هي إلا (إحدى المظاهر السلوكية لحياة الإنسانية العامة)، وما تلك القوانين العلمية للإقتصاد سوى (ميكانيزمات) أو قل القوانين أو الآليات التي تحكم ذلك النوع من (السلوك الإنساني) تحت ظرف خاص ونوع خاص من الحياة العامة؛ فتفسر (السلوكات الإقتصادية) من خلالها، والتي تلعب فيها (الإرادة) دورا فعالا؛ ف(قانون العرض والطلب) القائل: "إن الطلب على سلعة إذا زاد، ولم يكن في المقدور زيادة الكميات المعروضة استجابة للزيادة في الطلب؛ فإن ثمن السلعة لا بد وأن يرتفع"^(١).

وهذا لا يعبر عن (قانون موضوعي)، يعمل بصورة منفصلة عن وعي الإنسان كما تعمل قوانين الفيزياء والفلك، أو مثل الفئة الأولى من القوانين الطبيعية في الإنتاج سالفه الذكر.

١- كما هو واقع في أيامنا هذه من سنة ٢٠١٧ إذ عرفت أسعار النفط انخفاضا لم تعرفه منذ عقد السبعينيات أيام حرب أكتوبر ١٩٧٣، إذ لم تتجاوز سعر البرميل رقم الخمسين دولارا، وهذا ما دفع بالخبراء الإستراتيجيين الأمريكيين بخاصة لبحث مخاطر البحوث عندهم على التوصل إلى إيجاد بدائل طاقوية عن النفط، وهذا حتى لا تفتح ثغرة في سياسة الدفاع القومي الأمريكي الإستراتيجي وحتى لا تتعرض أمريكا بوصفها الدولة الأولى في العالم لأي ابتزاز مستقبلي من طرف الدول المنتجة لهذا النوع من الطاقة الغير قابلة للتجدد.

فـ(قانون العرض والطلب) يمثل إحدى الظواهر السلوكية الواعية في حياة الإنسان؛ فهو يوضح ويفسر (الكيفية) التي يقدم بها المشتري - في حالة مساواة الطلب للعرض - وأن البائع سيمتنع في تلك الحالة عن البيع إلا بذلك الثمن.

هل هذا السلوك يعتبر لا إراديا؟ كلا بل الإنسان المشتري ورد فعله الذي صدر منه اتجاه التسعيرة التجارية ينم عن فعل إرادي واع بالعمل الذي يصدر عنه اتجاه حالة مساواة الطلب للعرض.

وهذا لا يعد إقحاما فجأ للحياة الإقتصادية في مجال القوانين العلمية، كما يعتقد بعض المفكرين الإقتصاديين: (أن طابع الحتمية والضرورة للقوانين العلمية) يتنافى ويتناقض مع طبيعة (الحرية) التي تعد انعكاسا ل(الإرادة الإنسانية)؛ إخضاع الإنسان للقوانين العلمية بقهر وصرامة، يعد تناقضا صارخا لما يختص به الإنسان في حياته من حرية وانطلاق؛ فمعنى خضوعه لتلك القوانين هو تحوله إلى آلة جامدة، تسير آليا، ميكانيكيا، واستجابتها وردود فعلها مبرمجة في نظر الميكانيكيين مثل عملية الإستجابة القهرية لنبات عباد الشمس تجاه حرارة الشمس وضوئها.

الإنسان شيء مغاير لهذا الوهم الذي أفرزته هذه النظريات بسبب القصور الذي اعتورها في تصورها للحياة الإنسانية؛ فوجود قوانين طبيعية لحياة الإنسان تعتبر تفسيراً للنوع من (السلوك الإنساني) كما ألمحنا إلى ذلك سابقا، ألا وهو التبادلات الإقتصادية أو يمكن أن نطلق عليها إصطلاحا (السلوكات الإقتصادية)، وليس معناه فقدان الإنسان لحيته وإرادته، إذ لا إعتبار لإلغاء إرادة الإنسان وحيثية تحت هذا النوع من القوانين أو السنن..

٢- الموضوعة الثانية: رجحان جانب العقل

نظرا لعلاقة هذا النوع من القوانين بإرادة الإنسان، إذ يتأثر بكل ما ينتج عن الوعي الإنساني، وبكل العوامل الأخرى المتدخلة في إرادة الإنسان وميوله.

وإذا طرحنا سؤال: كيف يقع هذا؟

الغرب يجيب ويقول: "إن العقل قادر على حل جميع المشكلات، ولا توجد مشكلات حقيقية إلا تلك التي يستطيع العلم أن يحلها وهذه السمة تميز بها مذهب (سبينوزا)^(١) و(هيجل) الذي يرى أن العقل يحل مشكلة الغايات، أو مذهب (أوغست كونت) الوضعي الذي يرى أن العلم يحل مشكلة (الوسائل). وما عداها من المشاكل الأخرى؛ فهي مشاكل لاهوتية أو ميتافيزيقية، ومن ثم وجب إهمالها، ومن هذه الأفكار ولدت العلمية التكنوقراطية، أي ظهرت "ديانة جديدة" هي "ديانة الوسائل" التي تطرح دوماً على العقل البشري سؤال: كيف؟ ولا تطرح السؤال الآخر: لماذا؟^(٢)

ومن ثم طغت النظرة الإنعتاقية من الميراث القديم في مجالات الحياة المادية والإقتصادية للإنسان الغربي، دائماً على فمه سؤال: كيف أنتج؟ كيف أسيطر على السوق؟ إلى غير ذلك من هذه الأسئلة وما شابهها.. وهنا ظهر بعد واحد في حياة الفرد الأوروبي، وهو انحلال الفكر إلى الذكاء وحده، وبسبب أحادية البعد هذه ظهرت ثلاثة مراحل في تاريخ الشعوب الأوروبية:

١ / مرحلة تجاوز قدرة الطبيعة قدرة الإنسان.

٢ / مرحلة تجاوز قدرة الإنسان قدرة الطبيعة، ومن ثم السيطرة عليها.

٣ / مرحلة تجاوز قدرة الإنسان طاقة الإنسان، وهذا ما تعيشه الحضارة الغربية اليوم، التي استطاعت أن تنتج تقدماً علمياً وتكنولوجياً يفوق طاقة الإنسان بل صار هذا التقدم مارداً يجم على صدر الإنسانية، بما يحويه من مشاكل بيئية وتجاوزات أخلاقية خاصة بعد التوصل في حقل الطب إلى اكتشاف الكتابة الجينية للإنسان وتحقيق التناسخ الجيني.

ويرجع هذا التفوق إلى أسباب مذهبية معينة منها: أن الفكر الرأسمالي اعتبر الإنسان هو القاعدة الأساس في تحريك الإقتصاد، ولذا أعطيت الحرية الكاملة للفرد، حتى يتسنى له استغلال ثروته الاستغلال الكامل ويستثمرها للمصالح العام، وعلى هذا الأساس كانت الحرية

١ - سبينوزا: باروخ سبينوزا: (Baruch Spinoza) هوفيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن ١٧. ولد في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ في أمستردام، وتوفي في ٢١ فبراير ١٦٧٧ في لاهاي.

٢ - روجيه غارودي: المرجع السابق، ص ٤١.

سوى أداة أو قل وسيلة لتوفير المصالح العامة وضمان ما يتطلبه المجتمع من خير ورفاه، ولذا وجب على هذه الوسيلة أن تكون جديرة بمركزها (القاعدي) في (المذهب) وتارة يرى الرأسماليون أن (الحرية الاقتصادية) سبب لتنمية الإنتاج والثروة العامة، ومرة أخرى يرى المذهب أنها تعبير أصيل عن الكرامة الإنسانية وحق الإنسان في الحياة.

ومن الواضح أن القيمة المذهبية للفكرتين الأوليتين: (قيمة موضوعية)، مردها إلى النتائج والآثار التي تنتهي إليها في واقع الحياة، أما على أساس الفكرة الثالثة؛ فالقيمة المذهبية تكون قيمة ذاتية نابعة من شعور الإنسان بكرامته وإنسانيته، وهكذا أحالت الفلسفة الاقتصادية مقومات الحضارة الغربية التي تركز عليها إلى ما يلي:

أ/ إحالة الإنسان إلى ——— أداة عمل (آلة إنتاج واستهلاك)

ب/ إحالة الفكر إلى ——— الذكاء

ج/ إحالة اللانهائي إلى ——— الكم (اللانهائي السيء في الإنتاج والاستهلاك)^(١).

يمكن هنا إذن، أن نفرق بين نوعين من القيم هما (القيم الإنسانية) و(القيم الاقتصادية) ونمثلها في جدول بياني:

قيم إنسانية	قيم اقتصادية
اليد والوقت (طاقة فاعلة)	وسائل الإنتاج
العقل (الفكر المبدع)	الإطارات الفنية
القلب (الانفعال المؤدي إلى تركيز العمل عن طريق حشد الطاقة النفسية)	تركيز رؤوس الأموال

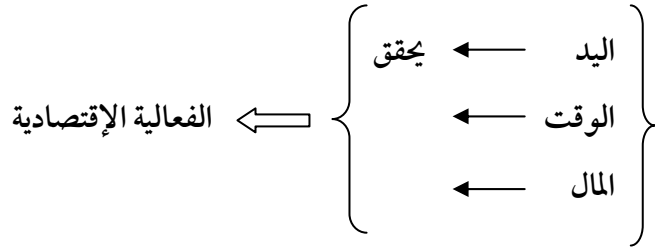
من خلال النظر إلى الجدول يتبين أن القيم الاقتصادية المذكورة في العمود الثاني صادرة في الأصل عن القيم الإنسانية المذكورة في العمود الأول، أي أنه لو وقع أي خلل على مستوى القيم الإنسانية بالضرورة سيؤثر ذلك في عالم القيم الاقتصادية؛ فالعلاقة النسبية بين القيم

١- روجيه غارودي: المرجع السابق، ص ٤٢.

الإنسانية والقيم الاقتصادية هي: (علاقة سببية) تضع القيم الإنسانية في رتبة (السبب) بالنسبة للقيم الاقتصادية، ومن خلال هذه الرؤية الفاحصة نلغي أن عالم الاقتصاد عالم (الإعتبارات النفسية)، وليس عالم (الإعتبارات الكمية) إلا في الرتبة الثانية، بعد عملية جرد تامة لكافة القيم الإنسانية.

إذ أن هذه القيم الإنسانية تعتبر (الإرادة الإنسانية المحركة) لأي نشاط أو سلوك إنساني، أما القيم الاقتصادية تعتبر (الإمكان) أو (الإمكانية) التي تهيأت لها الأسباب الأولية منذ القرن السادس عشر والسابع عشر. والنتائج المتحصل عليها تمكننا من فهم المبدأ الذي تقوم عليه (الديناميكا الاقتصادية) التي لا يمكنها الإستمرار إلا بتوفر (المبدأ الأساس) لها فما هو؟

المبدأ الأساس يتكون حسب جدول القيم الآتية:



أما شروط جعل الفعالية الاقتصادية أو العملية الاقتصادية أكثر إيجابية ؛ فهي:

- (الإختيار) ← الذي قد يأخذ صورة (الحق)
- (الضرورة) ← التي قد تأخذ صورة (الواجب)

١ / (الإختيار) المتمثل في صورة (الحق) قائم على (مبدأ أخلاقي) وهو:

"حق كل مواطن في لقمة العيش".

٢ / (الضرورة) المتمثلة في صورة (الواجب) قائمة على (مبدأ أخلاقي) وهو:

"(العمل) (واجب) على كل مواطن (يريد) لقمة العيش".

ومن زاوية أخرى نجد أن:

أ / (الإختيار) المتمثل في صورة (الحق) قائم على (مبدأ فني) وهو:

"(ضمان) لقمة العيش - أي الضرورات المادية -"

ب/ (الضرورة) المتمثلة في صورة (الواجب) قائمة على (مبدأ فني) وهو:

"كل فرد (يعمل) (ينتج) ما يأكل".

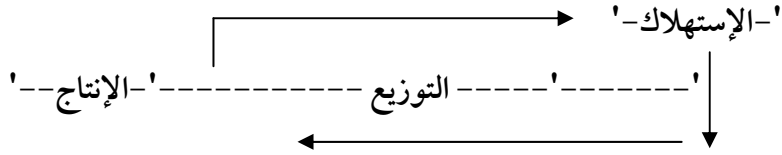
الصورة النهائية إذن هي:

(الاختيار) ← (الحق) = (مبدأ أخلاقي + فني) يؤدي إلى (الضمان)

(الضرورة) ← (الواجب) = (مبدأ أخلاقي + فني) ينتج (العمل) المؤدي إلى

(الإنتاج) المؤدي بدوره إلى (ضمان الحق).

كأننا أمام عملية معاوضة؛ فالجانب الأول يمكن أن يمثل (قيمة الإستهلاك)، بينما الطرف الثاني يمثل (قيمة الإنتاج)؛ فعملية المعاوضة التي تنقل الثمن من الطرف الأول إلى الطرف الثاني مقابل نقل العين من الطرف الثاني إلى الطرف الأول، وتعتبر (المعاوضة) بمثابة (آلية التوزيع) التي (توازن) وتكافئ بين طرفي المعادلة، ويمكن أن نعبر عن هذه الآلية برسم تمثيلي:



وهكذا يكون التفاعل الحقيقي والإيجابي للديناميكا الإقتصادية حتى يتحقق التوازن بين (الإنتاج) و(الإستهلاك) أي بين (الواجب) و(الحق)، ومن ثم يمكن تحقيق (فائض الإنتاج) في صورة (مال) الذي يقوم في الأخير بعملية (إختزان العمل) بمعنى (إدخار) الجزء المتبقى لسد (الحاجة) في يوم (مخمصة).

إذن (فائض الإنتاج) = (مال) ↔ (إختزان العمل)

بمعنى أن (العمل) مقرون بـ(المال) كقيمة (تعويضية)؛ فالعمل مقيد بشروط مادية وهذه هي صورة التبادل الاقتصادي، وبحسب مفهوم (الحق) و(الواجب) في ظل (المبدأ الأخلاقي - الفني) تتحقق لنا نتيجتان هما:

١/ تربية الإنسان على مبدأ قيمي وهو: الاتكال على (الذات)

٢ / إيجاد جو ثقافي جديد هو: تفاعل (الفكر) مع (الواقع) أي توفير (سياسة تنمية) جديدة قائمة على أساس (قيم ثقافية).

والمجتمع الذي يختار هذه الطريق يكون قد وضع الخطى في الطريق المستقيم، من هنا يمكننا أن نفهم (وثبة الغرب) إلى الأمام باتجاه (المستقبل)، لأنه وضع في الحسبان كامل (الشروط النفسية والتقنية والاجتماعية الضرورية) لتحقيق "الإقلاع الإقتصادي"، وهكذا حررت (الطاقات الكاسدة) أي التخلص و(الخروج) من دائرة (التخلف) التي كانت تمثل حالة نفسية ووضعية إجتماعية وظاهرة تاريخية سالبة وسائبة في تاريخ الشعوب الأوروبية في العصر الوسيط الذي كان يمثل عصر الأنوار للعالم الإسلامي في ظل التوجيهات السماوية لدين الإسلام، بينما كان يمثل لأوروبا عصر الظلمات في ظل هيمنة الإكليروس^(١) والإقطاع. هذه هي صورة (العلاقة الجبرية) بين (الحق) - "الإستهلاك" و(الواجب) - "الإنتاج". في هذه الحالة يمكن للمجتمع أن يستثمر فائض الإنتاج في العمليات والمشاريع الإقتصادية المقبلة، وهذا ما عبرنا عنه سابقا بمصطلح (المال يخزن العمل)، وصورة هذه الدالة في الرسم البياني نجدها دالة متزايدة نحو ما لانهاية، بتعبير آخر هذا المجتمع في (حالة نمو مطردة)، وهذا النمو لا يتحقق إلا بشروط أولية تظهر في صورة معادلتين هما:

(معادلة بيولوجية) تتحقق ← في فعالية الإنسان التي هي هبة الله لعبده.

(معادلة إجتماعية) تتحقق ← في شبكة العلاقات القيمية الإجتماعية، بتعبير رياضي آخر ما يمكن تسميته بـ(المميز) لدرجة الفعالية (المميزة) لأفراد مجتمع ما، عن أفراد مجتمع آخر. ومن ثم تحدد مواقف الفرد أمام المشكلات التي تعترض سبيل تقدمه، وتكون النتائج بحسب تحديد هذه المواقف، ولكن تصرف الفرد مقيد بشروط مجتمعية؛ فالنتائج المتحصل عليها مرهونة بهذه الشروط، بمعنى آخر هناك وجود لنوع من العلية والسببية أو (الجبر) و(الحتمية) على سلوك هذا الإنسان.

١ - الإكليروس: هو النظام الكهنوتي الخاص بالكنائس المسيحية، ولم يظهر إلا في القرن الثالث الميلادي. وتتفق الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية في درجات النظام الكهنوتي.

أما إذا أراد الفكك من هذا القيد لا بد له من تغيير على مستوى (المعادلة الاجتماعية)، وهذا بالفعل ما وقع في العالم الأوروبي عن طريق (آدم سميث) وغيره من علماء ورجال الإقتصاد للخروج من طوق الإقطاع، ولكنه وقع في خطأ فادح وهو قيام النشاط الإقتصادي على الإباحية المطلقة لإثبات وجود الذات (الفردانية)، لأن النزعة (الذرائعية) طغت على الذهنية الغربية.... هذه هي (التركيبة التوليفية) للشخصية الأوروبية عن طريق (الفكر) و(اليد) و(المال) في ظل (مطلقية الحرية)، ولذا كان (هلفسيوس)^(١) يرى أن (اليد) هي (ذات) الإنسان، وأن الحاجة في نظره هي المحرك الأول، ويعتقد أن اليد هي عضو القدرة الذي يتيح للإنسان تجاوز ذاته باستمرار^(٢)، ولقد نجحت أوروبا في تجربتها التاريخية هذه على أساس اعتبار (الحرية) قاعدة مذهبية لجعل (العامل الإنساني) مركز ومحور (النشاط الإقتصادي)، بعد تعيين نقاط إحداثيات المعلم الإقتصادي، وهي: نقطتا (الربح والسيطرة) على المحور العيني (العمودي)، ونقطة (الخسارة والاستسلام) على المحور السيني الأفقي.

من هنا يمكن لنا أن نفهم طبيعة الأسس الفكرية الثلاثة المشار إليها سابقا:

مرحلة تجاوز قدرة الطبيعة قدرة الإنسان (حالة الطبيعة العذراء قبل الاستغلال)
مرحلة تجاوز قدرة الإنسان قدرة الطبيعة (حالة الطبيعة الخاضعة لإرادة الإنسان
وفق علاقة الاستغلال والسيطرة المؤدية في الأخير إلى حالى الاستنزاف لثروات الطبيعة
وهذا عكس علاقة التسخير التي تؤدي بالإنسان إلى تنمية الثروة الطبيعية بمختلف
أنواعها الحية والجامدة)،
مرحلة تجاوز طاقة الإنسان قدرة الإنسان، (حالة التطور الصناعي والتكنولوجي
المذهل الذي يحياه الإنسان اليوم بسبب الانفجار المعلوماتي وعدم التحكم في النمو
المطرر لتنتائج العلم المعاصر)

1- هلفسيوس: كلود أدريان هلفسيوس، فيلسوف فرنسي ولد في باريس ١٧١٥ وتوفي في ١٧٧١، له نظرية تقول أن الناس كلهم يولدوا بقدرات متساوية، لكن ظروف التربية والتعليم تجعلهم متفاوتين في القدرات، وأن كل نشاط عقلي صادر من الإحساس.

2- جان ماري أوزياس: الفلسفة والتقنيات، صص ١١١-١١٢.

وهذا في ضوء المقومات الثلاثة التي سبق وأن ألمحنا لها في معرض حديثنا وهي:

إحالة (الإنسان) إلى (أداة عمل)

إحالة (الفكر) إلى (الذكاء) بمعنى إلى آلية ناتجة عن (تقنية)

إحالة (اللانهائي) إلى (الكم) بمعنى إلى إنتاج مادي يقاس بالكتلة والحجم والمساحة وغياب القيمة الرمزية المتمثلة في مفهوم (النفع) أو (الضرر) المعنويين، إذ صار النفع والضرر يتحققان بمدى تحقق الربح أو الخسارة وفق وتيرة زيادة الإنتاج ومن ثمة التصدير مما يدر سيولة مالية إضافية، أو وفق وتيرة تناقص الإنتاج مما يؤثر على التصدير في مقابل زيادة الاستيراد لسد النقص، مما يعني نقص في الاحتياط المالي للدولة والمجتمع.

ب/ شرح القاعدة ثلاثية القوائم:

ب-١ الحرية وسيلة لتحقيق المصالح: (الإنسان أداة إنتاج واستهلاك)

ولهذا السبب كانت الحرية التي نادى بها الرأسمالية مجردة من كل (إطار أخلاقي أو قيمى أو روحي)، لأنها حرية حتى في تقدير هذه المفاهيم، مما أضفى نسبية هلامية على هذه القيم المعيارية في المجتمع الرأسمالي، إذ غدت الرأسمالية لا تعترف بهذه القيم ك(ضرورة) أو ك(شرط) ل(ضمان) مصلحة المجتمع، بزعمها أن توفير (الحرية الفردية) كفيلة بـ(ضمان) هذه المصلحة العامة، لأنها تعتبر (الفرد) "قاعدة تأسيسية وشرط صحة لضمان وتحقيق المصالح".

أما الإنسان صاحب المشروع يصير (أداة عمل استهلاك) عن طريق تخوفه من تفوق مشروع آخر على مشروعه واكتساحه له، فـ(يعمل) بـ(دافع) من (المصلحة الخاصة) على تحسين مشروعه والاستزادة من كفاءاته، حتى يستطيع الصمود والاستمرار في خوض معركة السباق أو لنقل التسابق مع المشاريع الأخرى، ليصمد في هذا الأتون المستعر.

٢/ الفكر يتحول إلى (الذكاء):

من أهم الوسائل التي تتخذ من أجل تنمية المشروع وصموده أمام المشاريع الأخرى، إدخال تحسينات فنية على المشروع، هذا معناه: أن صاحب المشروع في المجتمع الرأسمالي الحر يظل دائماً يتلقف كل فكرة أو تحسين جديد على الإنتاج، أو أي أسلوب آخر يمكنه من رفع

مستوى الإنتاج بكلفة أقل. وإذا تمت هذه العملية يرى صاحب المشروع أن المشاريع الأخرى قد لحقت به؛ فيبدأ مرة ثانية في البحث عن وسيلة جديدة، حتى يحتفظ بأوليته وأسبقيته في الميدان.

ومن تأخر في هذا السباق؛ فإنه سينفلت من المدار الذي يدور في فلكه، وذلك بالإفلاس الذي يعتره، هكذا يسقط الضعفاء المنهزمون من الحساب ولا حساب إلا للأقوى. وواضح من هذا السعي المتواصل أن هذه المنافسة تؤدي إلى مصلحة المجتمع، لأنها تدفع إلى الاستفادة من الإنتاج العقلي العلمي والفني، لإشباع حاجات الإنسان الغربي بأقل (كلفة ممكنة).

ويتبين من هنا أن (الحرية) ليست (قيمة) أخلاقية بل هي (وسيلة) بيد الأقوياء ليفنوا بها الضعفاء من الوجود، لأنهم ليسوا جديرين بالحياة، هذه هي عين (فلسفة نيتشه^(١)) الذي نادى بإبادة الضعفاء، ولا حق في الحياة إلا للأقوى، وهو - أي نيتشه - الذي نادى بفكرة الإنسان الممتاز (السوبر مان).

وعيه، أضحت الحرية الإقتصادية (التعبير الحق والقانوني) للقوي في كل شيء، بينما الضعيف؛ فهو تحت رحمة المنافسين الأشداء الذين لا يعرفون لحياتهم النهمه حدودا، وقد عبر الخطاب القرآني عن هذه الصفة المذمومة في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج: ١٩-٢١).

على هذا الأساس، ساد الحياة الإقتصادية في المجتمع الغربي الرأسمالي فراغ روحي؛ فلم تستطع هذه الحرية أن تصل الوشائج الإنسانية بمشاعر البر والرحمة والخير والإحسان. يمكن القول إذن بأن (للرذائل الأخلاقية أسباب إقتصادية)، ولذا قال (غارودي) في كتابه حوار الحضارات يلي:

١- فريدريش فيلهيلم نيتشه: (Friedrich Nietzsche) (١٥ أكتوبر ١٨٤٤ - ٢٥ أغسطس ١٩٠٠) كان فيلسوفا ألمانيا، ناقدا ثقافيا شاعرا ولغويا وباحثا في اللاتينية واليونانية، كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث.

"وفي مثل هذا التصور وحيد البعد ينحل الفكر إلى الذكاء وحده، ولا يجد فيه الحب، ولا الإيمان، ولا الشعر مجالا. بل نحن ننسى أن الجنون هو الملح الذي يحمي العقل من الفساد. ولذا، هنا أيضا، ثار طلابنا سنة ١٩٦٨ وهم يرفعون شعار (لنكن عقلاء، ولنطلب المستحيل)"^(١)، ثم يضيف: "إنها حضارة مؤهلة للإنتحار... إنتحار لفقدان الهدف، يشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات وانتحار المراهقين بأعداد أكبر في الأصقاع الأغنى. إنتحار لإفراط الوسائل، يبرهن على ذلك مثلا المنظور الجائز لنضوب المصادر الطبيعية والتلوث، وذلك نتيجة لازمة لا يرى في الطبيعة شيئا آخر سوى أنها مستودع ومعمل لمعالجة القمامة، والمنظور يتصرف بوسائل هدم الحضارة بهذين الاعتبارين".

ويقول أيضا (مارسيل بريلو): "أن (بول بورو P. Bureau، المكلف في حادثته لحساب "علم الاجتماع" بتحقيق عن مزارعي "فيورد في النرويج" ذهب إلى اسكندنافيا متأثرا بأفكار (المدرسة) ومزودا بلائحة (لوبلاي) المراجعة من قبل راهب (تورفيل)، إلا أن هذه الرحلة أظهرت له، بقوة، عدم كفاية العوامل المادية. لم يكن كافيا.... لقد كان ينقص العنصر الأساسي الذي كان على (بول بورو) فيما بعد، أن يلقي عليه الضوء تحت اسم (تمثيل الحياة) Welttanschauung... يلاحظ (ألفريد فويه) A.Fouillée صاحب التعبير الذي أصبح كلاسيكيا وهو (الفكرة - القوة) أنه بالنسبة لمادية خشنة، كل ما هو غير حقيقة هو بذلك وهم، ولكن ما ليس حقيقة يمكن أن يكون خيالا. وخصب هو الخيال، كتلك المفاهيم الخلاقة للشاعر، للفنان، للفيلسوف، الذين يمكن أن يبرزوا عالما جديدا من الأفكار، والعواطف والإرادات.... إن شيئا لم يحدث في العالم الحقيقي دون أن يدرك في الحال فهمه وأن يستمد منه لحسابه ثروة جديدة.... وهذا التقدم هيئ في المذاهب قبل أن يتم في الأشياء وسار العقل في الطليعة على طريقة المدنية. إنها (مدرسة قانون الطبيعة والأشخاص) التي هي في أساس الثورات الثلاث الكبرى: الثورة الإنكليزية لعام ١٦٩٨، والأمريكية لعام ١٧٧٤، والفرنسية لعام ١٧٨٩، وما سماه (ديمار أيسماين) (النظام السياسي الحديث) و(كارل فريديرخ) (الديمقراطية الدستورية)، وبين التيارات المذهبية والانجازات التأسيسية يمكن أن

١- روجه غارودي: المرجع السابق، ص ٤١-٤٢.

توجد فوارق ملموسة، وفواصل محددة، ولكن لا وجود لمثل الانقلابات السياسية الدائمة التي لم تكن قد هيئت بسياق الأفكار في العقول"^(١).

٣/ الركيزة الأخيرة (إحالة اللانهائي إلى الكم):

نستطيع إدخالها ضمن (الموضوعة الثالثة) والتي تعرف بـ "رجحان اللانهائي السيئ"، وبتعبير ثان رجحان (المفهوم الكمي).

تحدثنا سابقا عن (الحرية) ك(وسيلة) لتحقيق المصالح، والآن ندرسها: ك(سبب) لتنمية الإنتاج، إذ من أجل تنمية (الإنتاج) تعتمد (الحرية) ك(سبب) وتحقيق ذلك كله يتم في شكل أو أسلوب (التنافس) في السوق بين رجال الأعمال وأرباب الشركات؛ فالمشاريع القوية تحطم غيرها، وتبدأ باحتكار الأسواق التجارية، حتى تقضي على كل أنواع المنافسات في باب التنمية أو رفع الإنتاج.

ومن هنا كان الجور في (كيفية تقدير قيمة الإنتاج)، لأن (الحرية) و(التنافس الحر) هما (أسلوب الاستمرارية) للمذهب الرأسمالي، و(وسيلة) لتحقيق الإنتاج الوفير وبكلفة أقل. هذا يدل على (كيفية تقسيم الإنتاج) على العامة وعلى تحسين الإنتاج وذلك بتحقيق (أكبر كمية ممكنة).

إذن لا علاقة بين مفهوم (العدالة الاجتماعية) و(كيفية تقسيم الإنتاج) العام على المواطنين في المذهب الرأسمالي، أي ليست مشكلة (قدرة)، بل مشكلة (أخلاق وقيم)،،

فالذي لا يملك ثمن الشيء، ليس له الحق بأن يطالب بجزء ولو بقليل منه، وهذا معناه البؤس أو الموت مصير الإنسان الفقير. وهذا لأسباب عدة كعدم قدرة هذا الشخص على منافسة آخرين أقوى سدوا كل الأبواب في وجهه؛ فلم يفز بفرصة واحدة ليعيد الاعتبار لنفسه، ويرجع مكانته السابقة.

١- مارسيل بريلو: علم السياسة، صص ١١٥-١١٦-١١٧، وانظر المراجع الآتية للمزيد من الاطلاع في الموضوع: ف. غيزو، تاريخ المدينة في فرنسا، باريس ١٩٢٩-١٩٣٠، وأيضا كتاب كارل فريدريخ، الديمقراطية الدستورية، باريس، المنشورات الجامعية لفرنسا، ١٩٥٨.

إذن دعوى (قدرة المذهب الرأسمالي) على تنمية الإنتاج هي في حقيقة الأمر (القدرة على الإباداة) في سبيل المجد والثروة على جماجم الآخرين، وليست تعبيراً عن تحقيق العدالة الاجتماعية..

وعلى ضوء هذا (التفسير) يمكن (فهم) سبب تلك الحملات الجنونية المسعورة من طرف الدول الاستعمارية لإستعباد البشر الآمنين، وتسخيرهم في خدمة الإنتاج الرأسمالي، وتقديمهم قرابين على مذبح (الاستعمار الاقتصادي).

وهذه السياسة الاقتصادية الجديدة كانت مبتكرة من أجل توجيه الرأي الأوروبي إلى البحث عن أراضي جديدة يستثمرها ويستغلها إلى أقصى حد ممكن، وليبعد عن الاهتمام بالمسائل الداخلية، وك (عملية تعويض) عن الحقوق المهضومة في ظل الحكم الرأسمالي.

رابعاً: نتائج فلسفة المذهب

١ / الصورة العامة لهذا المجتمع (صورة متحركة) غير (ساكنة) أي سيطرة (مفهوم الحركة) على الذهنية الأوروبية، وعندما تغلب (الحركة) على (السكون) تتغير بالضرورة ملامح المجتمع، بمعنى حلول قيم (الحركة والتغير) بدل قيم (الثبات والسكون) وعليه يتم تحديد (مفهوم التنمية)، لذا صارت الرؤية الاستشرافية الغربية وحتى الأنثروبولوجية تنعت العالم الشرقي بأنه عالم خامل متخلف لأنه عالم تتميز مجتمعاته بالحفاظ على نمط معاشها وسلوكها ولأنها مجتمعات زراعية لذا تتصف بالمحافظة والجمود والتقليد؛ في حين الفرد في الغرب يسعى دائماً لتنمية قدراته العقلية والنفسية والجسدية أيضاً، ويبحث عن فتح آفاق جديدة وإسهامات ابتكارية والنتائج من هذا هو ظهور (علاقات) من نوع خاص تتحكم في نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية ولذا يقول الخبير الإنكليزي في تاريخ التكنولوجيا والصناعة في بريطانيا الأستاذ آر. إيه. بوكانان R.A.Buchanan في كتابه الآلة قوة وسلطة: "وإذا تصورنا أن طبيعة الابتكار تؤلف أول مشكلة كبرى في تاريخ التكنولوجيا فإن المشكلة الثانية هي ذبوع الابتكار أو التجديد... مثال آخر عن السجال بين النزعة (الانتشارية) و(التوالد التلقائي)... أن الشيء الذي لا يدانيه شك تاريخي الآن هو أن أوروبا تأثرت بالتفوق الصيني فكان حافزاً قوياً لها إبان العصور الوسطى. هذا على الرغم من أن الغرب تهيأت له قوة دفع ذاتية في مجال الابتكار

التكنولوجي بعد العام ١٥٠٠ م.... إن الابتكار التقني من شأنه أن يشوش أو يغير من الآليات "الطبيعية" للسكان، مثال ذلك أن يساهم الابتكار في إنتاج المزيد من غلة مساحة مزروعة، أو أن يقضي على أسباب مرض ما. وهذا من شأنه أن يحفز بدوره حركة التحضر، ومن ثم يزعزع الأنماط التقليدية للحياة وسبل تنظيم العمل. ونجد بالمثل أن التقدم في التكنولوجيا العسكرية يغير من موازين القوى السياسية، ويشجع بالتالي على المنافسة والحرب بينما تحسّن سبل النقل والمواصلات يكسر حدود الزمان والمكان. وطبيعي أن هذا التقدم في صورته المختلفة يعزز عملية التغير الاجتماعي، وكثيرا ما يحدث هذا بطرق غير متوقعة وغير مستهدفة ويؤثر تأثيرا مباشرا في نسق القيم (للعقائد التقليدية)، وفي الخيال الفني والأدبي. ويتحمل مؤرخو التكنولوجيا مسؤولية استكشاف عواقب موضوع دراستهم حتى إن تعذر عليهم الوصول إلى إجابات شافية بشأن ما ينطوي عليه هذا الموضوع من مشكلات.^(١)

بل ويقول في سياق آخر: "ولعل أهم شرط في الشروط الأولية اللازمة لتحقيق ابتكار ناجح هو شرط وجود وسط اجتماعي متعاطف معها ولها. ولقد قيل عن حق إن (ابتكار الابتكار) هو من أهم القسمات المميزة للحضارة الغربية الحديثة، ونعني بذلك قيام نظام اجتماعي داعم للمبدعين ولأفكارهم"^(٢).

٢/ وهكذا يواصل المجتمع الغربي خطى سيره في الاتجاه نحو آفاق جديدة تسهم في صنع الحضارة الإنسانية وفق مبدأ (الحركة) و(التغير) عن طريق الابتكار والاكتشاف للوصول إلى الأحسن والأجود والأمثل المؤدي في نهاية المطاف إلى (المثال المطلق) Le Parfait.

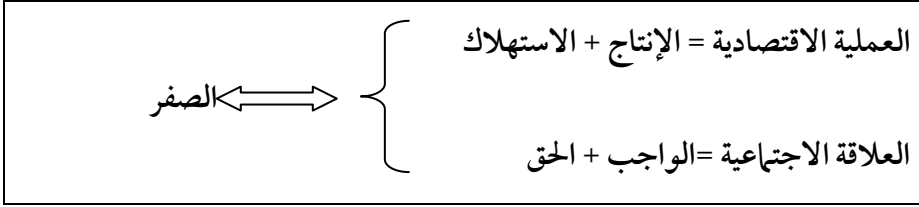
٣/ وبهذا تحدد الحريات والمسؤوليات أي (مفهوم الحق) و(مفهوم الواجب).

٤/ لكن المجتمع الغربي بما أنه يحدد (الأحسن) و(الأجود) بلغة (الأرقام)؛ فقد قام بتغيير مفهوم (التنمية) حيث طغى مفهوم (الإزدياد الكمي) في الفلسفة التنموية، بمعنى آخر أصبح

١- آر. إيه. بوكانان: الآلة قوة وسلطة، التكنولوجيا منذ القرن ١٧ حتى الوقت الحاضر، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، الطبعة الأولى، ربيع الأول ١٤٢١هـ / تموز ٢٠٠٠، صص ٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤١.

٢- نفسه، ص ٣٦.

تعريف التنمية يتم من خلال معيار أحادي الجانب، ألا وهو (المعيار الإقتصادي) الذي ينظر للحياة الإنسانية على أنها مكونة من عنصرين هما: (الإنتاج) و(الاستهلاك).



٥/ يمكننا أن نعبر عن هذا المعيار الإقتصادي في صيغة علاقة جبرية متكونة من متراحتين هما:

أي أن الإنتاج والاستهلاك قيمتان مختلفتان العلاقة على طرفي الصفـر، وهذا معناه أن الواجب والحق قيمتان مختلفتان العلاقة على طرفي الصفـر. وإذا جعلنا (عملية تطابق خطي) بين المتراجحة (١) والمتراجحة (٢) للعلاقة الجبرية سينتج لنا مفهوم جديد وهو: صبغ شبكة العلاقات الاجتماعية بصبغة علاقة اقتصادية محض. وبذا بقيت الفلسفة التنموية الغربية حبيسة التعريف الكمي العددي، تنظر للإزدهار الحضاري على أساس زيادة الريح باستمرار متواصل.

٦/ لذا لم يقيم أي تفاعل حقيقي وجدي بين الحضارة الغربية (حضارة الأرقام والكيلوواط) وبين الحضارات الإنسانية الأخرى (حضارات الحكمة والتأمل والمحبة والسلام)، وبالأخص الحضارة الإسلامية (حضارة الرحمة والخيرية)، وهذا من خلال الآليات التاريخية التي أشرنا لها في بداية هذا الموضوع. لذا كان المشروع الحضاري الغربي أحادي الجانب، استعماري النزعة، قائم على مبدأ الإخضاع والاسترقاق والاستغلال، بل والقهر والاعتصاب للغير وللآخر المخالف والمتباين للأنا الأوروبية.

٧/ لأن الاستعمار الغربي كان يعتمد على قاعدة (مركزية التسيير العالمي)، إذ ينظر للأقطار المستعمرة، على أنها مخازن المادة الحضارية الخام التي توجه إليها السيد الأوروبي المتواجد في أوروبا، ليحولها إلى ما يشاء من آليات الدمار والخراب، ويعيد تسويقها في البلدان المستعمرة.

وبسبب هذه المركزية الأوروبية لا توجد عواصم حضارية متعددة، بل توجد عاصمة واحدة ومركز تسيير واحد، يتحكم في كافة الأقاليم، لأن شرط نمو (الغرب) قائم على فلسفة

خاصة لمفهوم (الواجب) و(الحق) إذ نمو الغرب يتم على حساب تخلف العالم الثالث والصيغة
الجبرية لهذه العلاقة الإستعمارية هي:

$\begin{aligned} \text{تقدم ونمو الغرب (حق)} &= \text{نهب ثروات الشعوب (حق)} \\ \text{النمو (حق)} &= \text{النهب والاستعمار (حق)} \\ \text{إذن (النمو)} &= \text{(الاستعمار)} \end{aligned}$
--

وبهذا أنتج الاستعمار الغربي - الإقتصادي بعدا جديدا في العلاقات الدولية وهو:
(النمو) شرطه المقابل هو (التخلف).

٨ / وفي الأخير تغيرت الخارطة السكانية للقارة الأوروبية، وهذا بعد اتحاد الزراعة مع
الصناعة؛ تغير الشكل العمراني للمدن حسب السياسة الاقتصادية الجديدة، وبسبب ذلك
تغيرت كذلك الخارطة السكانية لدول العالم الثالث، بسبب هذا الاستعمار الجديد، وهكذا
تغيرت موازين القوى الدولية حسب التوزيع الجغرافي الجديد.

نستطيع أن نبين هذا برسم تمثيلي ليوضح الصورة:

العالم الغربي = محور (طوكيو - واشنطن) ← واشنطن (مركز الاستقطاب السياسي الدولي)
العالم الثالث = محور (أندونيسيا - أمريكا الجنوبية).

والمعادلة الرياضية للخارطة الجغرافية الإقتصادية هي:

مراجعة العالم الغربي = { كل القيم (ط) < الصفر }

مراجعة العالم الثالث = { كل القيم (ح) }

العالم الغربي = القيم الموجبة دائما (ط)

العالم الثالث = القيم الحقيقية

إذا جعلنا القيم (ط) تتقاطع مع القيم (ح) في المعلم المتعامد المتجانس = صورة هجينة
للعالم الثالث (مع الملاحظة أن هذا النوع من العلاقة غير جائز رياضيا).

٩ / خلاصة البحث: أن السياسة الإقتصادية الغربية نتج عنها ما يلي:

- (١) تغيير الخارطة السكانية للعالم الغربي وللعالم الثالث.
- (٢) تغيير الخارطة الاقتصادية للعالم الغربي وللعالم الثالث.
- (٣) تغيير الخارطة السياسية للعالم الغربي وللعالم الثالث.
- (٤) رجوع نظام الرقيق - (نقصد بها العمالة الرخيصة) - إلى الوجود باعتباره (وسيلة) لرفع وتيرة (الإنتاج)

- (٥) وهذا كله أدى بدوره إلى تغيير المعالم الجيوسياسية للعالم برمته فكان مايلى:
 - أ/ ظهور السوق الأوروبية المشتركة^(١) التي كان هدفها إنشاء أوروبا موحدة عام ١٩٩٢.
 - ب/ ظهور دول عدم الانحياز^(٢) واتجاهها منذ ١٩٧٣ إلى وضع سياسة تنمية جديدة، وكقوة سياسية ثالثة.
 - ج/ ظهور سياسة الأحلاف والأساطيل واتساع مهامها وتزايد مفعولها خاصة بعد ظهور البترول كقوة استراتيجية ضاغطة في حرب أكتوبر بين العرب والكيان الصهيوني سنة ١٩٧٣،

1- سوق أوروبية مشتركة هو مشروع اقتصادي سياسي، ظهر في أعقاب الاجتماع التمهيدي الذي عقده وزراء خارجية ست دول من الدول الأوروبية في إيطاليا في حزيران (١٩٥١م)، لإنشاء وحدة اقتصادية بين دولهم، وهذه الدول هي: فرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية وبلجيكا وهولندا ولكسمبورغ. وتلا ذلك وضع المبادئ الأساسية لهذه السوق، إذ وقعت عليها الدول المشار إليها فيما سمي معاهدة روما لتنشأ رسمياً في ٢٥ مارس / آذار ١٩٥٧م، الذي يعد التاريخ الفعلي لقيام السوق الأوروبية المشتركة.

2- تعتبر حركة عدم الانحياز، واحدة من نتائج الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، ونتيجة مباشرة أكثر، للحرب الباردة التي تصاعدت بين (المعسكر الغربي) (الولايات المتحدة الأمريكية وحلف الناتو وبين (المعسكر الشرقي) (الإتحاد السوفيتي وحلف وارسو) نهاية الحرب العالمية الثانية وتدمير دول المحور، وكان هدف الحركة هو الابتعاد عن سياسات الحرب الباردة. تأسست الحركة من ٢٩ دولة، وهي الدول التي حضرت مؤتمر باندونغ ١٩٥٥، والذي يعتبر أول تجمع منظم لدول الحركة. وتعتبر من بنات افكار رئيس الوزراء الهندي جواهر لال نهرو والرئيس المصري جمال عبد الناصر والرئيس اليوغوسلافي تيتو. وانعقد المؤتمر الأول للحركة في بلغراد عام ١٩٦١، وحضره ممثلو ٢٥ دولة، ثم توالى عقد المؤتمرات حتى المؤتمر الأخير ب طهران في أغسطس ٢٠١٢. ووصل عدد الأعضاء في الحركة عام ٢٠١١ إلى ١١٨ دولة، وفريق رقابة مكون من ١٨ دولة و ١٠ منظمات.

مما دفع بالمخطط الإستراتيجي وزير الخارجية الأمريكية الأسبق هنري كيسنجر أن يضع السيناريوهات المستقبلية لعصر الهيمنة الأمريكية وفق هذا المعطى الدولي الجديد. وانتهاء (الحرب الباردة) أمام وحدة المصالح الغربية المشتركة.

د/ تكريس مفهومي (التخلف) و(التقدم).

في النهاية العمل على توجيه حركة التاريخ نحو نظام دولي واحد ووحيد القطب والمتمثل في أمريكا، ومن ثم (قلة حاكمية) و(كثرة محكومة) بإسم القانون أو (النظام الدولي الجديد) لم يتحقق لحد الآن بفضل مقاومة عدة دول في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

خاتمة:

هذه هي خلاصة البحث التحليلي الذي قدمناه حتى نكون على بينة من أمر مجريات هذا العالم الذي يعيش صراعا أيديولوجيا، بين محاولة (تأكيد وجود الذات المتماهية) في شكل هلامي، هذا فيما يتعلق بما كان يعرف في أدبيات الستينيات والسبعينيات بالعالم الثالث عموما وصار اليوم يعرف بالعالم العربي والإسلامي، وبين محاولة (محو الذات) بالنسبة للعالم التكنولوجي الذي كان فلتة في التاريخ البشري الذي منه تولدت هذه الطفرة الحضارية، والتي بسببها تتجرع الإنسانية ويلات الحروب المدمرة والجوع والحرمان والمعاملات اللإنسانية المنعقة من كل ضابط أخلاقي أو ديني بدعوى (الحرية الاقتصادية)، وهكذا بنت الحضارة الغربية أبراجها العاجية على جماجم الملايين من البشر وطمس معالم حضارات كانت مزدهرة من على وجه البسيطة، وآثار حرب العراق ما زالت ماثلة للعيان تبكي سيمفونية الإنتحار، إنتحار إنسانية الإنسان على مذبح الغطرسة الأمريكية من أجل رفع أرصدها وريوعها البترولية.

إن الغرب يعيش تشوها حضاريا مثل ذلك التشوه الجيني الذي تعرفه السلالة البشرية في أجيالها المتحدرة والمتأخرة، ولم تستطع قوة الخبز التي جاء بها كارل ماركس، ولا قوة الجنس التي فضحها سيجموند فرويد ولا الطاقة المتفجرة التي انتهك أستاذها آنشتاين، لم تستطع هذه القوى كلها أن تطرد شعور الملل والفراغ الروحي والإفلاس الأيديولوجي للغرب، لكن

دون جدوى أو نفع، لأن إله العصر هو: النظام والترتيب مقابل رفض إله السماء، والتوجه بمنطق الإستعلاء ليتحكم في الأرض وفي أسرار الوجود ونواميسه، فإذا به يتيه في تضاريس الجغرافيا وحجب بارمودا ولم يستطع التفلت من جاذبية الأرض وجبرية الحركة الكادحة؛ فأصبح هباءة في الفضاء ونقطة عماء عند العتمة.

ومما زاد الأمر صعوبة في تحقيق أي حوار بين الشمال والجنوب هو ما جنته تلك التنظيرات المذهبية والمقدمة خصوصا من طرف خبراء البنتاغون فيما يعرف عند الخاص والعام في الأدبيات السياسية وفي علم الأنثربولوجيا الخرافية بمصطلح (نهاية التاريخ) و(صدام الحضارات)، مما أوصل الغرب إلى نقطة اللارجوع والعالم الإسلامي أيضا إلى نقطة اللارجوع، الأمر الذي أفرز فقها سياسيا جديدا يقوم على مفهوم (الفساد) في (القيم) التي تحكم الغرب والعرب على حد سواء؛ فالغرب يعيش حالة احتضار وإن طالت المدة، كما أن العالم الإسلامي وخاصة العربي يعيش حالة اختبار عسير خاصة بعد ذهاب أنصار الكاريزماتية السياسية، وغياب مفهوم الرجل الدولة والرجل الأمة، وعليه فالعالم الإسلامي كله مطالب أكثر من أي وقت مضى ببذل الجهد وحشد الهمم وتوجيه الطاقات الكامنة إلى تقديم البديل الحضاري حتى يتحقق منطق الخيرية في هذه الأمة الشاهدة لقوله تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

آل عمران ١١٠

ولكن هذه الخيرية المطلوبة لا تتحقق إلا بشرط تحقيق سنة (التغيير) كما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١

وفي هذا المقام يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله: "وفي المجال النفسي هناك محوران، (...) محور واشنطن موسكو (...) هذا المحور يطرُق أو يطرح مشكلاته بمنطق القوة، بينما يجب على المحور الآخر أعني به محور طنجة-جاكرتا (...) أن يطرح المشكلات بمنطق البقاء لأننا بحاجة إلى رفع مستوى بقائنا، إلى مستوى الحضارة، (...)، إذن لكي يتحقق التغيير في

محيطنا يجب أن يتحقق أولاً في أنفسنا، وبذلك تتوفر شروط رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، وإلا فإن المسلم لن يستطيع إتقاده نفسه ولا انقاده الآخرين^(١)

وعليه، لا بد من معاودة قراءة آثار الأستاذ المرحوم مالك بن نبي، ولكن بمنظار نقدي واع بخصوصية المرحلة التاريخية والتي يريد الغرب أن يلغي فيها خاصية التمايز والتفرد والاختلاف بإسم (العولمة)، حيث لا يجد إلا نسخاً مطابقة لصورته، أو صوراً تمثل مسخاً بشرياً..

كما إننا نود لفت الأنظار إلى كتب بن نبي، من أجل إعداد خطة العمل بتوفير الوسائل والشروط اللازمة لذلك، من أجل تحقيق رسالية الأمة وشهودها الحضاري على الإنسانية جمعاء.

والله الموفق إلى ما فيه خير البشرية في مقبل مآلها الدنيوي وفي منتهى عودها الأخروي، ولكن بشرط فقه سننه التي وضعها في المجتمع البشري، وفي الكون أجمع من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة، ومن أصغر خلية إلى أكبر عقل موجود في عالم الإنسان...

١- مالك بن نبي: مجالس دمشق، دار الفكر-دمشق، ط ٢، ٢٠٠٦، صص ١٨٤-١٨٥. انظر: مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر-دمشق / دار الفكر-الجزائر، ط ١، ١٩٩١، صص ٥٧-٥٩.

ملحق بالدراسة:

- ثبت بالدراسات الأكاديمية الخاصة بالمرحوم مالك بن نبي ١٩٧٣ - ١٩٠٥ م / ١٣٢٣ - ١٣٩٣ هـ جمع وترتيب الأستاذ الدكتور مسعود فلوسي
- ١- الاتجاه الإصلاحية عند مالك بن نبي، بحث ماجستير في الفلسفة بجامعة الكوفة، العراق، إعداد: وسام حسن فليح تويج، إشراف: جواد كاظم سماري، شوال ١٤٢٥ هـ، كانون الأول ٢٠٠٤ م
 - ٢- الاتجاه التربوي عند مالك بن نبي، بحث ماجستير بجامعة وهران، إعداد: بشير جلطى، إشراف: جيلالي بوحامة، ١٩٩٢ م
 - ٣- الأخلاق وأهميتها في بناء الحضارة عند كل من مالك بن نبي وألبرت أشفيتسر: دراسة تحليلية نقدية مقارنة، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر، إعداد: كمال ابن قوية، إشراف: عمار جيل، ٢٠٠٥ م، ٢١٧ ص
 - ٤- استراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي عند مالك بن نبي، تأليف: موسى لحرش، جامعة باجي مختار، عنابة، ٢٠٠٦ م، ٢٠٣ ص
 - ٥- استراتيجية البناء الحضاري عند مالك بن نبي، تأليف: جيلالي بوبكر، دار قرطبة، الجزائر، ٢٠١١ م، ١٩٤ ص.
 - ٦- الأسس الثقافية للتقدم الحضاري عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: محمد عيسو، إشراف: علي سعيد كريم، ٢٠٠٤ م، ٣٢٩ ورقة
 - ٧- الأسس المادية والمعنوية في فكر مالك بن نبي في مشكلات الحضارة، بحث دكتوراه في الفلسفة بجامعة وهران، إعداد: عبد القادر بوعرفة، إشراف: سليمان عشراقي، ٢٠٠٦ م
 - ٨- إشكالية الثقافة والسياسة عند مالك بن نبي، بحث دكتوراه في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: سليمان ملوكي، إشراف: موسى معيرش، ٢٠١٠ م، ٢٦٧ ص
 - ٩- إشكالية الحضارة وأزمة مجتمعات العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي، بحث دكتوراه دولة في علم الاجتماع بجامعة عنابة، إعداد: موسى لحرش، ٢٠١٠ م
 - ١٠- إشكالية النهضة بين مالك بن نبي وسيد قطب: دراسة تحليلية مقارنة، بحث ماجستير في الفلسفة بجامعة باتنة، إعداد: علي أرفيس، إشراف: موسى معيرش، ٢٠١٢ م، ٢٠٢ ورقة
 - ١١- الإصلاح والتجديد الحضاري لدى محمد إقبال ومالك بن نبي، تأليف: جيلالي بوبكر، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، ٢٠١٠ م، ١٩١ ص
 - ١٢- الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، تأليف: عبد القادر بوعرفة، دار الغرب، وهران، ٢٠٠١ م

- ١٣- البعث الحضاري عند مالك بن نبي ووحيد الدين خان، رسالة ماجستير في الدعوة والإعلام بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، إعداد: البشير قلاتي، إشراف: فضيل دليو، ١٩٩٧م
- ١٤- البعد الحدائثي في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: عمر بن سليمان، إشراف: عمر يوساحة، ٢٠٠٩م، ١٨٨ص
- ١٥- البعد السياسي للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، رسالة دكتوراه في الدعوة والإعلام والاتصال بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، إعداد: بشير قلاتي، إشراف: محمد زرمان، ٢٠٠٧م.
- ١٦- بنية التراث الإسلامي في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة قسنطينة، إعداد: رحيم محياوي، إشراف: كامل محمد عمران، ٢٠٠٣م، ٣٣٢ص
- ١٧- تأملات في فكر مالك بن نبي، تأليف: مجموعة كتاب، إشراف: عبد القادر بوعرفة، دار القدس العربي، وهران، ٢٠١٤م
- ١٨- التجديد في الفكر العقدي عند كل من أبي الأعلى المودودي ومالك بن نبي، رسالة دكتوراه بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، إعداد: أحسن برامة، إشراف: اسعيد عليوان، ٢٠١٠م
- ١٩- التجديد في المشروع الحضاري عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر، إعداد: عمران بودقزدام، إشراف: عمار جيدل، ٢٠٠٢م، ٤٤٧ص
- ٢٠- التجربة الإيمانية وبناء الإنسان بين مالك بن نبي وطه عبد الرحمن، رسالة ماجستير في العقيدة بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، إعداد: عمار قاسمي، إشراف: مولود سعادة، ٢٠٠٥م
- ٢١- التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، تأليف: الطاهر سعود، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٦م، ٢٨٨ص
- ٢٢- التربية والثقافة عند كل من مالك بن نبي وجون ديوي: دراسة مقارنة في إطار نظرية قانون الحاجة التاريخية الحضارية، رسالة ماجستير في علم النفس وعلوم التربية بجامعة الجزائر، إعداد: عبد القادر عيسات، إشراف: الطيب بلعربي، ٢٠٠٢م، ٢٠٧ص
- ٢٣- التربية والحضارة عند مالك بن نبي: بحث في مفهوم التربية وبيع علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي، تأليف: محمد بغداد باي، عالم الأفكار، الجزائر، ٢٠٠٦م
- ٢٤- التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، تأليف: علي القرشي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٩م، ٣٣٩ص
- ٢٥- التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، تأليف: نورة خالد السعد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٩٧م، ٣٢٢ص
- ٢٦- التفكير الاجتماعي عند مالك بن نبي، تأليف: ناجي حجلوي، الدار التونسية للكتاب، تونس، ط١، ٢٠١١م، ١٣١ص
- ٢٧- الحركة الاقتصادية في الدول النامية بين عالمية مالك بن نبي وتحديات العولمة، رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية بجامعة الجزائر، إعداد: شعيب شنوف، إشراف: ناصر دادي عدون، ٢٠٠٢م، ١٦٠ص

- ٢٨- الحضارة الإسلامية في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير بجامعة عين شمس، مصر، إعداد: لخضر شايب، إشراف: مصطفى الشكعة، ١٩٨٩م، ٢٧٧ص
- ٢٩- حول فكر مالك بن نبي، تأليف: عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ١، ١٩٨٥، ٨٠ص
- ٣٠- الخطاب العقدي المعاصر بين مالك بن نبي ومحمد المبارك، رسالة دكتوراه بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، إعداد: عبد الرحمن تركي، إشراف: إسماعيل زروخي، ٢٠٠٦م، ٢٨٠ ورقة
- ٣١- الخطاب النهضوي في فكر مالك بن نبي، تأليف: محمد جلوب الفرحان، منشورات بن مرابط، الجزائر، ٢٠١٤م
- ٣٢- الدور الحضاري للمجتمعات الإسلامية المعاصرة عند مالك بن نبي، بحث ماجستير في الفلسفة بجامعة قسنطينة، إعداد: هدى بن زقوطة، إشراف: نورة بوحناش، ٢٠٠٩-٢٠١٠م، ٢٤٥ ورقة
- ٣٣- الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي وأزوالد اشبنجلر، بحث ماجستير في الفلسفة بجامعة باتنة، إعداد: جمال بروال، إشراف: عبد المجيد عمراني، ٢٠١٢-٢٠١٣م، ٢٩٥ ورقة
- ٣٤- الرؤية السوسيولوجية في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير في علم الاجتماع بجامعة قسنطينة، إعداد: نعمان عباسي، إشراف: مراد زعيمي، ٢٠٠٢م، ١٧٣ ورقة
- ٣٥- الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أنموذج مالك بن نبي، تأليف: بدران بن لحسن، كتاب الأمة، قطر، ع ٧٣، رمضان ١٤٢٠هـ، يناير ٢٠٠٠م، ٢٢٧ص
- ٣٦- الصراع الحضاري في العالم الإسلامي (مدخل تحليلي في فلسفة مالك بن نبي)، تأليف: عكاشة شايف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١، ١٩٩٣م، ١٥١ص
- ٣٧- صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، تأليف: عبد اللطيف عبادة، دار الشهاب، باتنة، ١، ١٩٨٤م، ١٤٧ص
- ٣٨- العروج الحضاري بين مالك بن نبي وفتح الله جولن، تأليف: فؤاد عبد الرحمن البنا، كتاب الأمة، قطر، ع ١٥٥، جمادى الأولى ١٤٣٤هـ، ٢٣٦ص
- ٣٩- فقه التغيير عند مالك بن نبي، تأليف: عبد اللطيف عبادة، دار عالم الأفكار، الجزائر، ٢٠٠٦م، ٣٤٢ص
- ٤٠- الفضاء الإعلامي في فلسفة أبي حامد الغزالي وفكر مالك بن نبي: دراسة إبستمولوجية للبناء المعرفي، رسالة ماجستير في الإعلام بجامعة الجزائر، إعداد: صليحة بودقة، إشراف: زهير احدادن، ١٩٩٨م، ٢٢٣ص
- ٤١- الفكر التربوي عند مالك بن نبي، رسالة دكتوراه في علم اجتماع التربية بجامعة بسكرة، إعداد: العابد ميهوب، إشراف: نور الدين زمام، ٢٠١٣-٢٠١٤م، ٤٥٥ص
- ٤٢- الفكر الديني الحديث: حالة مالك بن نبي، رسالة ماجستير في علم الاجتماع الديني بجامعة الجزائر، إعداد: الهادي سعدي، إشراف: محفوظ سماتي، ٢٠٠٩م، ١٤٣ص

- ٤٣- الفكر السوسيولوجي عند مالك بن نبي، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع بجامعة البليدة، إعداد: يمينة بن عروس، إشراف: فضيل رتيمي، ٢٠٠٩م
- ٤٤- الفكر السياسي عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: كمال بن فليس، ١٩٩٩م، ١٣٨ص
- ٤٥- الفكر السياسي عند مالك بن نبي، تأليف: بوراس يوسف، دار هومه، الجزائر، ٢٠١٣م، ٣٢٥ص . وأصل الكتاب رسالة ماجستير في الفلسفة بالمدرسة العليا للأساتذة في بوزريعة، الجزائر، ٢٠١١م.
- ٤٦- فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي: دراسة تحليلية، مذكرة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: ياسين بريك، إشراف: ماشاسين، ٢٠٠٤م، ١٨٥ ورقة
- ٤٧- فلسفة التجديد الحضاري بين مالك بن نبي وروجيه غارودي، بحث ماجستير في فلسفة التربية بالمدرسة العليا للأساتذة في بوزريعة، الجزائر، إعداد: كبحول بوالأنوار، إشراف: مسعود يعيش، ٢٠١٥م، ١٨٥ ورقة
- ٤٨- فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، تأليف: سليمان الخطيب، نشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن والمؤسسة الجامعية للدراسات والنشر في بيروت، ١٩٩٣م، ٣٠٣ص
- ٤٩- فلسفة الحضارة بين مالك بن نبي وروجيه غارودي، بحث للحصول على الدكتوراه في الفلسفة، جامعة الجزائر، إعداد: مسعود بعيش، إشراف: يوسف حسين، ٢٠٠٧م، ٣٧١ص
- ٥٠- في صحبة مالك بن نبي، تأليف: عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ١، ٢٠١٣م، مجلدان ١٣٢٢ص
- ٥١- قراءة في فكر مالك بن نبي، تأليف: عبد الوهاب بوخلخال، كتاب الأمة، قطر، ١٥٢، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م
- ٥٢- مالك بن نبي بأقلام معاصريه، جمع وإعداد: نور الدين مسعودان، دار النون، الجزائر، ٢٠٠٠م، ٨٠ص
- ٥٣- مالك بن نبي: حياته وفكره، تأليف: عبد الله العويسي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٢م، ٥٦٦ص. وأصل الكتاب رسالة نالت درجة الماجستير في الثقافة الإسلامية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض بالمملكة العربية السعودية، ١٤٠٥هـ
- ٥٤- مالك بن نبي: دراسة استقرائية مقارنة، تأليف: مولاي الخلفية لمشيبي، نشر: محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م، ١٩٤ص
- ٥٥- مالك بن نبي رجل الحضارة: مسيرته وعطاؤه الفكري، تأليف: مولود عويمر، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، ١، ٢٠٠٧م، ٢٥٥ص
- ٥٦- مالك بن نبي: عصره وحياته ونظريته في الحضارة، تأليف: فوزية بربون، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠م، ٢٥٦ص

- ٥٧- مالك بن نبي: عودة إلى الذات - الفعالية والسننية، تأليف: رشيد أورانز، مركز الذاكرة للتنمية الفكرية، دمشق، ٢٠٠٠م
- ٥٨- مالك بن نبي فكره وأعماله: أعمال ملتقى دولي في الجزائر (٢٣-٢٤-٢٥ شعبان ١٤٢٤هـ / ١٨-١٩-٢٠ أكتوبر ٢٠٠٣م)، تأليف: مجموعة من الباحثين، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، ٢٠٠٥م، ٢٩١ص
- ٥٩- مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي، تأليف: عمر بن عيسى، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ٢٠١٠م، ٩٦ص
- ٦٠- مالك بن نبي في ذاكرة عبد السلام المراس، تأليف: محمد البنيادي، دار الشاطبية، الجزائر، ط ٢، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م، ٥٣ص
- ٦١- مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح، تأليف: محمد العبد، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م
- ٦٢- مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، تأليف: أسعد السحمراني، دار النفائس، بيروت، ط ٤، ١٩٨٤م، ٢٦٤ص
- ٦٣- مالك بن نبي وابن خلدون: مواقف وأفكار مشتركة، تأليف: الطيب بن إبراهيم، دار مدني، الجزائر، ٢٠٠٢م
- ٦٤- مالك بن نبي واستشراف المستقبل: من شروط النهضة إلى الميلاد الجديد، تأليف: نخبة من الباحثين، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ٢٠١١م. ج ٣٠٧: ١ص. ج ٢٨٩: ٢ص
- ٦٥- مالك بن نبي والاتجاه الحضاري في الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة ماجستير بجامعة الجزائر، إعداد: محمد العربي معريش، ١٩٨٢م
- ٦٦- مالك بن نبي والفقهاء الحضاري، تأليف: نخبة من الباحثين، نشر: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، بمناسبة تخرج الدفعة التاسعة عشرة، جمادى الثانية ١٤٢٨هـ، جويلية ٢٠٠٦م، ١٩٠ص
- ٦٧- مالك بن نبي والقضية الوطنية، بحث ماجستير في التاريخ بجامعة الجزائر، إعداد: رجاء مسعودي، ١٩٩٥م
- ٦٨- مالك بن نبي والوضع الراهن، تأليف: محمد شاويش، دار الفكر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٧م، ١٣٦ص.
- ٦٩- مالك بن نبي ومشكلات الحضارة: دراسة تحليلية ونقدية، تأليف: زكي الميلاد، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٧م، ٢٠٨ص
- ٧٠- مالك بن نبي ومشكلة الحضارة: دراسة تحليلية نقدية، تأليف: زكي أحمد، دار الصفوة، بيروت، ١٩٩٢م

٧١- مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة، رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، إعداد: حسن موسى محمد العقبي، إشراف: صالح حسين الرقب، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م، ٢٢٦ ص

٧٢- مالك بن نبي وموقفه من قضايا عصره، مذكرة ماستر في التاريخ المعاصر، جامعة بسكرة، إعداد : يوسف موساوي، إشراف: شهرزاد شلبي، ٢٠١٢-٢٠١٣ م، ١٦٥ ورقة

٧٣- محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، تأليف: قادة بحيري، دار الغرب، وهران، ٢٠٠٥ م، ١٨٨ ص

٧٤- محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، تأليف: الطيب برغوث، دار الشاطبية، الجزائر، ط١، ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م، ١٩٨ ص

٧٥- المدخل إلى فكر مالك بن نبي، تأليف: أحمد بناسي، منشورات بن مرابط، الجزائر، ٢٠١٤ م، ١٢٩ ص

٧٦- مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، تأليف: عبد السلام الجفائري، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٤ م، ٢٢٩ ص

٧٧- مشكلات العالم الإسلامي ومعالجاتها في فكر مالك بن نبي، تأليف: عصام محمد عدوان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠ م، ١٠٧ ص

٧٨- مشكلة التاريخ عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: لخضر شريط، إشراف: عبد الرزاق قسوم، ١٩٨٩ م، ١٩١ ورقة

٧٩- مشكلة التغيير عند مالك بن نبي، مذكرة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: لخضر حميدي، إشراف: الأخضر شريط، ٢٠٠٤-٢٠٠٥ م، ١٩٤ ص

٨٠- مشكلة التقدم في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: آمنه تشيكو، إشراف: محمود يعقوبي، ١٩٩٩ م، ١٨٠ ورقة

٨١- مشكلة السلام في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة، إعداد: أحمد مسعود، ١٩٨٨ م، ٤٦٥ ص

٨٢- المشكلة الفلسفية والإيديولوجية في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: جريدة جاري، ١٩٩٧ م

٨٣- مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: محمد يحياوي، إشراف: أحمد موساوي، ١٩٩٣ م، ١٧٢ ص

٨٤- المصادر الدينية والفلسفية في موقف مالك بن نبي من الحضارة، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة القاهرة، إعداد: زينب مكارم، ١٩٨٦ م

٨٥- معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي، مذكرة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: محمد لعاطف، إشراف: طالب مناد، ٢٠٠٧-٢٠٠٨ م، ١٨٩ ص

- ٨٦- مفهوم الإنسان عند مالك بن نبي، بحث ماجستير بجامعة وهران، إعداد: الشارف لطرش، إشراف: سليمان عشراقي، ٢٠٠٢م
- ٨٧- مفهوم التبعية في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير في العلوم السياسية بجامعة الجزائر، إعداد: سلوى بن حديد، إشراف: فتحة علاب، ١٩٩٦م، ١٩٧ ص
- ٨٨- مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي، تأليف: أمينة تشيكو، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ٢٠٠ ص. وأصل الكتاب رسالة نالت دبلوم الدراسات المعمقة في الفلسفة من جامعة الجزائر، ١٩٨٥م
- ٨٩- مفهوم السياسة والأخلاقيات السياسية عند المفكر مالك بن نبي: دراسة حالة الجزائر، رسالة ماجستير في التنظيم الإداري والسياسي بجامعة الجزائر، إعداد: نعيمة بغداداي باي، إشراف: منصور بن لرنب، ٢٠٠٥م، ٢٢٧ ورقة
- ٩٠- مقاربات حول فكر مالك بن نبي من على منبر الجزائر، تأليف: عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٨م، ٢٥٦ ص
- ٩١- مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي: نحو نظرية تربوية جديدة للعالم الإسلامي المعاصر، تأليف: عمر نقيب، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م
- ٩٢- مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الفلسفة بجامعة الجزائر، إعداد: حمودة سعيدي، إشراف: عمار طالبي، ١٩٨٦م، ٣٥١ ورقة
- ٩٣- مكانة الدين في فكر مالك بن نبي ودوره في حركة التغيير الاجتماعي، رسالة ماجستير في الفلسفة بالمرحلة العليا للأستاذة في بوزريعة، الجزائر، إعداد: مولود الأخضر، ٢٠٠٩م
- ٩٤- مكانة شبكة العلاقات الاجتماعية في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، تأليف: فاطمة الزهراء سعدياني، منشورات: كتابك، الجزائر، ط١، ٢٠١٤م. وأصل الكتاب مذكرة ماجستير في أصول الدين بجامعة الجزائر، إشراف: محمد موسى بابا عمي، ٢٠١٢م، ١١١ ص
- ٩٥- منهج التفسير في فكر مالك بن نبي، رسالة ماجستير في الكتاب والسنة بجامعة باتنة، إعداد: نصر الدين عزوني، إشراف: أحمد رحاني، ٢٠٠٠م، ٢٩٢ ورقة
- ٩٦- موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث، رسالة دكتوراه في أصول الدين بجامعة الجزائر، إعداد: يوسف حسين، إشراف: طه جابر العلواني، ١٩٩٨م، ٦٣١ ورقة
- ٩٧- نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث، تأليف: يوسف حسين، دار التنوير، الجزائر، ٢٠٠٤م، ١٤٤ ص
- ٩٨- نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي، تأليف: عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٧٩م، ٤٨ ص

٩٩- نظرية التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي و كارل ماركس، بحث دكتوراه بجامعة، إعداد: نورة خالد السعد، ١٤١٦هـ.

100- La vie et l'oeuvre de Malek Bennabi: 1905-1973 par Zidane Khoulif

Thèse de doctorat en Langues, civilisations et sociétés orientales Sous la direction de Burhān Ġalyūn. Soutenue en 2006 à Paris 3.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- ابن ماجه: سنن ابن ماجه، بيت الأفكار الدولية، (د. ت).
- الترمذي: سنن الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦.
- الطبراني: المعجم الكبير، القاهرة، ١٩٩٤.
- ابن منظور: لسان العرب، المجلد ٥، دار صادر بيروت، ١٩٨٣.
- ١- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن (الطفل) ترجمة مروان القنواقي، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٩.
- ٢- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن (الطالب) ترجمة المؤلف، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٠.
- ٣- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، ١٩٨٦.
- ٤- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩١.
- ٥- مالك بن نبي: فكرة كومنولث إسلامي، دار الفكر، ترجمة الطيب الشريف، دمشق، الطبعة ٢، ١٩٩٠.
- ٦- مالك بن نبي: فكرة كومنولث إسلامي، دار الفكر-دمشق/ دار الفكر المعاصر-بيروت، ترجمة الطيب الشريف، ط ٢، ٢٠٠٠.
- ٧- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، طبعة ٤، ١٩٨٤.
- ٨- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، ١٩٨٦.
- ٩- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، المسألة اليهودية، (تحت إشراف وزارة الثقافة) دار الوعي للنشر والتوزيع-الجزائر، ط ١، ٢٠١٣.
- ١٠- مالك بن نبي: فكرة الإفريقية-الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، دار الفكر دمشق، ١٩٧٩.
- ١١- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، ١٩٨١.
- ١٢- مالك بن نبي: المسلم في عالم الإقتصاد، دار الفكر دمشق، ١٩٨٦.
- ١٣- مالك بن نبي: تأملات، دار الفكر دمشق، ١٩٨٦.

- ١٤- مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، دار الفكر دمشق، ١٩٨٦.
- ١٥- مالك بن نبي: في مهبط المعركة (إرهاصات الثورة)، دار الفكر-دمشق، ط١، ١٩٩١.
- ١٦- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط ٤، دمشق ١٩٨٤.
- ١٧- مالك بن نبي: لبيك: حجج الفقراء (رواية)، ترجمة زيدان خوليف، دار الفكر-دمشق، ط١، ٢٠٠٩.
- ١٨- مالك بن نبي: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر-دمشق، ١٩٨٥.
- ١٩- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر-دمشق/ دار الفكر المعاصر-لبنان، ٢٠٠٢.
- ٢٠- مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر-دمشق/ دار الفكر المعاصر-لبنان، ط٤، ٢٠٠٥.
- ٢١- مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٦٩.
- ٢٢- مالك بن نبي: العفن، الجزء ١ (١٩٣٢-١٩٤٠)، ترجمة نور الدين خندودي، تقديم أحمد بن نعمان وتصدير عبد الرحمان بن عمارة، دار الأمة-الجزائر، الطبعة ١، ٢٠٠٧.
- ٢٣- مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر-دمشق/ دار الفكر-الجزائر، ط١، ١٩٩١.
- ٢٤- مالك بن نبي: مجالس دمشق (محاضرات أُلقيت في عامي ١٩٧١-١٩٧٢)، دار الفكر-دمشق، ط٢، ٢٠٠٦.
- 25- Malek Bennabi: La lute Ideologique dans les pays colonisé, editions samar-alger 2008.
- 26- Malek Bennabi: Le livre et le milieu humain (inédit), editions samar-alger (2eme edit) 2007.
- 27- Malek Bennabi: Pour changer l'Algerie (articles de presse), societé d'édition et de communication, Tipaza-Algerie 1989.
- 28- Malek Bennabi: Memoire d'un temoin du siècle (2me edit), entreprise nationale du livre, Alger 1990.
- 29- Malek Bennabi: Memoire d'un temoin du siècle (L'enfant), presentation et notes de Nour-eddine Boukrouh, editions samar-alger 2006.
- 30- Malek Bennabi: Pourritures, Mémoires, Tome 1 (1932-1940), Dar El-ouma-Alger 2007.

- 31- Malek Bennabi: Memoire d'un temoin du siècle (L'étudiant), presentation et notes de Nour-eddine Boukrouh, editions samar-alger 2006.
- 32- Malek Bennabi: Memoire d'un temoin du siècle (L'écrivain), presentation et notes de Nour-eddine Boukrouh, editions samar-alger 2006.
- 33- Malek Bennabi: Memoire d'un temoin du siècle (Les Carnets), presentation et notes de Nour-eddine Boukrouh, editions samar-alger 2006.

ثانياً: المراجع:

- ١- أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، بيروت ٢٠١٢.
- ٢- أحمد سميلوفيتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة ١٩٩٨.
- ٣- اسماعيل زروخي وأساتذة آخرون: التيارات الفلسفية الغربية وأثرها على الفكر العربي، قسنطينة- الجزائر، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري.
- ٤- آرييري ج. أ: المستشرقون البريطانيون، ترجمة محمد الدسوقي، القاهرة، ١٩٤٦.
- ٥- أر. ايه بوكانان: الآلة قوة وسلطة. التكنولوجيا منذ القرن السابع عشر حتى الوقت الحاضر، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٠.
- ٦- توماس س. كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة حيدر اسماعيل، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧.
- ٧- جان ماري اوزياس: الفلسفة والتقنيات، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات-بيروت-باريس، الطبعة ٢، ١٩٨٣.
- ٨- جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٧.
- ٩- جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، الدار البيضاء، ١٩٨٦.
- ١٠- جيلالي بوبكر: البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة-الجزائر، ٢٠١٠.
- ١١- حسين أيوب: الأنبياء والرسول، الزيتونة للإعلام والنشر، تونس، ١٩٩٤.
- ١٢- خالص جلبي: جدلية القوة والفكر والتاريخ، دار الفكر المعاصر-بيروت / دار الفكر-دمشق، ط ١، ١٩٩٩م.

- ١٣- خالص جليبي: الطب محراب للإيمان، جزءين، دار الكتب العربية بالتعاون مع مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٧١ و ١٩٧٥.
- ١٤- خالص جليبي: الطب محراب للإيمان، جزءين بالجزائر عن دار الهدى، عين مليلة سنة ١٩٩١.
- ١٥- خالص جليبي: حوار الطب والفلسفة، دار المنبر للنشر-دمشق، ط١، ١٩٩٩.
- ١٦- رمضان حمود: الفتى، المطبعة الأهلية تونس ١٩٢٩.
- ١٧- روجه غارودي: حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٢.
- ١٨- سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، النص والسياق، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠١.
- ١٩- شبل فؤاد محمد: حضارة الإسلام في دراسة أرنولد توينبي، القاهرة ١٩٦٨.
- ٢٠- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٢.
- ٢١- طه وادي: جماليات القصيدة المعاصرة، الإسكندرية، ط٨، ٢٠٠٠.
- ٢٢- علي شريعتي: الأمة والإمامة، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت ٢٠٠٧.
- ٢٣- علي القرشي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، دار الزهراء للإعلام العربي، ط١.
- ٢٤- عمار بن زايد: النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط١، ١٩٩٠.
- ٢٥- عمر بن عيسى: مالك بن نبي في تاريخ الفكر الإسلامي وفي مستقبل المجتمع الإسلامي، دار الفكر- دمشق، الطبعة الثانية سنة ٢٠١٠.
- ٢٦- عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، مسار نحو البناء الجديد"، عن دار الفكر-دمشق / دار الفكر المعاصر-بيروت، ٢٠١٣.
- ٢٧- عبد اللطيف محمد خليفة: ارتقاء القيم، دراسة نفسية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٢.
- ٢٨- عبد اللطيف محمد خليفة: ارتقاء القيم، دراسة نفسية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٢.
- ٢٩- فوزية بريون: مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة، دار الفكر بدمشق في ٢٠١٠.
- ٣٠- مارسيل برلو: علم السياسة، سلسلة زمني علما، ترجمة محمد برجوي، بيروت ١٩٩٥.
- ٣١- محمد العبد: مالك بن نبي، مفكر اجتماعي ورائد إصلاح (١٣٢٣-١٣٩٣هـ = ١٩٠٥-١٩٧٣م)، دار القلم بدمشق، سنة ٢٠٠٦م.
- ٣٢- محمد بوشحيط: الكتابة لحظة وعي، مقالات نقدية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤.
- ٣٣- محمد شاويش: مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر بدمشق، ٢٠٠٧.

- ٣٤- محمد عبد الحميد: تحليل المحتوى في بحوث الإعلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٧٩.
- ٣٥- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناس، الدار البيضاء، توبقال، ط٤، ٢٠٠٥.
- ٣٦- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية ١٩٢٢-١٩٧٥، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥.
- ٣٧- مرتضى مطهري: المجتمع والتاريخ، تعريب علي أذر شب، بيروت ط١، ١٤٠٢هـ.
- ٣٨- مصطفى غالب: في سبيل موسوعة فلسفية، بيروت، ١٩٨٣.
- ٣٩- نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، الدار السعودية للنشر ١٩٩٧.
- ٤٠- وحيد الدين خان: الدين في مواجهة العلم، ترجمة ظفر الاسلام خان، مراجعة عبد الحلیم عويس، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
- 41- K. Маркс и Ф.Энгельс Полное собрание сочинения изд.прогрес Москва , 1965. т.15.
- 42- K. Маркс и Ф.Энгельс Полное собрание сочинения изд.прогрес Москва , 1965, Еврейский вопрос, т.9.

